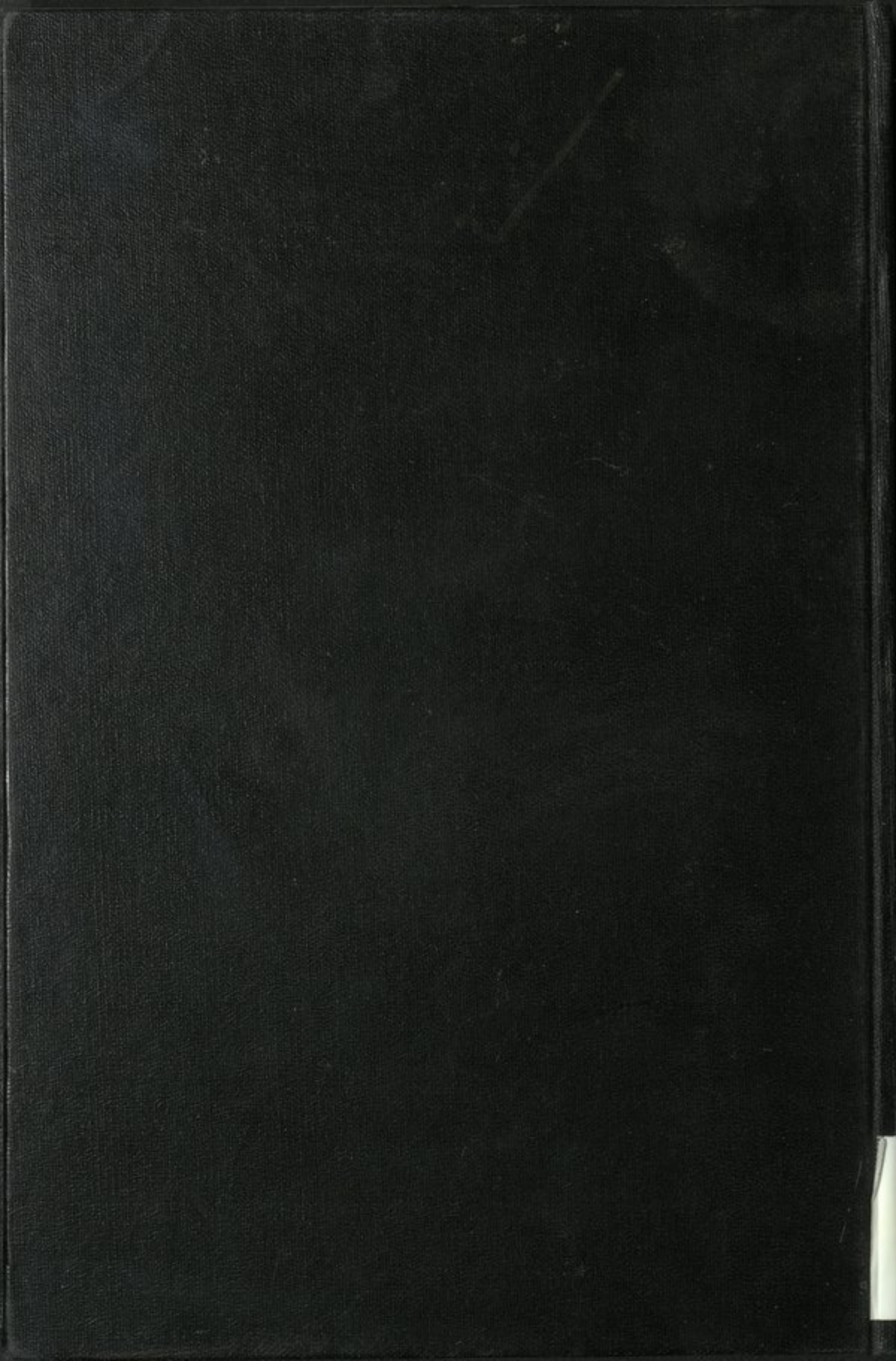
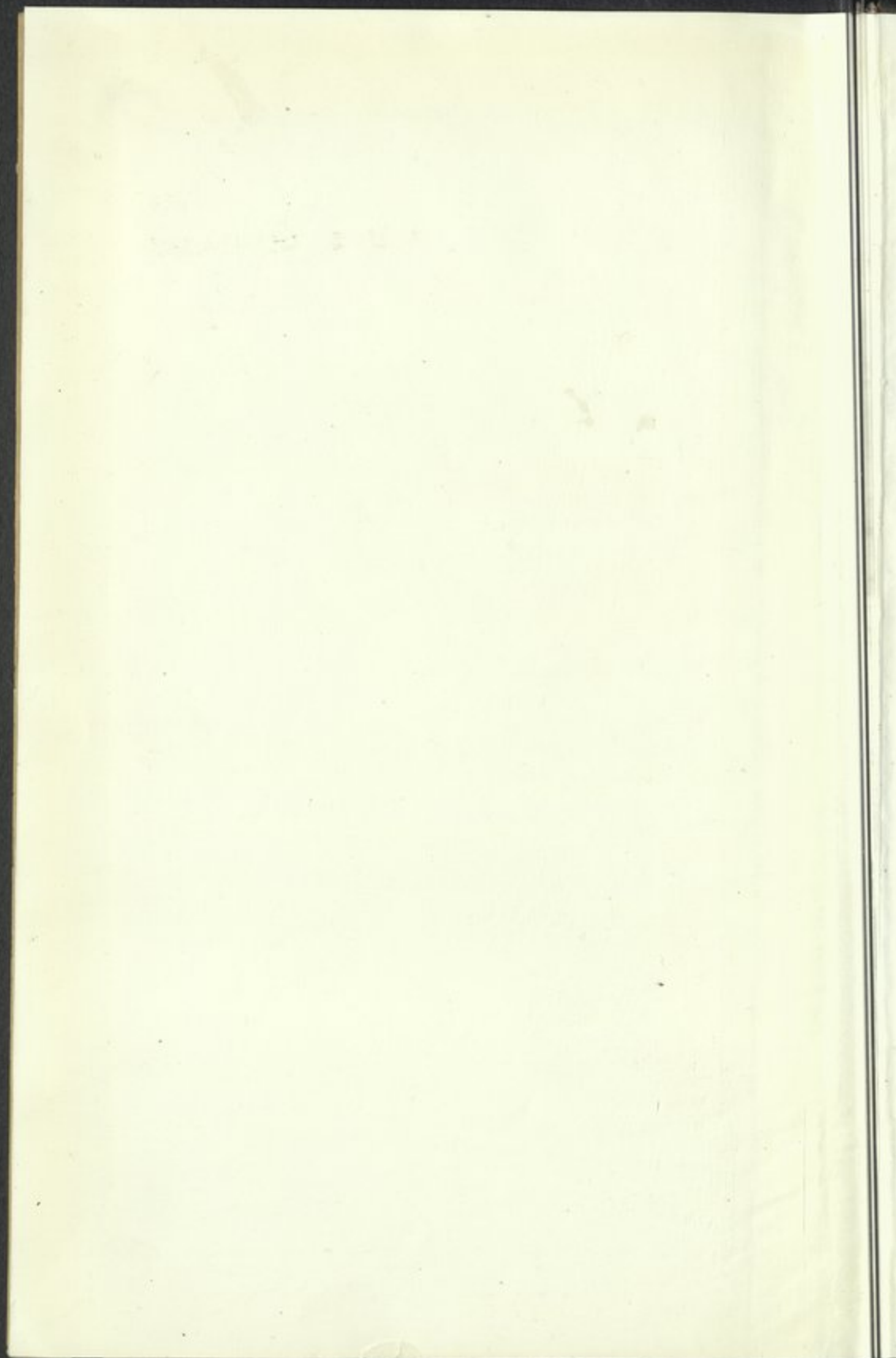


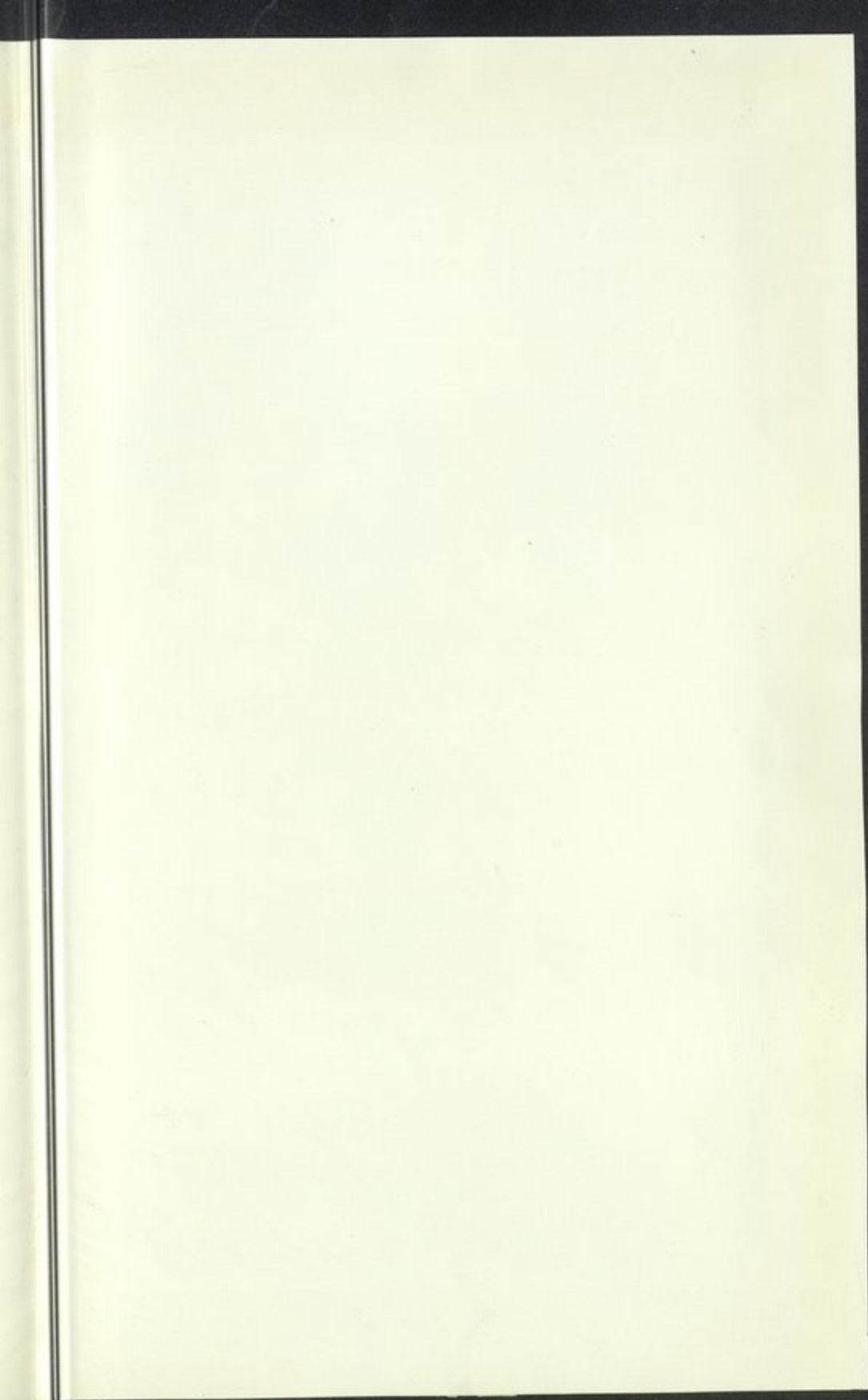


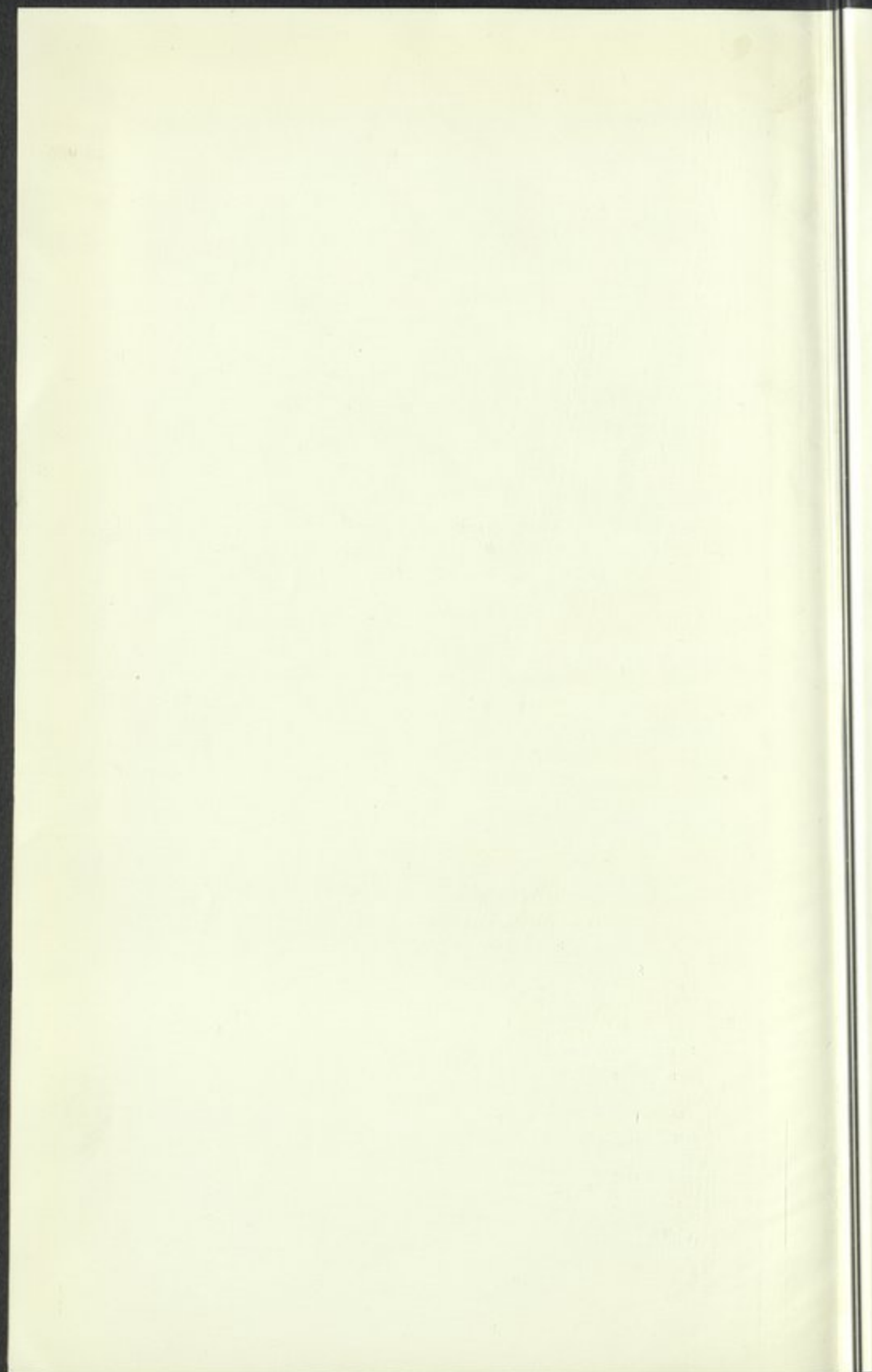
A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT









Oct. Oct. 1949



330.9567

D962 E19

C-1

عبد العزيز الدوري
المختصر

تاريخ العراق الاقصادي

في القرن الرابع الهجري

Cat. Def. 1349

68692

مطبعة المعارف بغداد



سنة
ط ١٢٥٠ ع

الرمال الفرسية

١٥٠
جودگی ص ٢

الى والدين رميمين ، هما مثل التفحمة والديتار والصبر .
والى أخ مبيب كانه ولا يزال غير أخ .
أكرم هذه الثمرة الموضوعة التى تقصر عن منزلتهم
ولكنها وهى ما افتره منهم .

عبد العزيز الدورى

مقدمة

نريد بدراسة التاريخ الاقتصادي معرفة فعاليات الناس - فردية ومجتمعة ، شخصية ورسمية - في النواحي المالية ، لفهم بذلك الكثير عن علاقتهم ووضعهم ومستوى معيشتهم . ولن نفهم تطور المجتمع ما لم ندرس هذه الناحية مقرونة بالنواحي الأخرى .

ولقد كان للوضع الاقتصادي أهمية كبرى في تاريخ المسلمين . فدراسة سياسة الدولة في الضرائب تميظ اللثام عن جذور كثير من الحركات الاجتماعية كال دعوة العباسية والحركة الاسماعيلية ، وهي حركات تسترت بثوب ديني لتخفي أصولها الراسخة في الوضع الاقتصادي الاجتماعي .

والتكتل الاجتماعي ، وتطور المقاييس الاجتماعية ، يعود لحد كبير الى التطور الاقتصادي في المجتمع . كما أن وجود تباين اقتصادي ، وتغير العلاقات الاجتماعية ، أدى الى تصادم اجتماعي كما في ثورة الزنج والقرامطة ، والى ظهور اتجاهات وحركات فكرية جديدة مثل حركة إخوان الصفا .

والتطورات الاقتصادية اثرت في الحركة الفكرية بصورة عامة . فالشعر الخاليع وشعر الزهد يمثل انعكاسات للتطور الاقتصادي ، والتكسب بالشعر فيه صدى للثروة المادية في مجتمع مادي . والأدب الجغرافي بما فيه من وصف للطرق ولمنتجات وحاصلات البلدان ولكثير من الاوضاع الاجتماعية والفكرية هو وثيق الصلة بالتطور الاقتصادي وخصوصاً التجارة . والمخارج والحيل الفقهية تآثرت بالتطور الاقتصادي ، وخصوصاً بالتجارة ، حتى وجد بعضهم مخرجاً من تحريم الربا .

والتجارة تلعب دوراً مهماً في نشر الاسلام في البلاد البعيدة وفي تبادل الافكار والآراء وفي مزج الحضارات .

ثم أن النظريات الاقتصادية في الاسلام هي في أغلب الاحيان ولحد كبير نتاج

التطور الاجتماعي الاقتصادي ، ولم تكن مجرد آراء نظرية .
كل هذه أمثلة تبين أهمية دراسة الناحية الاقتصادية في فهم تاريخ المسلمين .
وهناك ناحية ثانية وهي ناحية الاستمرار . فكثير من الأوضاع والأصول
الاقتصادية القديمة لا تزال تؤثر في وضعنا الحالي . فالعوامل الجغرافية - من وضع
جغرافي وقابليات طبيعية - تلعب دوراً مستمراً . ونظام الأراضي مثلاً تعود جذوره
إلى العصر الإسلامي الأول ، إن لم تكن فيه بقايا بابلية . ومشاكل الري الحالية تعود
في الأصل إلى تطور البلاد منذ العصر البابلي . هذا إلى أن الخبرات الماضية في استغلال
امكانيات البلاد تفيد كثيراً في وضع الخطط للمستقبل .
وهكذا تبين أهمية دراسة التاريخ الاقتصادي . ولعل هذا يبرر إقدامي على تناول
هذه الناحية ، مع شعوري بضالة المواد المتيسرة ، ومحيي . أكثرها على هيئة نفث
عرضية تتطلب صبراً وتعمناً في جمعها وتكوين صورة منها .
وهذا الكتاب الذي أقدمه الآن ، هو رسالتي التي نلت بها درجة الدكتوراه
من جامعة لندن في صيف ١٩٤٢ . وقد حرصت على تعريبها دون تعديل لأنها تمثل
مرحلة من حياتي الدراسية احرص عليها وأحمل لها أجمل الذكرى .
ولقد توخيت في الكتابة التركيز والبساطة والدقة . وكل أملي أن أكون
أوضحت في كتابي هذا شيئاً من ناحية مهمه في التاريخ الإسلامي .
ومنه أرجو التوفيق للخير انه سميع مجيب .

عبد العزيز الروري

بغداد ٢١ مايس سنة ١٩٤٨

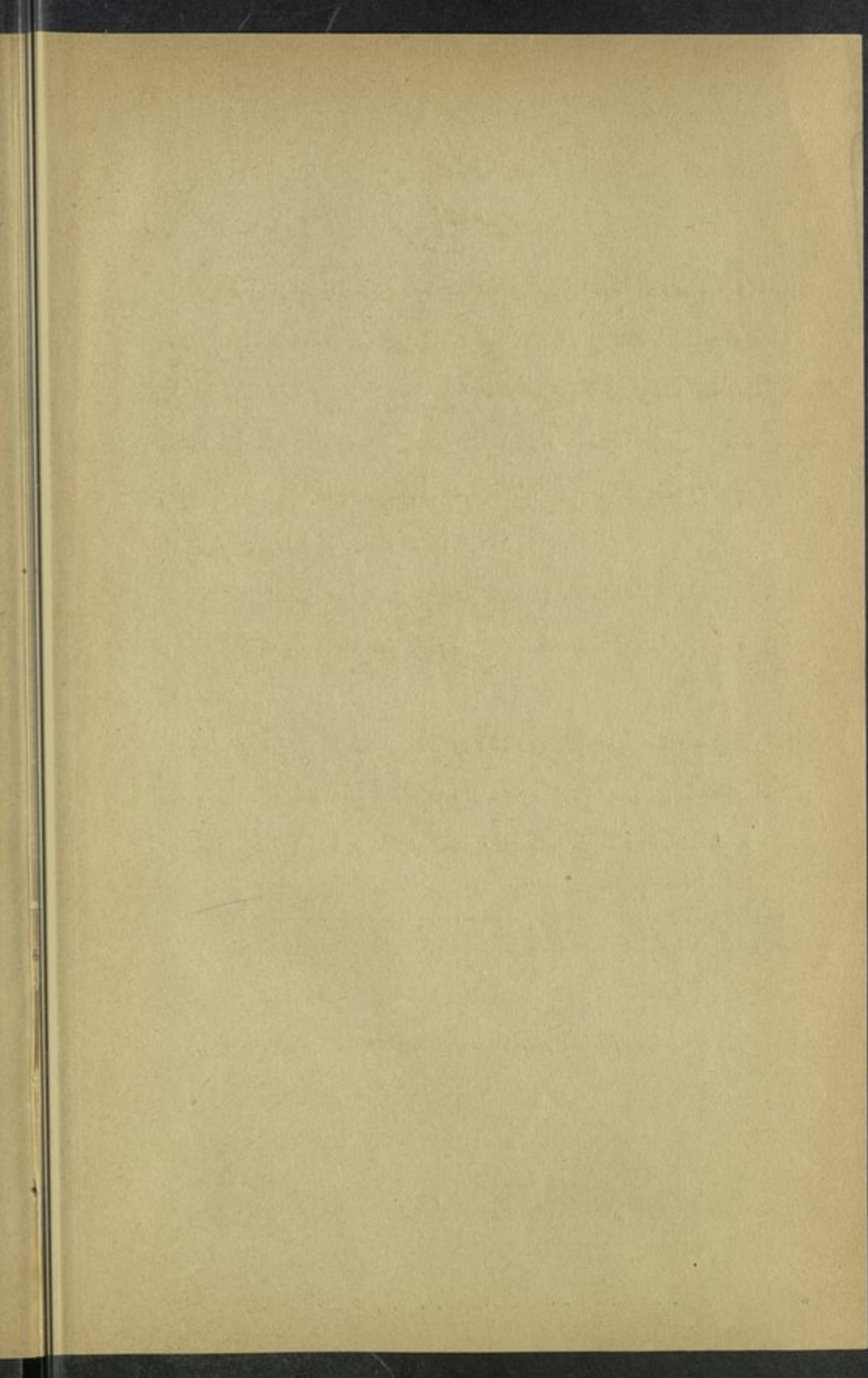
تصريح

كان القرن الرابع الهجري فترة حاسمة في تطور الحياة الاقتصادية في العراق في العصور المتوسطة . فقد أدى التغلب البويهي بالإضافة الى الاتجاه الطبيعي في التطور ، الى إحداث تبدلات وبدع كثيرة . إذ اتخذ الاقطاع ، لأول مرة ، صفة عسكرية ، وتكاثر المكوس أو الضرائب غير المشروعة ، وحصل التلاعب بالعملة كوسيلة للتوفير ، ووصل النظام الصيرفي أوجه في التطور ، وظهرت طبقة رأسمالية مهمة ، ونشأت حركة منظمة بين الطبقة العاملة .

وقد كان نصيب هذا القسم من التاريخ العربي من العناية ضئيلاً . وما هذه الدراسات إلا محاولة لالقاء بعض الضوء على ناحية معقدة من نواحي الحياة في فترة مهمة وغامضة .

ويسرني أن أعرب عن شكري لأستاذي البروفسور مينورسكي لارشاداته القيمة ومساعداته طيلة فترة إعداد هذه الرسالة . كما أني أحب أن أشكر الدكتور برنارد لويس ، والأستاذ هـ . ا . ر . جب على كثير من الاقتراحات المفيدة .

كبرج ، مايس ١٩٤٢



الفصل الأول

العوامل الجغرافية

التي تؤثر في تاريخ العراق

« ايه ذا النهر الذي انتج كل شيء » ، لقد نشرت
الآلهة الخصب على جنباتك حين شئتك » .
[دعاء سومري]

خطة الفصل :

١ - حدود ما بين النهرين :

(أ) الارتباك في مدلول كلمتي « العراق » و « السواد » وتعريف كل منهما .
(ب) الجزيرة . (ج) الخلاصة .

٢ - طبيعة بلاد ما بين النهرين :

(أ) الجزيرة . (ب) السهل الغربي . (ج) البعلبة .

٣ - توزيع المياه في بلاد ما بين النهرين :

(أ) ملاحظات عامة . (ب) طبيعة النهرين - أمثلة للفيضانات في القرن الرابع الهجري
- تبدل المجرى - انخفاض الضفاف . (ج) شبكة القنوات : (١) القنوات
من الفرات . (٢) القنوات من الدجلة . (٣) القنوات من دجلة العوراء .
(د) الخلاصة .

٤ - الموقع الجغرافي :

(أ) ضغط البادية . (ب) هجمات الجبيلين . (ج) الوضع التجاري .

٤ - التركيب الاثنولوجي :

(أ) ملاحظات عامة . (ب) العرب - البدو والحضر :

(١) الروح البدوية (٢) القبائل العراقية في القرن الرابع (٣) الروح العربية

(ج) الديلم والفرس . (د) النبط والاراميون . (و) الاكراد . (ز) اليهود .

(ح) مجموعات أخرى صغيرة .

خاتمة

١ - مرور^(١) ما بين النهرين في القرن الرابع الهجري

يقسم الجغرافيون العرب بلاد ما بين النهرين الى منطقتين : المنطقة الجنوبية ويسمونها « العراق » ، والمنطقة الشمالية ويسمونها « الجزيرة » ، إلا أن معلوماتهم عنهما ليست كافية لدرجة تمكننا من تعيين حدود كل منهما بدقة تامة .

فهناك ارتباك كثير بشأن مدلول كلمة « العراق » نتيجة وجود كلمة تكاد تكون مرادفة لها وهي « السواد » التي تشير الى منطقة تكاد تساوي العراق . فكل كلمة سواد تشير في الحقيقة الى الأراضي الغربية التي تكون عامة أراضي منطقة العراق . ويمكننا أن نقول ، استناداً الى ابن خرداذبه (٢٧٢ هـ / ٨٩٥ م) ، والاصطخري (٣١٨ — ٣٢١ هـ / ٩٣٠ — ٩٣٣) ، وابن رسته (حوالي ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) ، والمسعودي (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) ، وابن حوقل (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) ، ان السواد يمتد من العث وحرى شمالاً الى الخليج الفارسي جنوباً ومن حلوان شرقاً الى العذيب بجوار القادسية غرباً^(٢) . ويتفق سهراب (حوالي ٩٠٠ م) مع الجغرافيين المذكورين ، حين يعدد طساسيج السواد ، ويضع حده الشمالي ما بين ثلاثة وأربعة فراسخ فوق العث^(٣) . ويتفق المؤلفون في تحديد العراق من الشرق والجنوب والغرب ، ويعتبرون حدوده عين حدود السواد ، إلا أنهم يختلفون في حدوده الشمالية . فالمسعودي يجعلها منطقة على حدود السواد^(٤) . ويحدد الاصطخري وابن حوقل العراق كما يلي :

(١) لا يقصد بكلمة (حدود) في الأدب الجغرافي العربي ، المعنى الحديث (Frontiers) لهذه الكلمة ، بل تعني (نهايات) بمعنى الاتساع التام لمنطقة ما (انظر H. A. P. 30 - Minorsky) وكانت تستعمل من قبل الجغرافيين العرب لوصف نهايات قطر من الاقطار (ابن خرداذبه ص ١ ، H. A. P. 99 and P. 101) او نهايات منطقة ما (H. A. folio 7-a) ابن حوقل ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ . ياقوت — معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) ابن خرداذبه ص ١٤ ، ابن رسته ص ١٠١-١٠٥ و ص ١٠٧ ، الاصطخري ص ٧٨ - ٩ ، المسعودي — التنبيه والاشراف ص ٣٨ ، ابن حوقل — ص ٢٣٤ .

(٣) Le strange I. P. 20 . (٤) المسعودي — التنبيه ص ٣٨ .

من تكريت شمالا الى الخليج الفارسي جنوباً ، ومن حلوان شرقاً الى القادسية غرباً ، كما أنها يجعلان حديه في القسم الوسطي بين واسط والطيب ، وفي القسم الجنوبي بين البصرة وُجبي ^(١) . ويعتبر المقدسي (٣٨٧ / ٥٩٩٧ م) الخط من الانبار الى السن حد العراق الشمالي ^(٢) . ويعرف الماوردي (٤٥٠ / ١٠٥٨ م) السواد بأنه القسم الذي تغطيه « الزروع والأشجار » من العراق . ثم يقع في الخطأ حين يعطي العراق حدود السواد ^(٣) . ويتابعه في هذا الخطأ كل من الخطيب البغدادي (توفي ٤٦٣ / ١٠٧١ م) ^(٤) وياقوت الحموي (توفي ٦٢٦ / ١٢٢٨ م) ^(٥) . ولكننا ان صلحنا الماوردي ، بتنظيم معلوماته ، كان حد العراق الشمالي بلدة الحديثة التي تقع على مسافة اثني عشر فرسخاً ^(٦) شمال السن ^(٧) .

يذكر الاصطخري وابن حوقل أن الجزيرة يحدها من الجنوب خط يمر من الانبار الى تكريت ، ثم يصعد شمالا الى السن والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر وآمد ، ثم يتجه غرباً الى سميساط ويستمر حتى يصل الفرات الذي يكون الحد الغربي للجزيرة ^(٨) . ويرى ابن خرداذبه أن ارزن وميفارقين داخلة في الجزيرة ^(٩) ، ويضع ابن رسته كلا من سميساط وملطية في ديار ربيعة ، أي في القسم الشمالي من الجزيرة ^(١٠) . أما المقدسي فيجعل مدينة آمد ثغر الجزيرة الشمالي ^(١١) . ويفهم من مؤلف « حدود العالم » أن الجزيرة محوطة بالدجلة والفرات ، وأنها لذلك تدعى « الجزيرة » ^(١٢) . ولكن ابن حوقل أدق منه ، حين يبين أنه توجد الى شرق نهر دجلة والى غرب الفرات

(١) الاصطخري ص ٧٨ - ٩٠ ، ابن حوقل ص ٢٣١ . (٢) المقدسي ص ٩٣٤ .

(٣) الماوردي ص ١٦٦ . (٤) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١ (طبعة القاهرة ص ١١ - ١٢)

(٥) معجم البلدان ج ٣ ص ١٧٥ . (٦) ابن خرداذبه ص ٩٣ . (٧) الماوردي ص ١٦٦ .

(٨) الاصطخري ص ٧١ . ابن حوقل ص ٢٠٨ - ٢٠٩ (٩) ابن خرداذبه ص ٩٥ .

(١٠) ابن رسته ص ١٠٦ - ١٠٧ . (١١) المقدسي ص ١٣٦ . (١٢) H. A. P. 140 (١٢) .

مدن وقرى تعتبر من الجزيرة وان كانت وراء النهرين ^(١) . ويبين المقدسي أن الفرات يحوط هذه المنطقة ^(٢) .

والخلاصة ، فإن بلاد ما بين النهرين ، بمنطقتها العراق والجزيرة يحدها خط يبدأ من عبادان على الخليج الفارسي ، ويسير شمالا الى جبي فالطيب فخلوان ، ثم يتجه وجهة شمالية غربية الى تكريت ثم السب ثم حديثة ثم الموصل ثم جزيرة ابن عمر ثم اربل ، وبعد ذلك يسير غربا الى ميفارقين وآمد وملطية ، ثم جنوبا مع الفرات الى العذيب ثم شرقا بعد أن يدور حول البطيحة الى البصرة فالخليج الفارسي .

٢ - طبيعة ما بين النهرين

تؤثر البيئة الطبيعية في مصير سكانها ، فسكان الجبال يختلفون عن فلاحي السهول ، وهؤلاء يختلفون عن الرعاة في الفيا في .

أما أرض ما بين النهرين ، فترتفع تدريجاً في الاتجاه الشمالي . فالجزيرة ، أو المنطقة الشمالية ، سهل تولي يتراوح ارتفاعه بين مائتين والـ ألف قدم ^(٣) ، وتعطي أكثره المراعي ^(٤) . ومع أنها تحوي أراض قاحلة ^(٥) ، إلا أن مراعيها أوفر من مراعي السواد ، وأقدر على إعاشة عدد أكبر من المواشي ^(٦) . وإذا ما قورنت الجزيرة بالسواد ، تبين أنها أكثر أمطاراً ، وأن زراعتها أقل اعتماداً من زراعة السواد على مياه القنوات ^(٧) . وتجري كل روافد دجلة ، باستثناء دبالى ، في هذه المنطقة . وتجري الأنهار في وديان عميقة وصخرية على الأكثر ، ولكن يمكن بوسائل بسيطة سحب الماء من الروافد الى الحقول ^(٨) . وهكذا يتضح أن الماء موزع في أنحاء المنطقة ، وهذا هو سبب انتشار القرى والمدن في مختلف أنحاء الجزيرة ^(٩) .

(١) المقدسي ص ١٣٧ .

(٢) ابن حوقل ص ٢٠٩ ، الاصطخري ص ٧٢ ، انظر أيضاً ابن جبير ص ٢٤٨ .

(٣) طه الهاشمي ص ٣٢ . (٤) Le strange il P. 24 . (٥) ابن حوقل ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٦) سعيد حمادة ص ١٩ . (٧) ن . م . (٨) طه الهاشمي ص ٣٤ - ٣٥ . (٩) ن . م .

وتتكون المنطقة الجنوبية ، باستثناء البطيحة ، من سهل غربي غني يتراوح ارتفاعه بين خمسين ومائة قدم فوق سطح البحر ^(١) . ولا تكفي الأمطار للزراع ، كما أنها تسقط في غير مواسمها ^(٢) ، وهذا ما يستوجب حفر القنوات ، ونتيجة ذلك اقتصرت السكنى على ضفاف الأنهار وتبع ذلك توزيع المدن والقرى ^(٣) . ثم أن المراعي ليست وافرة ، وفترة الخضرة فيها قصيرة ، ولذا كانت الظروف غير مشجعة على تربية المواشي ^(٤) . ومن أهم ظواهر هذه المنطقة ، انخفاض ضفاف الأنهار مما يؤدي الى تكرار الفيضانات ^(٥) .

×× أما البطائح (أو البطيحة) فإنها تغمر مساحات واسعة بين واسط والبصرة ، إذ تمتد من القطر على دجلة وتغمر المجرى السفلي لكل من دجلة والفرات ^(٦) . ويكتف فيها القصب عدا بعض البقع ، ولا يمكن الانتقال فيها إلا خلال قنوات ضيقة بين القصب ^(٧) . وقد كانت مياه البطيحة فحولة لا تسمح بمرور القوارب النهرية فيها ، ولذا استعملت المشاحيف التي تدفع بالمرادي للتنقل فيها ^(٨) . وكان الجو حاراً رطباً ^(٩) موبوءاً بالمalaria ^(١٠) . وهناك بعض البقع من الأرض اليابسة مبعثرة في البطيحة ، وهي غنية مزروعة تغمرها القرى والاكوخ ^(١١) .

وتدعى البقعة الصافية من الماء الخالية من القصب في البطيحة بـ « الحول »

(١) Le strange II P, 24 ، طه الهاشمي ص ٣٤ .

(٢) سعيد حمادة ص ١٩ ، طه الهاشمي ص ٣٤ .

(٣) طه الهاشمي ص ٣٥ . (٤) ن . م . ص ٣٥ ، قدامة ص ٢٤٠ ، ياقوت - معجم البلدان ج ١ ص ٦٦٩ .

(٦) ابن رسته ص ١٨٥ ، Le strange I p 1 and p. 28 (٧) ابن رسته ص ١٨٥ ،

Le strange I p. 28 ، المتدسي ص ١٩ ، طه الهاشمي ص ٥١١ . (٨) ابن حوقل ص ٢٣٨ .

(٩) المتدسي ص ١١٩ . (١٠) Le strange II p. 41 ، طه الهاشمي ص ٥١١ .

(١١) ياقوت - معجم البلدان ج ١ ص ٦٦٩ ، Le strange II p, 41 , I p. 20 .

أو « الهور » ^(١) . ويعد سهراب أربعة أهوار بين القطر ونهر ابن الأسد وهي :
بحصا وبخمصا وبصريا والمحمدية . وتوجد قناة تصل هور المحمدية بنهر ابي الأسد
الذي يصب في دجلة العوراء ^(٢) .

وتمتد البطيحة في الشمال الغربي الى جوار الكوفة وتقر ^(٣) . ويتحدث ابن
حوقل عن بطائح البصرة ^(٤) . ويشير مؤلف حدود العالم الى بطيحتين في العراق :
بطيحة الكوفة وبطيحة البصرة ^(٥) . ويظهر أن هذه المعلومات تشير الى نهائي
البطيحة .

وليس يسير آ تقدير مساحة البطيحة . فيقول ابن رسته (حوالي ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)
ان البطيحة تغمر مساحة من الأرض طولها ثلاثون فرسخاً ، أي حوالي مائة ميل ،
وعرضها مثل ذلك ^(٦) . ويقدر المسعودي أبعادها بخمسين فرسخاً في الطول ، ومثلها
في العرض ^(٧) . ويقول المقدسي (٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م) في حديثه عن الصليق ، وهي
من مدن البطيحة المهمة ، أنها تقع على هور طوله أربعون فرسخاً ^(٨) . ويكتفي ياقوت
(توفي ١٢٢٩ م) بالقول بأن البطائح تمتد من واسط الى البصرة ^(٩) . ويقول لسترنج
— الذي يلخص معلومات الجغرافيين العرب — ان البطيحة كانت في العصور
المتوسطة تغمر أرضاً طولها مائتا ميل وعرضها خمسون ميلاً ^(١٠) . وعلى كل فان
مساحة البطيحة لم تكن ثابتة ، لأنها كانت تتوقف على مستوى الفيضانات ، وعلى
مشاريع تخفيف المستنقعات التي تقوم بها الحكومة ^(١١) .

(١) ابن رسته من ٩٨٥ ، Le strange I p. 28 (٢) Le strange I p. 28

(٣) ابن حوقل من ٢٣٨ ، الاصطخري من ٨١ — ٨٢ . (٤) ابن حوقل من ٢٣٨ .

(٥) H. A. P. 56 (٦) ابن رسته من ٩٤ . (٧) المسعودي — مروج الذهب ج ١ من ٢٢٦

(٨) المقدسي من ١١٩ . (٩) ياقوت — معجم البلدان ج ١ من ٦٦٩ .

(١٠) Le strange II p. 26

(١١) انظر قدامة من ٢٤٠ — ٢٤١ Le strange I p. 20 ، و E I. art. « Batiha »

٣ - توزيع المياه

ويعتبر وجود النهرين - دجلة والفرات - عاملاً حاسماً في تاريخ العراق. فبرواسبها الغرينية كونا تدريجياً هذه الأرض الغنية التي نسميها السواد . ومنذ أقدم العصور حفزوا القبائل الرحالة الى الانتقال من حياة الرعي الى حياة الاستقرار والى تكوين حضارات جديدة^(١) . وعليهما يعتمد ارواء المزارع وخاصة في الجنوب ، كما أن نظام القنوات يعتمد على مجاريها وعلى مستوى ضفافها^(٢) .

يمر دجلة ، من منبعه الى سامراء في مناطق جبلية أو تلولية ، وضفافه عالية للدرجة لا يخشى فيها من خطر الفيضان ، إلا أنها لا تسمح بحفر القنوات^(٣) . ويمر في الفرات ، بين منبعه والرمادي الحالية في منطقة تلولية أو في صحراء ، وقاع النهر واطنة لا تسمح بشق القنوات^(٤) . ولكن دجلة والفرات ، يمران بعد بغداد والرمادي في السهل الغريني المنخفض ، فيغمران مساحات واسعة منه في كثير من الأحيان أثناء الفيضانات^(٥) .

وتوجد بعض الاشارات الى فيضانات في القرن الرابع الهجري . فيذكر ابن العبري أن نهر دجلة فاض سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م وغمر الأراضي^(٦) . وفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ارتفعت مياه دجلة وغمرت جزءاً واسعاً من الجانب الشرقي من بغداد ، وباب التيه من غربي بغداد^(٧) . وفي سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م خربت مياه الفرات سد (قين) وطغت على سواد الانبار وبادوريا حتى المحول^(٨) . ويذكر

(١) H. Field A. J. ph. An. 1936 p. 51 — 2 ، East p. 57

(٢) طه الهاشمي ص ١٢٥ . (٣) ن . م . ص ١٢٩ .

(٤) ن . م . ص ١٤٤ و H. Field , Anthrology of irak 1940 p. 17

(٥) H. Field , Anth. of Irak. p. 17 willcocks p. 27—8 طه الهاشمي ص ١٣٦

و ص ١٤٦ . (٦) Bar Hebraeus p. 162

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١٠ (٨) الصابي ص ٤٤٤

ابن الأثير في حوادث سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م أن مياه دجلة ارتفعت إحدى وعشرين ذراعاً وغمرت قسماً كبيراً من بغداد والعراق وبثقت بثوقاً كثيرة في السدود ^(١) .
 ويجمع كافة الجغرافيين العرب على أن البطائح تكونت نتيجة فيضانات النهرين ^(٢) .
 وتحمل الأنهار كميات كبيرة من الغرين في موسم الفيضان ، تاركة قسماً منها في مجاريها ^(٣) مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى تلك المجاري . ثم أن ضفاف الأنهار تكون أحياناً أعلى من مستوى السهول المحيطة بها ، فإذا ما حصل بثق كبير فيها فقد يؤدي إلى تبديل في مجرى النهر علاوة على فيضان الماء على السهول ^(٤) . وتوجد إشارة واحدة إلى تبديل في مجرى دجلة في القرن الرابع الهجري ، يذكرها المسعودي في معرض حديثه عن دعوى بين الملاكين على الضفة الشرقية لدجلة وبعض ملاكي الضفة الغربية بين قطر بل وبغداد نتيجة تحول مجرى النهر . فيقول إن نهر دجلة حول مجراه بمقدار سبع ميل خلال ثلاثين سنة ^(٥) .

والى انخفاض ضفاف دجلة والفرات يعود الفضل في وجود شبكة من القنوات في العراق في القرن الرابع الهجري . فمستوى مياه الفرات بين الفلوجة الحالية ^(٦) وبين الديوانية أعلى من مستوى ماء دجلة بين بغداد وكوت العمارة (أو مادرايا القرن الرابع الهجري) ، وهذا هو سبب وجود عدد من القنوات التي تأخذ مياهها من الفرات وتصب في دجلة في هذه المنطقة ^(٧) .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٩ (٢) البلاذري (طبعة دي خوجة ١٨٦٦) ص ٢٩٢ ، قدامه ص ١٤٠ — ١ ، ياقوت — معجم البلدان ج ١ ص ٦٦٩ ، المسعودي — سروج ج ١ ص ٢٢٣ — ٦٦ E. I. Streck, art. Batiha

(٣) Willcocks p. XII (٤) ibid p. XIII : طه الهاشمي ص ١٤٦ ، و ص ١٤٧ ، Streck, art. Maisan, in E. I. ; Le Strange II p. 20 off and p. 50 - 1

(٥) المسعودي — سروج ج ١ ص ٢٢٧ ، وفي القرن الرابع كان نهر دجلة يجري في مجرى الدجلة الحالية ، بينما كان الجزء الأكبر من الفرات يجري في فرعه الشرقي الذي يسميه سهراب

سورا الأعلى والذي يسمى الآن شط الحلة. Le Strange I p - 16 and pp. 9 - 10.

(٦) تقع الفلوجة قرب الأنبار العباسية التي تسمى آثارها الآن (العقر) .

(٧) انظر طه الهاشمي ص ١٤٧ و Willcocks p. XIII

ويقسم ابن خرداذبة (٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) مناطق السواد الى ثلاث مناطق

ري وهي :

١ - المنطقة الأولى : وتقع شرق نهر دجلة وكانت تروى من مياه دجلة والنهروان .
وتمتد من (الدور) في الشمال الى نهاية النهروان في مادرايا في الجنوب ^(١) .

٢ - المنطقة الثانية : وتروىها مياه دجلة والفرات ، وتتألف من الأراضي الواقعة
بين مادرايا في الشمال والبطيحة في الغرب والخليج الفارسي في الجنوب .

٣ - المنطقة الثالثة : وهي أوسع المناطق وأكثرها انتاجا ^(٢) وتقع بين النهرين
بين الانبار والدور في الشمال والبطيحة . وكانت تروى بالقنوات المتفرعة عن الفرات ،
ونهر الدجيل الآخذ من دجلة ^(٣) .

وينفرد سهراب أو ابن سرايون (حوالي ٩٠٠ م) ^(٤) في الأدب الجغرافي العربي
بأحسن وصف وأفضله لأنهار وقنوات العراق . أما الجغرافيون الآخرون ، فلا يذكرون
- باستثناء ياقوت ^(٥) - إلا معلومات عابرة ^(٦) .

٤ - الموقع الجغرافي

إذا تجاوزنا النطاق الخصب الذي يكونه الدجلة والفرات ، وجدنا العراق محاطاً
بالصحارى والجبال . فالى الغرب تمتد بادية الشام ، والى الجنوب والجنوب الغربي تقع
الصحراء العربية ، وفي الشمال تقوم جبال طوروس واتي طوروس ، والى الشرق تقوم

(١) ابن خرداذبة ص ٦ - ٧ (٢) انظر ن . م . ص ٨ - ١٤

(٣) ن . م . ص ٧ - ٨ (٤) Le Strange I p. 1 - 76, pp. 335 - 215

(٥) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ٥٥١ وما يليها ، ص ٥٥٥ ج ٣ ص ٨٦٠ وما بعدها ،
ج ٤ ص ٨٣٠ - ٨٥١

(٦) ابن حوقل ص ٢٣٥ - ٢٣٧ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ابن رسته ص ٩٣ - ٩٤ ، N-kh. p 234-5
الخطيب البغدادي ص ٦١ - ٧١ ، اليعقوبي ص ٢٣٣ - ٢٥٤ ، ابن الجوزي - مناقب بغداد
ص ١٨ وما بعدها .

سلسلة زاكروس^(١) . وقد أدى خصب العراق وغناه الى أن يكون دائماً مطمح أنظار جيرانه . كما أن عدم وجود موانع طبيعية تحميه جعل البلاد مفتوحة أمام أي هجوم أو تخلل .

والظاهرة الرئيسية في وضع العراق هي اجهاز الصحراء على الوادي الخصيب . فمذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر أدت التبدلات المناخية في الصحراء ، وتكاثر السكان الطبيعي هناك ، أو مجرد الرغبة في النهب ، الى تخلل موجات وجماعات من البدو والزراعة الى العراق . وقد كان تاريخ هذه البلاد سلسلة حروب ونضال ، مادي وثقافي ، بين الصحراء والوادي ، بين البدو وبين أهل الحضارة^(٢) . وما الفتوحات العربية إلا مثلاً رائعاً لهذه الموجات المتكررة المنبعثة من الصحراء^(٣) .

وحين تكون الحكومة المركزية قوية ، أو حين لا يكون عدد البدو ضخماً ، يتخذ هذا الاجهاز البدوي هيئة تخلل سلمي أو غزوات متقطعة لمجرد النهب . ولم تحدث في القرن الرابع موجة بدوية كبيرة . ولا تشير المصادر الى هجرات قبائل جديدة من الجزيرة العربية ، ولكن بعض القبائل تظهر أهميتها على مسرح الحوادث خلال هذا القرن ، مما يدل على أحد أمرين : فاما أن تكون تلك القبائل تضخمت بمجيء جماعات جديدة ، أو أن تكون قد دخلت العراق حديثاً . ففي عام ٣٧٨ هـ^(٤) برزت قبائل المنتفك لأول مرة في الشؤون المحلية ، بينما بدأت قبيلة خفاجة دورها الفعال في العراق سنة ٤٠٢ هـ^(٥) . وكانت حركة قرامطة البحرين مثلاً رائعاً في القرن الرابع لضغط البادية على العراق . فقد نهبوا الكوفة^(٦) والبصرة^(٧) وسبوا الكثير من الخراب

(١) طه الهاشمي ص ٣٧ : Field - arabs of Cent. Irak (Anth. Mem.) 1935 p. 77

(٢) طه الهاشمي ص ٩٠ — ٩٥ Field = A. J. Ph. Anth. 1936 p. 45 - 56

(٣) East - Ch. III es p p. 56 - 7 و Becker , C. M. Hist. Val II p. 331 - 2

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ٤٠ ، ابن حوقل ص ٢٢٨ (٥) ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٥ - ١٦٧ .

(٦) ن. م. ج ٨ ص ١٠٥ (٧) ن. م. ج ٨ ص ١١٥

للسواد حتى الانبار ^(١) . واستمر بنو شيخان على غزواتهم المحرقة في هذا القرن حتى العشرة السابعة منه في كل من الجزيرة والسواد ^(٢) . ولم ينته تخريبهم حتى سنة ٣٦٩ هـ حين حطم عضد الدولة قوتهم واخذ البلاد من شرهم ^(٣) . وهناك قبائل أخرى كثيرة مثل خفاجة وبني أسد وبني عقيل لعبت دورها في تخريب الأراضي الخصبة وفي نشر الرعب ^(٤) .

ولم يقتصر الأمر على البدو ، بل أن القبائل الكردية من التلول والجبال في الشمال الشرقي كانت تنقض على العراق كلما وجدت في نفسها القابلية على ذلك . ومع أن جماعات كردية صغيرة استقرت في السهول ^(٥) ، إلا أن عامة الكرد بقوا في الجبال ، وكانوا ينتشرون منها ويهاجمون الجزيرة باستمرار ^(٦) . وقد توسعت حركتهم في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري ، ووصلت أوجها في انشاء إمارة المروانيين في ديار بكر (بين سنة ٣٨٠ - ٤٨٩ هـ / ٩٩٠ - ١٠٩٦ م) ^(٧) . وعلى كل ، فإن تخريب الكرد كان يقل خطورة عن تخريب البدو .

وكان غنى البلاد الطبيعي يلفت أنظار كل الدول التي تظهر في الشرق الأدنى والأوسط . ويمكننا اعتبار التغلب البويهى عام (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) مثلاً واضحاً لهذا الاتجاه .

ثم أتى وضع العراق التجاري له أهمية كبيرة . فالطريق التاريخي الذي يصل حوض البحر الأبيض المتوسط بإيران وما وراء النهر يمر ببغداد ^(٨) . كما أن العراق

(١) ن . م . ج ٩ ص ٣٤٥ (٢) ن . م . ج ٧ ص ٣٤٢ ص ٣٢٠ ج ٨ ص ٦٧ وص

٥١٦ (٣) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ (٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦٥ - ١٦٧

الصابي ص ٤٧٢ وص ٤٤٥ - ٤٥٣ (٥) مسكويه ج ٢ ص ١٠

(٦) ن . م . ج ٢ ص ٦٥٥ ج ٣ ص ٨٣ - ٧ وص ١٤٤ - ١٤٥ ص ١٧٦ - ١٧٧ ،

الصولي ص ١٣٦ وص ١٩٢ (٧) انظر

Minorsky (art. kurds) in E. I. vol II pp. 1137-8 ; Lane - Poole : Muhammadan

Dynasties p. 118 (٨) ابن خردادبة ص ١٨ وما يليها .

سوق للبدو الذين يقدمون من الجزيرة ليبادلوا بضائعهم مع سكان الوادي^(١). وكان ساحله على الخليج الفارسي نهاية الطرق البحرية الآتية من الصين والهند من جهة ، ومن جهة البحر الأحمر وجنوبي الجزيرة من جهة أخرى . يضاف الى هذا أن نهر الفرات يصل بينه وبين الشام^(٢) . وهكذا قدر للعراق أن يكون بوضعه الطبيعي مركز تطور ثقافي وساحة نضال لشعوب كثيرة^(٣) .

٥ - التركيب الديموغرافي لسلطان ما بين النهرين

كانت المدن على العموم أممية يسكن فيها مزيج من أناس تختلف لغاتهم وتباين ألوانهم وطبائعهم وثقافتهم وأديانهم ومهنهم وعاداتهم^(٤) . أما الريف فسكانه أكثر تجانساً . وسنكتفي هنا بالإشارة الى العناصر المستقرة في البلاد دون نظر الى الجماعات الصغيرة من التجار الغرباء القادمين لمدة موقته^(٥) .

وبآتي العرب في المقدمة . وهم يسكنون المدن أو يعيشون في الريف ، ولكن قسماً كبيراً منهم بقي بدوياً^(٦) . فالبدو كانوا ، كما هي عاداتهم ، يحتقرون الزراعة والصناعة والتجارة ويعتزون بحريتهم ، ولهم قابليات لغوية ممتازة ، ويكثرون من الغزو والحروب القبلية^(٧) . وقد استقر البدو على هيئة قبائل في المدن الجديدة كالكوفة والبصرة ، وعاشوا في محلات خاصة بهم^(٨) . وقد استمرت الخصومات القبلية في بعض المدن كالبصرة ، فأصلح عضد الدولة - مثلاً - سنة ٣٦٦ هـ بين ربيعة ومضر بعد أن دامت الخصومة بينها مائة وعشرين سنة^(٩) .

(١) سعيد الافغاني ص ٣٥٧ وبمدها ، المقدسي ص ٢٤

(٢) ابن الجوزي - مناقب ص ٤ ، اليعقوبي ص ٢٣٤ ، وص ٢٣٧ - ٢٣٨

(٣) اليعقوبي ص ٢٣٤ - ٢٣٥ و H. Field = anth. Mem. 1V 1935 p. 37

(٤) رسائل أخوان الصفا ج ١ ص ١٤٩ (٥) انظر مثلاً : اليعقوبي ص ٢٤٢ - ٢٥٤

(٦) الجاحظ - مناقب الترك ص ٥ - ٦ (٧) ن . م . ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن الانبرج ٩

ص ١٧٤ - ١٧٥ (٨) الصولي ص ٢١٥ (٩) الذهبي - دول الاسلام (خط) ورقة ١٢ أ

وان نحن بدأنا من الشمال ، نجد في الجزيرة قبائل ربيعة ومضر من عرب الشمال ، وبعض اليمانيين أو عرب الجنوب ولاسيما قبيلة كلب . وقد استوطن بعض ربيعة ومضر ، بينما حافظ الباقون على حياة الرعي^(١) . ويذكر ابن حوقل أن قبائل جديدة من قيس عيلان جاءت في زمنه (٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) الى الجزيرة ، فزحزحت القبائل الموجودة قبلها في تلك المنطقة ، أو بسطت نفوذها عليها . ويذكر (بني قشير) و (بني نمير) و (بني كلب) بين القادمين الجدد^(٢) . ولكن يظهر أن بعض القبائل حافظت على مواطنها في الجزيرة كما هو حال القبائل التي تسكن مدينة الجزيرة وحواليها^(٣) .

لقد سكن (بنو شيخان) في الجزيرة ، وكانوا مصدر اضطراب في الزاوية الشمالية الشرقية منها في شهر زور ، في النصف الأول للقرن الرابع الهجري^(٤) . وعاش (بنو نمير) قرب حران وانتشروا الى الموصل^(٥) . وقوى (بنو عقيل) وتنفذوا في الجزيرة وفي وسط العراق في النصف الثاني للقرن الرابع^(٦) . أما بنو تغلب فكانوا ساكنين قرب الموصل والى الغرب منها^(٧) .

وظهرت (خفاجة) في أواخر القرن الرابع الهجري واستمرت تقوم بدور مهم في شؤون العراق الوسطي^(٨) . وقد انتشروا في نواحي الجنوب الغربي من الفرات بين الكوفة والبصرة^(٩) . وبعزو ابن جبير (٥٨٠ هـ) خراب الكوفة بالدرجة الأولى الى خفاجة التي سكنت جوارها^(١٠) . وكانت ديرة (بني أسد) قرب الكوفة

(١) الاصطخري ص ١٣ ، ص ٧٧ (٢) ابن حوقل ص ٢٢٨ . وقد احتلوا الاراضي حول حران وجسر منبج ، والخابور و خانوقة وعربان وقرقيسيا والرجة (٣) ن . م . ص ١٤٤ (٤) ابن الاثير ج ٨ ص ٣٢٠ و ص ٣٤٢ (٥) مسكويه ج ٣ ص ١٧٦ - ١٧٧ (٦) انظر الصابي ص ٤٤٥ - ٤٥٣ (٧) ابن الاثير ج ٨ ص ٣٢٧ (٨) انظر الصابي ص ٤٧٢ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٥ - ١٦٧ (٩) الصابي ص ٤٧٢ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٧ (١٠) ابن جبير ص ٢١١

وعين التمر . وهي حسب رواية الاصطخري في المنطقة الكائنة بين القادسية والشقوق
والسماوة وبادية البصرة . أما (طي) فكانت ديرتها وراء الشقوق ^(١) .

وكان في الكوفة سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٧ م خمسون الف عائلة من ربيعة ومضر ،
وسنة آلاف عائلة يمانية وأربعة وعشرون الف عائلة من قبائل أخرى ^(٢) . ويخصص
الصولي القبائل الآتية بالكوفة : بني أسد ، وبني الاشعث ، والمقيثين ، وبني حمان ^(٣) .

وكان في البصرة قبائل ربيعة ^(٤) ومضر المشهورة بخصوماتها ^(٥) . ويشير الصولي
الى وجود قبائل المهالبة والمسامعة والجارودية وباهلة وحمان في البصرة ^(٦) .

وأشهر القبائل في البادية غرب البصرة هم بنو تميم ^(٧) . ويرد ذكر بني ديس
في خوزستان سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ^(٨) . ولا تزال بقاياهم الى الآن .

وقد كان العرب ، يحتفرون الأعاجم ، ولكنهم تسامحوا كثيراً وابدوا رغبة في
الزواج بالاماء ^(٩) . ويعلل الجاحظ ذلك باحتجاب الحرائر ، وسهولة الاتصال
بالاماء ^(١٠) . وقد وصل هذا الاتجاه حداً أن كل خلفاء القرن الرابع كانوا أولاد
اماء ^(١١) .

وأخذ العرب يشعرون أن انقسامهم الى بدو وحضر من جهة والى قبائل من جهة
ثانية كان مصدراً لضعف لهم . وهذا أدى ببعض الكتاب ، ولا سيما الجاحظ ، الى تأكيد
أن العرب أمة واحدة تربطها ثقافة مشتركة وعادات متشابهة ولغة واحدة ، وأن
القوارق الناتجة عن اختلاف الموطن أو القبيلة هي ضئيلة وسطحية ^(١٢) . وذهب آخرون ،

(١) الاصطخري ص ٢٢ . (٢) البراق ص ١٢٢-١٢٣ (٣) الصولي ص ٢١٥ .

(٤) الذهبي ورقة ١٢ أ (٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٠ ، مسكويه ج ٢ ص ٣٦٩-٣٧٠

(٦) الصولي ص ٢١٥ ولعلها كانت فرعاً من قبائل . (٧) الاصطخري ص ٢٢

(٨) ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٧ (٩) مجلة المشرق سنة ١٩٣٤ ص ٤١٣ .

(١٠) رسائل الجاحظ ، باعتناء السندوني ص ٢٧٤

(١١) المشرق ص ٤١٣-٤١٤ . (١٢) الجاحظ - مناقب الترك ص ٦-٧

كالثعالي والهمداني ، الى أبعد من ذلك في تمجيد العرب وعدمه أشراف الأمم وفي اعتبار لغتهم أحسن اللغات ^(١) .

الديلمية

أما الديلمية فهم شعب إيراني جبلي كان يسكن جنوبي شرقي بحر قزوين ^(٢) ، وقد جاء بعضهم الى العراق قبل التغلب البويهى سنة ٣٣٤ هـ ^(٣) . وبعد ذلك التغلب ، صار الديلمية يكونون الجزء المهم من الجيش ، والجماعة الرئيسية بين السادة الاقطاعيين ملاك الأراضي ^(٤) .

الفرس

وقد كان في العراق - اضافة الى الديلم - كتلة من الفرس المتحضرين ، ولعل بعض هؤلاء كانوا احفاد من بقي في العراق بعد الساسانيين ، بينما تسلسل آخرون الى العراق بعد ظهور العباسيين وخصوصاً في عصر المأمون . وقد كانت لهم أهمية خاصة في حقل الثقافة والسياسة ، ثم خلفهم الاتراك في الأهمية السياسية ^(٥) .

الترك

ظهر الترك في عصر المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) وصارت لهم الكلمة العليا في البلاد ، وحافظوا على سلطتهم حتى الفتح البويهى ^(٦) . وقد كتب الجاحظ رسالة في مدح الاتراك ، بعنوان « مناقب الترك » أثنى فيها على شجاعتهم وصبرهم وامانتهم وعلى قابلياتهم العسكرية عامة . ولقد ذهب الى تسميتهم بـ (بدو العجم) ، وأوضح بأنهم لا يميلون للصناعة أو للزراعة أو للعلوم ^(٧) . ثم كان الجيش البويهى يتألف من شقين : الرجالة الديلمية ، والفرسان الترك ^(٨) .

(١) الثعالي - فقه اللغة ص ١ ، رسائل بديع الزمان الهمداني ، باعثناء الطرابلسي - بيروت ١٩٢١ ص ٢٧٩ - ٢٨٤ .

(٢) Minorsky- Dailamites p. 2-3 (٣) مسكويه ج ٢ ص ٤١ .

(٤) ن. م. ص ٩٦ - ٩٧ (٥) Minorsky p. 11-12 ، المشرق ١٩٣٤ ص ٤٠٩ ، ص ٤١٥ - ٤٢٢ ، الطبري ص ١١١ ص ٤٣٩ ، الجاحظ : مناقب الترك ص ١٥ .

(٦) الفخري ص ١٨١ ، الجاحظ - البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٠٦ ، الصابي ص ١١ وما بعدها .

(٧) الجاحظ - مناقب الترك ص ٤٣ .

(٨) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها ، Minorsky, opt. cit p. 20-21 .

النبط

ويستعمل لفظ (النبط) للإشارة إلى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق وخصوصاً في منطقة البطيحة^(١). وقد أوضح ابن السكلي أن العرب كانوا يطلقون لفظ (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً^(٢). ويسمى المسعودي فلاحي العراق (النبط) و (السرمان)^(٣). ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء، وأن الفرس أضغفوم. ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس « وانتسبوا إليهم »، وأنه لما حصلت الفتوحات الإسلامية ذهب بعض النبط إلى الانتساب للفرس « وانفوا من النبطية لزوال العز الذي كان فيهم، وانتمى جلهم إلى ملوك الفرس ». ثم يقتبس شاعراً يتساءل :

« وأهل القرى كلهم يدعون بكسرى قباذ فأين النبط ؟ »^(٤)
ليظهر بذلك أن عامة القرويين من النبط. وأخيراً يتحدث عن قرى نبطية قرب سامراء^(٥).

ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثقافية في العراق وأخرجت عدداً من الأطباء الكبار، والفلكيين والعلماء والمترجمين^(٦). وقد كانت حرّان المركز الأول للثقافة الآرامية وفيها بقية الدين الصابئي القديم الذي يدور حول عبادة الكواكب^(٧). وكانت هناك مجموعات كبيرة نسبياً من الآراميين المسيحيين في تكريت^(٨) والزرقة وقرب الموصل^(٩).

أما الكرد فكانوا يسكنون في القسم الأعلى من الجزيرة في الجهات الشرقية والشمالية الشرقية منها. وكان أكثرهم رعاة أو في مرحلة تلي مرحلة الرعي. واستقر بعضهم

(١) المقدسي ص ١٠٨ ، E. I. vol IV, p. 802 (٢) ياقوت . معجم البلدان ج ٣ ص ٦٣٤
(٣) المسعودي - التنبيه ص ٧ وص ٣٧-٣٩ (٤) ن. م. ص ٣٧-٣٨
(٥) المسعودي . مروج ج ٧ ص ١١٩ (٦) انظر المشرق سنة ١٩٣٤ ص ٢٥-٢٨
(٧) ابن حوقل ص ٢٢٦ (٨) ن. م. ص ٢٢٦ وص ٢٢٨ ، الاسطخري ص ٧٧
(٩) ابن حوقل ص ٢١٧

في قرى قرب الموصل وفي بعض المدن كالموصل^(١) . وأشهر قبائلهم في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هم قبائل حميد وهذباني^(٢) وحكاري . وتفيض المصادر بالإشارة إلى أن الأكراد كثيراً ما كانوا السبب في قطع المواصلات^(٣) . (ولأجل معرفة دور الأكراد السياسي في القرن الرابع الهجري انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة Kurds ومسكويه ج ٣ ص ٨٣ - ٨٧ و ص ١٤٤ - ١٤٥ و ص ١٧١ - ٧ وسليمان الصائغ ، تاريخ الموصل ج ١ (وتاريخ الكرد وكرديستان لمحمد أمين زكي ، والعشائر الكردية للمحامي عباس العزاوي)

وكانت في العراق عدة مجموعات يهودية . وكانت بغداد موطن رئيس الطائفة الاسرائيلية (رأس الجالوت) ومركز اليهود الأول^(٤) . وكان فيها شارع خاص يدعى (درب اليهود)^(٥) . واحتوت البصرة على كتلة يهودية مهمة . وسكن اليهود أيضاً في حلوان وفي مدينتي النهروان ونصيبين . وكان لهم معبدان مشهوران في سورا (بجوار الحلة) وفومبيثة (بجوار الانبار) ، وكان على رأس كل منهما عميد (غاؤن) . وكان عامة اليهود في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) صباغين وصفارين وقصايين ، إلا أن وضعهم تبدل في القرن الرابع الهجري ، فكان منهم التجار والصرافون كما كان منهم الموظفون الإداريون أيضاً^(٦) .

ومن الجماعات القليلة التي كانت في العراق في القرن الرابع الهجري ، الزط^{الزط} ، وهم في الأصل هنود نقلهم الحجاج من السند إلى البطيحة . وكان الزط يشتغلون بتربية

(١) ن. م. ص ٢١٧ (٢) يرى البروفسور مينورسكي - استاذ الادب والتاريخ الفارسي بجامعة لندن - انه يحتمل ان يكون الاسم منسوباً إلى منطقة Adiabene القديمة .

(٣) انظر الصولي ص ١٣٦ ، ص ١٩٢ ابن جبير ص ٢٤٦ ، مسكويه ج ٢ ص ١٥٥ .

(٤) Mann , J. Q. R. N. , S. VII p. 465-6 (٥) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٤٥

(٦) المشرق ١٩٣٤ ص ٤٢٩ - ٤٣١ ، الجاحظ - ثلاث رسائل باعثناء فنسكل ص ١٧ ، انظر

رحلة بنيامين (أمر يب عزرا حداد) ، الملحق ٣ .

الجاموس . ولما كان الجاموس لا يخاف الأسود فقد اعتقد الحجاج أن الزط هم خير من يقوم بالحراسة في منطقة البطيحة . وقد نفي الزط في القرن الثالث الهجري في خلافة المعتصم ، على اثر عصيان قاموا به على الخلافة ، فقشتوا ، إلا أن بعضهم استمر يسكن قرب خاقين ^(١) .

وأخيراً نشير الى وجود « الجرامقة » ولعلمهم من الآراميين ^(٢) ، والى « الزنج » وهم في الأصل من السواحل الشمالية الشرقية لأفريقية وكانوا يجلبون للخدمة أو للعمل في المزارع والمعامل ^(٣) .

وهكذا يتبين من تعداد عناصر العراق الصفة المعقدة المختلطة لسكانه . إذ لم تكن تلك العناصر مختلفة في أجناسها فقط بل في مهنها أيضاً . فعرب المدن كانوا يشتغلون بالتجارة والمهن الحرة ، والنبط كانوا يشتغلون بالزراعة ، بينما كان البدو يشتغلون بتربية المواشي والرعي ، وكان الترك والديلم جنوداً ، وكان بين المسيحيين من يشتغل بالترجمة والطب وبين اليهود من يشتغل بالتجارة والصيرفة . وهكذا كانت تنوع السكان يتناسب مع تقسيم في العمل والانتاج . وقد ساعد هذا على تنظيم المجتمع وجعله وحدة اقتصادية . ومن ناحية أخرى كانت اختلاف المهن يقوي الشعور بالنفرة الاجتماعية بين مختلف العناصر . وبالنتيجة أدى التقارب والتنافس في المجتمع العراقي الى أن يصبح هذا المجتمع مليئاً بالحيوة وبالمفرقات في آن واحد .

(١) Baladhuri : Origins II p. 105-111 (٢) المسمودي ج ٧ ص ١١٩

(٣) انظر الطبري س III ص ١٧٤٢ ، الجاحظ - رسالة في فضل السودان .

الفصل الثاني

الزراعة

خطة الفصل :

أولاً - نظام الاراضي : (أ) أساسه (ب) أنواع الأراضي :

(١) ضياع الخلافة .

(٢) الاقطاعات : ١ - ملاحظات عامة ٢ - أنواع الاقطاع نظرياً : اقطاع التملك ، اقطاع الاستغلال ، ٣ - أنواع الاقطاع عملياً : اقطاع مدني ، اقطاع خاص ، اقطاع الخلفاء والأمراء ، الاقطاع العسكري - بدء اتخاذ الاقطاع صفة عسكرية وسبب ذلك ، حقوق وواجبات أصحاب الاقطاع نظرياً وعملياً .

(٣) الملكيات الخاصة : ١ - أصلها : اقطاع التملك ، إحياء الموات ، الشراء .

٢ - الملاكون وواجباتهم ، ٣ - الاجاء ونتائجه ، ٤ - الايفار .

(٤) أراضي الوقف : ١ - الغرض من الوقف ، ٢ - أنواعه : خاص ، ورسمي .

٣ - شروط الوقف ، ٤ - ادارة الوقف .

ثانياً - السياسة الزراعية للدولة : مقدمة .

أ - سياسة المعتضد = (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) : (١) تعديل موعد الجباية

(٢) اصلاح نظام الري (٣) مساعدة الفلاحين .

ب - سياسة علي بن عيسى (حتى سنة ٣٢٤ هـ) : (١) اتباع العدل مع الزراع

واللطف بهم . (٢) عنايته بنظام الري . (٣) تسليف الزراع البذور .

ج - السياسة الزراعية في فترة اماره الأمراء (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) .

د - سياسة معز الدولة ، حتى سنة ٣٦٦ هـ : (١) اصلاح نظام الري .
(٢) إحياء الأرض الخراب . (٣) سياسته الاقطاعية : اعطاء اقطاعات
لرؤساء الجند وللحاشية والمقرئين - اقطاعات للجند - أثر ذلك على الزراعة
وعلى نظام الري - اعطاء بقية الأراضي بالضمآن - خلاصة .

هـ - سياسة الحمدانيين في الموصل (٣١٧ - ٣٦٨ هـ) :

(١) هدفها - استغلال كافة الموارد المادية .

(٢) وسائلها - امتلاك الأراضي على نطاق واسع - تبديل المزروعات .

و - سياسة عضد الدولة (٣٦٩ - ٣٧٢ هـ) :

(١) ملاحظات عامة (٢) اصلاح نظام الري (٣) تعديل موعد الجباية .

ز - التدهور بعد عضد الدولة :

(١) اهمال نظام الري (٢) الفيضانات وخراب البلاد .

ح - الخاتمة .

ثالثاً - النظام الزراعي :

أ - وضع القرى : (١) الفلاحون (٢) استمرار الأوضاع القديمة - وظائف
الدهقان قبل القرن الرابع وخلال (٣) الملاكون والفلاحون .

ب - طرق الزراعة :

(١) أدوات الزراعة . (٢) السجاد . (٣) زراعة النخيل والأشجار المثمرة .

(٤) موقف الفلاحين من الجراد ومن أوبئة الزروع .

ج - وسائل الري :

(١) وظيفة الحكومة . (٢) أدوات الري : الدالية ، الناعورة ، الدولاب .

(٣) الري الطبيعي - من القنوات ، والعيون ، والأمطار .

د - مناطق الزراعة :

- (١) منطقة البصرة . (٢) منطقة البطيحة . (٣) المنطقة الواقعة بين النهرين من بغداد الى الكوفة . (٤) سواد بغداد . (٥) النطاق الأخضر شرق نهر دجلة . (٦) الجزيرة .

هـ - الحاصلات ومناطقها :

- (١) التمر - الأماكن المشهورة بزراعة النخيل ، أنواع التمور . (٢) الحنطة والشعير ، كمياتها ومحلاتها . (٣) الرز . (٤) السمسم وحبوب أخرى . (٥) القواكه - العنب ، البرتقال والليمون ، الزيتون ، التين ، الزمان ، الاجاص ، المشمش . (٦) القطن . (٧) قصب السكر . (٨) الخضروات . (٩) الزهور .

أولاً - نظام الأراضي

كان العراق قبل كل شيء قطراً زراعياً ، تعتمد اقتصادياته على الزراعة في الدرجة الأولى ، وكانت الأرض أهم حقل للانتاج .

ومهما اختلف الفقهاء في كيفية استيلاء العرب على العراق ، وهل كان ذلك صلحاً ، أم عنوة ، فالهم هو أن أراضيهم اعتبرت ملكاً مشتركاً للامة الاسلامية . فقد كتب الوزير علي بن عيسى الى عامله على منطقة الصلح والمبارك ليخبره أن السواد أخذ عنوة ، وأنه ليس ملك الخليفة أو الدولة ، بل انه في المسلمين ، وأنه بمثابة وقف لهم وأن زراعه بمنزلة مزارعين يدفعون الخراج ايجاراً للأراضي التي يزرعونها^(١) . ويؤيد مسكويه والاصطخري هذا الرأي ، ويضيفان الى ذلك ان الأراضي حول البصرة هي عشيرة لأنها أراضي موات تم احيائها بعد الفتح الاسلامي^(٢) .

(١) الصابي - الوزراء من ٣٣٨-٩ وص ٣٤٠-٣٤٣

(٢) الاصطخري ص ٢٨٠ ابن حوقل ص ٢٣٩ ، مسكويه ج ص ١٢٧

ومع ذلك فقد وجدت في العراق أنواع مختلفة من الملكية ، دون أن تكون هناك خطوط واضحة تميز بينها ، كما كان يوجد كثير من التنوع في شروط الملكية في كل نوع . إذ كانت شروط استغلال الأراضي تعتمد عادة على أشخاص أصحابها ومراكزهم . وكانت الأراضي مسجلة في ديوان الخراج المركزي في بغداد ، كما كانت مسجلة في الدواوين المحلية كل في منطقتها ^(١) .

ويمكننا أن نصنف الأراضي بصورة عامة الى خمسة أصناف رئيسية :

(١) الضياع السلطانية ، وهذه تعود للخليفة أو للامير البويهي .

(٢) الاقطاعات .

(٣) أراضي الملك .

(٤) أراضي الوقف .

(٥) الأراضي المشاعة .

١ - فالأراضي السلطانية ترجع في أصلها الى الأراضي التي صادرها العباسيون من الأمويين ^(٢) . وقد توسعت تدريجياً عن طريق الشراء ، أو بمصادرة ضياع موظفين ماتوا أو موظفين فصلوا من وظائفهم لأسباب مختلفة ^(٣) ، أو عن طريق اللجوء ^(٤) . وكانت الضياع السلطانية منتشرة في مختلف أنحاء العراق : في السواد ، وبحوار بغداد والكوفة والبصرة وواسط ^(٥) ، وفي الأراضي المسترجعة من البطيحة ^(٦) ، وحول الموصل ^(٧) ، وكذلك في الأهواز وإيران ^(٨) . وقد أطلقت

(١) الفلقشندي - صبيح الاعشى ج ١٤ ص ١٢٤

(٢) قدامة - الخراج ص ٢٤١ ، الجبشباري ص ٩٠

(٣) قدامة ص ٢٤١ ، الجبشباري ص ٩٠ (٤) سيوضح اللجوء فيما بعد .

(٥) مسكويه ج ١ ص ٦٠-١ ، قدامة : ٢٤١ ، ابن الانبرج ٨ ص ٤٣

(٦) قدامة : ٢٤١ (٧) مسكويه ج ١ ص ٤٠٥ (٨) الطبري ص ٣ ، ٢١٤٠ ، اليعقوبي

ص ٢٧١-٢ ، مسكويه ج ١ ص ٦١

على هذه الضياع أسماء مختلفة ، تشير الى أصنافها ، مثل الضياع الخاصة ، والفراية والمستحدثة والمرتجة . فالمستحدثة ضياع أضيفت حديثاً ^(١) ، والمرتجة هي ضياع أقطعت من قبل ، ثم ألغى الخليفة إقطاعها ، لسبب ما ^(٢) . ولا يوجد في المصادر المعاصرة ما يوضح معنى الأسماء الأخرى . ويقترح زيدان أن (الخاصة) هي ضياع الخليفة نفسه ، وأن (العباسية) هي ضياع عائلة الخليفة وأقربائه ، وأن (الفراية) هي الضياع التي تقع على ضفاف الفرات ^(٣) .

وقد أنشئت عدة دواوين لإدارة الضياع السلطانية ^(٤) . فكان لأم المقتدر مثلاً ديوان خاص لإدارة ضياعها ^(٥) . وكانت كل ضيعة أو مجموعة ضياع توكل الى عامل بضمن خراجها ، أو يعطىها بالضمان الى شخص آخر ^(٦) . وكان المعتاد أن تضمن ضياع الخلافة ^(٧) .

ويظهر أن ضياع الخلافة كانت واسعة . ففي جريدة علي بن عيسى لسنة ٩١٨/٥٣٠٦ م ، نرى مقدار خراجها كما يلي :

الخاصة ^(٨)	٥١٦ر٤٤٧ ديناراً
الفراية	» ٦١٧ر١٢٦
العباسية ^(٩)	» ١٤٤ر٧٦٠
المستحدثة	» ٢٨٩ر٠٣٦ ^(١٠)

وكان خراج الضياع السلطانية في الأهواز ، حسب قول العامل ، يساوي خراج بقية الأراضي ^(١١) . ولأجل أن نحصل على فكرة معقولة لسعة الضياع السلطانية

- (١) مسكوبه ج ١ ص ٢٤٤ (٢) عرب من ١٤٥ (٣) التمدن ج ٢ ص ١٣٢
 (٤) مسكوبه ج ١ ص ١٥٢ (٥) نفس المصدر ص ١ ص ١٤٣
 (٦) التنوخي ج ١ ص ١٠٢ ، الطبري ج ٣ ص ٢٢٢٤
 (٧) مسكوبه ج ١ ص ١٥٢ ، التنوخي ج ١ ص ١٠٢ ، ابن الانبرج ج ٨ ص ٦٨
 (٨) باستثناء الضياع السلطانية بجوار واسط . (٩) باستثناء ماحول واسط
 (١٠) Von kremer , Ali b. Isa p. 31 (١١) انظر التنوخي ج ٢ ص ١٤٤

علينا أن نذكر أن العمال كانوا يتفاوضون عن خراج بعض الضياع كما كانوا يأخذون نسبة مخفضة من البعض الآخر^(١). وكان أهم وربما أوسع جزء من الضياع السلطانية يقع على الفرات (الفراتية)^(٢).

ثم تقلصت ضياع الخلافة بسرعة بعد سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م نتيجة افلاس الخزينة وشغب الجند للحصول على الرواتب. وقد اضطر الوزير ابن مقلة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م إلى بيع كثير من هذه الضياع نتيجة أزمة الخزينة^(٣). وباع الوزير الحسين بن القاسم سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م — نتيجة استمرار هذه الأزمة — ضياعاً سلطانية بمخمسة الف دينار^(٤). واستمر البيع على نطاق واسع خلال خلافة القاهرة. وفي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣١ م فوض القاهرة أبا العباس النويجي ليتخذ التدابير اللازمة لبيع الضياع السلطانية بصورة منظمة، فباع أبو العباس ضياعاً بمخمسة الف دينار في اليوم الأول^(٥). وفي عام ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م باع الوزير ابن مقلة ضياعاً سلطانية بمبلغ مليونين وأربعمائة الف دينار (٢٠٠.٠٠٠) ^(٦). ورغم تكرار البيع فقد بقيت — بعد خلع القاهرة سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م — أراضي واسعة من ضياع خاصة ومستحدثة وعباسية وفراتية^(٧). ثم كانت خاتمة ضياع الخلافة، بعد التغلب البويهى، إذ استولى عليها معز الدولة سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م، وأعطى الخليفة أقطاعاً صغيراً محلها^(٨).

٢ - الأقطاع :

وتقع أكثر الأراضي المزروعة في هذا الصنف. ويقول الخوارزمي (توفي سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) في تعريف الأقطاع : « أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبته »^(٩)، أي أن الأرض تصبح ملكاً لصاحب الأقطاع. ولكن حق الملكية

(١) Von kremer , opt. cit p. 80 (٢) ibid p. 31 (٣) مسكويه ج ١ ص ٢٠٠

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٦ (٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٤٥

(٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٠ (٧) نفس المصدر ج ١ ص ٢٩٥

(٨) مسكويه ج ١ ص ٩٦ (٩) الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٣٩

لم يراعى دائماً ، فيذكر عريب أن المقتدر اضطر ، للحصول أزمة مالية ، إلى استرجاع اقطاعات سابقة وأنشأ لها ديواناً خاصاً هو « ديوان المرتجعات » (١) .

ولا يحق للخليفة - نظرياً - منح الاقطاعات إلا من أراضيها الخاصة (٢) . ولكن هذه القاعدة اهتمت في الغالب (٣) . ولم تكن على أصحاب الاقطاع واجبات عسكرية ، ولكن عليهم دفع بعض الضرائب (٤) ، وتصليح القنوات والجسور التي تقع في أراضيهم (٥) .

وكان الخليفة مانح الاقطاع الأول ، ثم شاركه أمير الأمراء بين سنة ٣٢٤ - ٥٣٣١ / ٩٣٥ - ٩٤٥ م في هذا الامتياز وأخذ يمنح الاقطاعات . وأخيراً أصبح الأمير البويهى ، بعد سنة ٣٣٤ هـ ، ينفرد بمنح الاقطاعات (٦) .

وتصنف الاقطاعات نظرياً الى صنفين وذلك بالنسبة لما يصحبها من حقوق :
١ - اقطاع التملك : وبموجبه تكون لصاحبه ملكية تامة ، وقد تكون وراثية ايضاً . وعلى صاحب هذا الاقطاع دفع العشر . ويعطى اقطاع التملك عادة من الأرض الموات لاحتيائها ، أو من أرض توفى صاحبها دون وارث (٧) .

٢ - اقطاع الاستغلال : وهذا لا يورث مطلقاً . ويعطى عادة لرجال الجيش ، من بين أرض الخراج (٨) .

إلا أن نوع الاقطاع ، كان يعتمد في الواقع على مركز صاحبه ، لا على ما يصحبه من حقوق نظرية . وعلى هذا الأساس العملي ، يمكننا تمييز الانواع التالية :
١ - اقطاعات مدنية .

(١) عريب - صلة الطبري ص ١٤٥ (٢) الماوردي - الاحكام السلطانية ص ١٨٣
(٣) مسكويه ج ١ ص ١٣٦ (٤) الفلقشندي - صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٣٩ - ١٤٣
(٥) الصابي - تاريخ الوزراء ص ٢٥٧ (٦) مسكويه ج ١ ص ١٣٦ ، وص ٣٧٤
(٧) الخوارزمي ص ٦٠ ، الماوردي ص ١٨٦ - ٧ ، الفلقشندي ج ١٣ ص ١١٣ - ١١٥
(٨) الماوردي ص ١٨٩ ، الفلقشندي ج ٣ ص ١١٥ - ١١٧

٢ - اقطاعات خاصة .

٣ - اقطاعات الخليفة .

٤ - اقطاعات عسكرية .

فالاقطاعات المدنية كانت تمنح للموظفين بدل الرواتب ، وكانت أكثر أنواع الاقطاع شيوعاً في مفتتح القرن الرابع الهجري . فعندما يتسلم الوزير مقاليد الوزارة ، يعطى الاقطاعات ، فاذا ما عزل ، أخذت منه وسلمت الى خلفه في الوزارة ^(١) . وكانت اقطاعات الوزراء واسعة ^(٢) ، يديرها ديوان خاص يسمى « ديوان اقطاع الوزراء » ^(٣) .

ويعطى لبقية الموظفين الكبار اقطاعات ايضاً . ففي عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م قدم ابن رائق أمير الأمراء لبجكم ضامن ولاية الأهواز اقطاعات يبلغ واردها خمسين ألف دينار في السنة ^(٤) . وفي ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م اقطع معز الدولة البويهى حاشيته اقطاعات واسعة ^(٥) . كما انه اقطع خازنه ^(٦) . وفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م أثبت عضد الدولة اقطاع ابي اسحاق الصابي كاتب ديوان الرسائل ^(٧) . ولا يفرض هذا النوع من الاقطاع أية مسؤولية على صاحبه .

أما الاقطاعات الخاصة فكانت تمنح الى أفراد لهم خدمات خاصة أو قابليات خاصة دون أن يكونوا موظفين كالشعراء . ويكون لصاحبها الملكية التامة وحق تورثها

(١) مسكويه ج ١ ص ١٥٥ ، ص ١٣٣ التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٣٧ ، الصابي ص ٢٣

(٢) ولا يقل واردها عادة عن ٥٠٠٠٠ دينار في السنة . انظر الصابي ص ٢٣ ، مسكويه ج ١ ص ١٥٩ ، باقوت - معجم الادباء ج ٥ ص ٢٧٨ ، مسكويه ج ٢ ص ٢٤١

(٣) عريب ص ١٣٥ (٤) مسكويه ج ١ ص ٣٧٤

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٩٦ (٦) مسكويه ج ٢ ص ١٨٨

(٧) باقوت - معجم الادباء ج ١ ص ٣٣٢

من بعده . فهناك اشارة الى اقطاع كانت تتمتع به حفيده الشاعر البحتري في خلافة الرازي وكان قد منح لجدها ^(١) .

ويدخل في هذا الصنف اقطاع الأرض (المتروكة) لغرض احيائها . وكانت الطريقة المتبعة هي أن يجلب صاحب الاقطاع الفلاحين لاستغلال الأرض ويجهزهم بالبذور والمال ، كما أنه يقوم بكري القنوات ، ويدفع للخزينة مقداراً معيناً من المال كل سنة . ويتمتع صاحب الاقطاع ، مقابل ذلك ، بملكية رقبة الارض وبحق توريثها ، ويعفى من كل ضريبة أخرى ومن أي تدخل حكومي ^(٢) .

٣ - ولما استولى معز الدولة على ضياع الخلافة ، خصص للخليفة اقطاعاً خاصاً به . وكان هذا الاقطاع يشبه الاقطاع المدني ، وفوق ذلك كان هذا الاقطاع في حماية الامير البويهى ^(٣) . وكان للخليفة كاتب يقوم بادارة هذا الاقطاع ^(٤) .

وهناك اقطاع يشبه هذا الاقطاع ، وهو اقطاع الامراء . ففي سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م اتفق صمصام الدولة وبهاء الدولة بأن يكون لكل منها اقطاعات في أراضي الآخر ^(٥) . وربما كان هذا الاقطاع ملكاً دائماً لصاحبه .

٤ - وفي القرن الرابع الهجري ، مر الاقطاع بمرحلة عسكرية ، إذ أن الاراضي وزعت على الجند على نطاق واسع . وقد حصل هذا التبدل نتيجة عوامل متعددة ، وهي افلاس الخزينة في السنوات الاخيرة لحكم المقتدر (بعد ٣١٧ هـ) وفي حكم أخلافه ، ثم قلة خبرة البويهيين الاولين الادارية ، وفوضى الجند ^(٦) .

(١) التنوخي ج ٨ ص ٢٨ (الترجمة الانكليزية) ، انظر الصابي ص ١٦٣ - ٤٤ ص ١٨١ - ١٨٢ .
(٢) انظر عهود الطيم في الفلشندي ج ١٣ ص ١٢٣ - ١٣١ ، ص ١٣٩ - ١٤٣ . والاراضي (المتروكة) هي الاراضي التي اهدت لغرب .

(٣) مسكويه ج ٢ ص ٣٤٩ ، ابن الانيرج ج ٨ ص ٤٧٨ (٤) ابن الانيرج ج ٨ ص ٣٣٩ .
(٥) مسكويه ج ٣ ص ٢٧١ - ٢٠٢ . وكان صمصام الدولة امير (ارجان) وقرس ، وكان بهاء الدولة امير العراق وخوزستان . (٦) ابن الانيرج ج ٨ ص ٣٤٢ - ٣ .

وكانت السنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م حاسمة في شمول الصفة العسكرية للاقطاع . إذ أن معز الدولة أعطى الاقطاعات لجنده دون حساب ^(١) ، وحذا من جاء بعده حذوه . ومنذ ذلك الوقت ازدادت الاقطاعات العسكرية بصورة مطردة ، لدرجة أن الاقطاعات المدنية أصبحت ثانوية في الأهمية . وقد توسعت الاقطاعات العسكرية على حساب الأنواع الأخرى للأراضي ، مثل الاقطاعات الخاصة ، وضياع الخلافة ، وأراضي الخزينة ^(٢) . وقد تطرف عضد الدولة ، فمنح الجند اقطاعات من أراضي الوقف ^(٣) .

ولم تكن الاقطاعات العسكرية وراثية ، كما أنها لا تدوم طيلة الحياة ^(٤) . وهي لا تعتبر ملكاً لصاحبها ، لأن الأمير البويهى يحتفظ بحق الغائها متى أراد ^(٥) . وهي إذ تمنح للجند ، إنما تمنح ليعوض واردها عن الراتب الذي لا تستطيع الخزينة البويهية المرتبكة دفعه . وكان يصعب المنح اتفاق يفرض على صاحب الاقطاع دفع كمية من النقود أو ما يعادلها من الغلة ، دفعة واحدة أو بأقساط متعددة ^(٦) . كما كان ينتظر منه العناية بالقنوات المارة بأرضه ^(٧) . أما السلطة داخل اقطاعه فيفترض أن تبقى بيد الإدارة المركزية ^(٨) .

ولم يكن الاقطاعيين من الجند ، كانوا في الواقع لا يدفعون للخرينة شيئاً يذكر ^(٩) . ولم يتركوا للإدارة المركزية أي نفوذ في اقطاعاتهم ، وتحكموا بزراعتها كما يشاؤون ^(١٠) . واعتادوا أن يديروا اقطاعاتهم بواسطة وكلائهم . ولم يحتفظوا في عهد

(١) مسكويه ج ٢ ص ٩٧

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٧ ج ٣ ص ٧٢-٧٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤٢-٣٤٣

(٣) أبو شجاع ص ٧١ (٤) نفس المصدر ص ١٣٧ ٢٤٥٤ ، الصابي ص ٤٦٨

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٩٧ ج ٣ ص ١٦٥ (٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨-٩٩

(٧) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨ (٨) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٩

(٩) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨ (١٠) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨-٩٩ و ص ٩٧

معز الدولة بأي سجل بواردهم ، ويظهر أنهم ساروا على ذلك طيلة العهد البويهى حتى في زمن عضد الدولة (١) .

بدأ معز الدولة بتلك الخطة الخطرة بتخصيص كل منطقة لرئيس من رؤساء الديلم ، وأخذ هؤلاء يتصرفون بهذه المناطق كأنها ملكا خاصا بهم يتمتعون به طيلة حياتهم (٢) . واستمر هذا الوضع حتى زمن عضد الدولة حين استطاعت الحكومة أن تفرض سلطتها في الاقطاعات الكبيرة ، وأن تجبي الضرائب اللازمة منها (٣) .

وكانت الاعتبارات العسكرية مسؤولة أحيانا عن منح الاقطاع العسكري . ففي سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م جوبه أبو نصر خواشاده ، وزير شرف الدولة ، بثورة الشيخ الكردي باذ . ولما لم يكن لديه المال اللازم لدفع الرواتب لجنده ، فانه اقطع القبائل العربية اقطاعات حول حران ، آملا بذلك أن يجعلهم يقفون بوجه باذ بقوة دفاعا عن اراضيهم . وبذلك كون مستعمرة عسكرية على الحدود الشمالية للدولة (٤) .

ولم تعترف الحكومة المركزية أبداً بوضع المقطعين العسكريين وتقوذهم الفعلي ، وكانت تتدخل كلما صار لها المجال لتحد من سلطانهم (٥) .

وسنناقش سعة بعض الاقطاعات العسكرية في حديثنا عن « مستوى المعيشة » في فصل تال .

٣ - أراضي الملك :

كانت الملكيات الخاصة في الاراضي من أصول متنوعة . فمن الناحية التاريخية ، كانت الملكيات الاولى من اقطاع الخلفاء لبعض الافراد والجماعات (٦) ، وهو ما يسميه

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨ ، ج ٣ ص ٤٧ - ٥٠ (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٨ ،

(٣) ابو شجاع ص ٤٧ - ٥٠ (٤) نفس المصدر ص ١٤٤

(٥) نفس المصدر ص ١٦٥ و ص ٢٩٤ - ٥٠ ، الصابي ص ٤٦٨

(٦) انظر ابني عبيد - الاموال ص ٦١ ، زيدان - التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٣٥ وما بعدها ،

الماوردي إقطاع التملك^(١) . ثم أن إحياء الأرض الموات ، واستخلاص الأرض من المستنقعات لاقى تشجيع وتأييد الحكومة^(٢) .

ومن أمثلة الأرض الموات التي تم إحيائها في العصر الاسلامي الأراضي المحيطة بالبصرة^(٣) . وحصلت محاولات عديدة من الحكومات والأفراد لتجفيف أجزاء من البطيحة لاستخلاص الأرض الخصبة من الماء ، وكانت الأراضي المستخلصة تسمى « بالجوامد »^(٤) . وكان إحياء الأرض الموات ، أو استخلاص الأرض من المستنقعات وزرعها يعطي صاحبها حق الملكية التامة^(٥) .

وهناك مصدر آخر لأراضي الملك ، وهو بيع أراضي الخزينة أو (الصوافي)^(٦) ، وضياع الخلافة كلها وجد الخليفة نفسه في أزمة مالية^(٧)

وقد اقتنى الموظفون ، وغير الموظفين الذين كانت حالتهم المالية حسنة^(٨) ، الضياع لأنها كانت تعتبر ملكية مستقرة ، وموردها نسبياً أكيد^(٩) . فلما صودرت ملكيات ابن الجصاص التاجر سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، كان أهم ما لم تشمل المصادرة ضياعه الواسعة^(١٠) . ولما ورث أحدهم ثلاثين ألف دينار ، اشترى ضياعاً بعشرة آلاف^(١١) . وكان الوزراء عادة يقتنون ضياعاً واسعاً^(١٢) ، تكون على الأغلب

(١) الماوردي - الأحكام السلطانية ص ١٨٦-١٨٧

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٨٨ ، قدامة ص ٢٤١ ، الماوردي ص ١٧٣

(٣) الاصطخري ص ٨٠ ، ابن حوقل ص ٢٣٩

(٤) الماوردي ص ١٧٣

(٥) نفس المصدر ص ١٧٢

(٦) ابن رسته ص ١٥٠

(٧) انظر فقرة « الضياع السلطانية »

(٨) مسكويه ج ١ ص ٢٥٣-٤ ، ص ٢٣٨-٢٤١ ، ابوشجاع ص ٧٢ ، التنوخي ج ١ ص ٩٣

(٩) التنوخي - الفر ج بعد الشدة ج ١ ص ٩١

(١٠) التنوخي ج ١ ص ١٧

(١١) نفس المصدر ص ٩٣

(١٢) الصافي ص ١٣٧ ، ص ٣٢٢ ، ياقوت - معجم الأدباء ج ٥ ص ١٧٨ ، وانظر فصل (مستوى

المعيشة) ، قسم (الوارد) .

متفرقة في عدد من المناطق . فمثلا كانت للوزير علي بن عيسى ضياع في ديار ريعة ،
والموصل والسواد ، ودمشق ومصر ^(١) .

وكانت علي الملاكين واجبات هامة بالاضافة إلى دفع الضرائب . فكان عليهم
أن يساهموا في نفقات إصلاح القنوات المارة بأراضيهم ^(٢) .

أما أهم الملاكين فهم الخليفة وكبار الموظفين . وكان ذلك يعود لدرجة غير قليلة
إلى عادة (الاجاء) التي كان صغار الملاكين يسرون عليها . إذ أن ضغط الجباة
واضطراب الوضع جعل هؤلاء الملاكين يضعون أراضيهم في كثير من الأحيان
في حماية الخليفة أو أحد الأمراء أو الموظفين السكار ، بتسجيل تلك الأراضي بأسمائهم
في الديوان ^(٣) ، وذلك مقابل دفع جزء من الحاصل إلى الخامي ^(٤) ، وهكذا كان
يتم الاجاء . وتعود هذه الطريقة الى العصر الأموي ، فيذكر قدامة أن الكثير من
الملاكين في السواد أجأوا أراضيهم إلى مسلمة بن عبد الملك وذلك في ولاية
الحجاج ^(٥) .

ويشير الاصطخري الى ارضين في ولاية فارس كانت مسجلة بأسماء بعض رجال
الحاشية المتنفذين مقابل ربع الحاصل ، إلا أنه يبين أن بعض الملاكين الأصليين كانوا
يستطيعون التصرف بأراضيهم كما يشاؤون ^(٦) . ويذكر مسكويه أن كثيراً من الملاكين

(١) الصابي ص ٣٢١ و ص ٣٠٤

(٢) ن . م . ص ٢٥٧ ، الطبري سلسلة ٣ ص ٢١٥٣

(٣) انظر زيدان ج ٢ ص ١٣٠

(٤) يذكر التنوخي أن أحد الملاكين شكا الى المنصور سوء معاملة العمال له اضعفه ، وقدم
للخليفة ربع حاصل الأرض أن رضي الخليفة بتسجيلها باسمه . تنوخي ج ٨ ص ٧٦ . وقدم
ملك آخر من أهل الأهواز ١٠٠٠٠ دينار سنوياً لوزير المنصور أن رضي بتسجيل
الأرض باسمه لينقذه من ظلم الجباة وتمديهم . الجبشيار ص ١١٨ .

(٥) قدامة ص ٢٤١ ، وانظر ابن الفقيه ص ٢٨٢ ص ٢٨٤

(٦) الاصطخري ص ١٥٨ ، وابن حوقل ص ٣٠٣

في العراق جعلوا أراضيهم سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م (ملاحية) لابن شيرزاد . وكان ابن شيرزاد شديد الخطوة لدى الأمير البويهى صمصام الدولة وذا كلمة مسموعة عنده ^(١) .

وهكذا كان نظام (الاجاء) وسيلة للتخلص من عبث الجباة والعمال ومن إرهابهم . كما أن تفوذ الحامي قد يجعل الجباة والعمال يصفحون عن جباة جزء من الضرائب المستحقة ^(٢) . وبمرور الزمن ، كان الحامي يصبح المالك الحقيقي للارض ، بينما يتبدل وضع المالك الأصلي إلى حالة مزارع في الأرض ^(٣) .

وهناك صنف آخر من الملكية يسمى (الايغار) ، إلا أن المعلومات عنه قليلة وغامضة . جاء في حاشية قديمة في كتاب الوزراء للصابي أن «الايغار تسويغ السلطان الأرض من شاء (تسويغها) من غير أن يؤدي عليها» ^(٤) . وبموجب ذلك يكون الايغار بأن يهب الخليفة أرضاً يعنى مستلمها من الضريبة ، وبذلك يكون في وضع ممتاز . ويؤيد هذا ما ورد في الصابي من عدم دفع الوزير ابن الفرات الضرائب على ضياعه لأن الخليفة (أوغره) إياها . قال حامدين العباس (الوزير الجديد) لابن الفرات بعد عزله « نريد أن نحاسبك على ما أغللت في ثمانية عشر شهراً من ارتفاعك وما انضاف إلى ذلك من رزقك وحق بيت المال التي قد رفعت عن نفسك لنفسك بأنك أوغرتة . » فقال ابن الفرات « أما استغلال ضيعتي فلا مطالبة تتوجه عليّ به وقد ردها أمير المؤمنين علي . وأما حق بيت المال الذي أوغرتة فالحال واحدة فيه » ^(٥) .

(١) مسكويه ج ٢ ص ٢٥٧

(٢) زيدان ، التمدن ج ٢ ص ١٣٠

(٣) انظر قدامة ص ٢٤١ ، ويذكر الثعالبي انذاراً للعلاكين الصغار بأن لا يتشاركوا مع الملاكين الكبار ، « لأنهم إذا دخلوا قرية أفسدوها » . خاص الخاص ، ص ١٦٨ . ويرى زيدان أن كثرة الملاحية دفعت الحكومة إلى إنشاء ديوان خاص لها باسم (ديوان الضياع) الذي كان مستقلاً عن ديوان الخراج . التمدن ج ٢ ص ١٣١

(٤) الصابي ص ٤٢ ، الهامش . ويعطى لسان العرب ج ٧ ص ١٥٠ نفس التعريف .

(٥) الصابي . ص ٩١

ومن هذا يتضح أن الخليفة تجاوز عن الغرائب على ضياع ابن الفرات أثناء وزارته أي أوغره إياها .

ويذكر قدامة أن العباسيين أقطعوا (يقطين) بعض الضياع في السواد في أول دولتهم ^(١) ، وقد عرفت هذه الأراضي بـ (ايغار يقطين) . ومعنى هذا أن الايغار كان معروفا قبل مجيء العباسيين .

وكان للايغار معنى آخر وهو « الحماية » وذلك أن بضمن صاحب ضيعة أو رجل موسر من أهل قرية خراجها برضام فيدفع الضمان إلى الحكومة على أن لا يدخلها عامل أو جاب ^(٢) . ويظهر أن هذا النوع من الايغار كان شائعاً في العصر العباسي الأول . يقول أبو يوسف : « وإن جاء أهل طسوج (منطقة زراعية) أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال أنا أنضمن من أهل هذا الطسوج أو أهل هذا البلد خراجهم ورضوا بذلك فقالوا هذا أخف علينا ، نظر في ذلك الخ . » ^(٣) ويظهر أن الغرض من هذا الايغار حماية صاحب الأرض أو أصحاب المنطقة من تعسف الولاة والجبابة .

٤ - أراضي الوقف :

ويدخل في هذا الصنف مجموعة هامة من الأراضي . ويقصد عادة بالوقف الأراضي التي يخصصها المسلمون لأغراض دينية . فيكون وادها للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) ، أو للمجاهدين ، أو للفقراء والمحتاجين ، أو لليتامى ، أو لفك رقاب العبيد ، أو لبناء المساجد والحصون ، أو للمنافع العامة الأخرى ^(٤) .

(١) قدامة ص ٢٤١

(٢) الخوارزمي ص ٦٠

(٣) الخراج ص ٦٠

(٤) الصافي ص ٢٨٦ ، ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٢ ، الفخري ص ٣٦٤ ، هلال الزلي من ١٠ - ١٢

ويكون الوقف خاصاً أو رسمياً . فالأوقاف الخاصة ، يوقفها بعض الأتقياء من الأمة ^(١) . فننلا أوقف تميم الطالبين أبو أحمد الموسوي قبيل وفاته (سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) كل أملاكه للفقراء ^(٢) . وكان الوقف أحياناً يوضع لفائدة الأقرباء والذرية ، وفي الحقيقة كان الغرض من الوقف أحياناً ضمان تمتع الذرية بوارد الأملاك بصورة دائمة ^(٣) .

أما الوقف الرسمي ، فقد بدأ به الخليفة بصفته حامي الحرمين الشريفين ، وحارس الحدود ^(٤) . وقد أوقف المقتدر ، بناء على مشورة الوزير علي بن عيسى ، ضياعاً حول بغداد وكان واردها السنوي ثلاثة عشر ألف دينار ، وضياعاً في السواد بلغ واردها ثمانين ألف دينار ^(٥) . وقد أوقفت أم المقتدر أراضي واسعة ^(٦) . واتفق الوزير ابن مقلة عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م عشرين ألف دينار على أراضي وأوقافها على الطالبين ^(٧) . ولا يكون الوقف إلا من الأملاك الخاصة ^(٨) . ومتى ما تم وقف الأرض ، لم يعد بالامكان بيعها أو مصادرتها ^(٩) . فلما أرادت أم المقتدر ان تتصرف ببعض أراضي الوقف ، رفض القاضي أبو جعفر بن البهلول الافتاء بذلك ، وأيد المقتدر القاضي في موقفه ^(١٠) . ولكن توجد حالات شاذة أهملت فيها هذه القاعدة .

(١) عريب ص ١٣١

(٢) الذهبي - تاريخ دول الاسلام (مخطوط) ورقة ٦٨ أ .

(٣) الجاحظ - البخل ص ٧٧ ، انظر هلال الرأي ص ٣٨ - ٤٦ ، ابن طيفور ص ١٠٤

(٤) الصابي ص ٢٨٦ ، الفخري ص ٣١٧ ، ٣٦٤ .

(٥) الصابي ص ٢٨٦ ، ياقوت : معجم الأدباء ص ٢٧٩ ، انظر عريب ص ١٣١

(٦) مسكويه ج ١ ص ٢٤٥

(٧) ن . م . ص ٢٢٥

(٨) انظر الصابي ص ٢٨٦ ، الفخري ص ٣٦٤ ، عريب ص ١٣١

(٩) هلال الرأي ص ٩٥

(١٠) التنوخي ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠

ففي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م سمح القاهر ببيع بعض أراضي الوقف ^(١) . وكان أجره خطوة في هذا الاتجاه ما عمله الأمير البويهى عضد الدولة . ففي سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م صادر كل أراضي الوقف في السواد لتستفيد منها الدولة ، وعوض الذين مسهم ذلك برواتب ^(٢) . إلا أن أخلافه لم يسيروا على نهجه ^(٣) .

وكان الاشراف على إدارة الأوقاف الخاصة الى القاضي ، وينتظر منه أن يصلح الأوقاف وينميها ، وأن يتأكد من أن واردها يجمع كاملا وبصورة صحيحة ، وأنه يصرف في أوجهه المخصص لها ^(٤) . اما الأوقاف الخاصة فكان الاشراف عليها - نظرياً - الى القاضي ، ولكنها كانت في الواقع تدار بواسطة ديوان خاص يدعى (ديوان البر) ^(٥) .

ثانياً — السياسة الزراعية للدولة :

كانت الحكومة تدرك تماماً العلاقة القوية بين حالة الزرع وبين الوارد . إذ لما كانت ضريبة الأرض أهم مورد للخزينة فإن النشاط الزراعي معناه ازدياد الوارد . ولذا كانت مساعدة الفلاحين تعتبر سياسة مالية مستنيرة ^(٦) . ومن ناحية أخرى لم يؤخذ خير الفلاح دائماً بعين الاعتبار ^(٧) . ولم تنشأ سياسة زراعية موحدة ، وإنما كانت التدابير فردية تعتمد على شخص الحاكم (وهو الخليفة أو وزيره أولاً ، ثم الأمير البويهى فيما بعد) ، وعلى مشورة حاشيته .

(١) مسكويه ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن الانبار ج ٨ ص ١٨٢ ، التنوخي ج ٨ ص ١٦

(٢) ابو شجاع ص ٧١

(٣) الذهبي ورقة ٦٨ أ

(٤) رسائل الصابي ص ١٢٣ ، الماوردي ص ٦٧ ، التنوخي ج ٨ ص ١٦ ، التنوخي ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠ ، الجاحظ ، البخل ص ٧٧ .

(٥) الصابي ص ٢٨٦ ، مسكويه ج ١ ص ٢٩٥ ، ياقوت : معجم الأدياء ص ٢٧٩ ومع ذلك كان للقاضي حق الاشراف . انظر التنوخي ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠ ، ورسائل الصابي ص ١٢٣ .

(٦) التنوخي ج ٨ ص ٨٩

(٧) انظر مسكويه ج ١ ص ٢٧

لقد شهد أواخر القرن الثالث الهجري إصلاحاً مهماً قام به الخليفة المعتضد .
 ففي سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م آخر الخليفة موعد جباية الخراج من ١١ نيسان وهو النوروز
 الفارسي إلى السابع عشر من حزيران ، وأصبح التاريخ الجديد يدعى بالنوروز المعتضدي .
 ولتوضيح ذلك نين أن الطريقة التقليدية هي جباية الخراج في النوروز ، وهذا
 يتوقف مواعده على التقويم الهلالي ، ولذا كان يتقدم زمنه كلما مرت السنون ، حتى
 صار زمن المعتضد في نيسان ، فكان الخراج يجبي والزرع أخضر . وهذا الوضع
 « أضرّ بالناس فهم يقرضون ويتسلفون ويحلون عن أوطانهم وقد كثرت شكاياتهم
 وظلمهم » . فأراد المعتضد بإصلاحه أن يجعل وقت الجباية يتناسب وموسم نضج
 المزروعات . وقد أطرى البحرى مثل هذا التدبير قائلاً : « فللأمة في ذلك مرفق
 (فائدة) مذكور » (١) .

وقد اعتنى المعتضد عناية خاصة بحفظ نظام الري ومن الأمثلة المهمة على ذلك
 كربه لقناة الدجيل وتطهيرها من الرواسب (٢) . ويذكر الصابي قصة تدل على مدى
 اهتمام الخليفة بالإشراف على توزيع المياه . فقد شكى بعض زراع منطقة بادوريا إلى
 الخليفة بأن بعض أصحاب الضياع التي تروى من الفرات تأمروا مع مهندسي
 الحكومة على تضيق أبواب قنطرة (دِما) الواقعة على صدر نهر عيسى — الآخذ
 من الفرات — ليستطيعوا بذلك الاستئثار بالماء . فأرسل الخليفة وزيره مع
 بعض المهندسين لدرس القضية في محلها ، واستجوبت اللجنة زراع المنطقة ، وقررت
 توسيع الباب الوسطي للقنطرة وجعل سعته اثنين وعشرين ذراعاً (٣) .

(١) انظر تفاصيل المشكلة في البيروني ص ٣١ - ٣٣ والمقرئ : الخطط ج ٢ ص ٣٩ - ٤١
 ويرى المقرئ أن الموعد آخر إلى ٥ حزيران . ونرى من السكتابين أن أول محاولة
 للإصلاح كانت في خلافة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م وهي التي عنها البحرى بقوله ،
 ولكنها لم تنجح حق حقتها المعتضد .

(٢) الطبري ص ٣ ص ٢١٥٣

(٣) الصابي ص ٢٥٦ - ٧

وحاول المعتضد مساعدة الزراع بتسليفهم النقود لشراء البذور والبقر ^(١). وكان علي بن عيسى أكثر وزراء المقتدر عناية بخير الزراع. فقد كتب كتاباً دورياً إلى عماله يوصيهم فيه « بانصاف الرعية والعدل عليها » على أن تدفع الضرائب ، ويأمرهم فيه « بالجد والاجتهاد في العماره (أي إعمار الأراضي الزراعية) » ^(٢). واعتقد علي بن عيسى ان حفظ نظام الري هو العامل الرئيسي في رفاه البلاد . فلما استشاره معز الدولة البويهى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م عن سبب خراب البلاد آنئذ ، أجاب : « ومن أولى ما نظرفيه الامير وقدمه سد هذه البشوق (في الأنهار) وهي اصل الفساد وخراب السواد » ^(٣).

وكان يسلف فقراء الزراع البذور ثم يسترجع ذلك منهم في موسم الحصاد ^(٤). وفي فترة (إمارة الأمراء) بين ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ - ٩٤٥ م أهملت القنوات وخربت البلاد نتيجة المنازعات والحروب بين الأمراء الطامحين ونتيجة فوضى الجند . ففي النزاع بين الاميرين التركيين (بحكم) و (ابن رائق) ، « خرب ابن رائق نهر دىالى ، وفعل أفعالا كانت سبباً لبثق النهران » ، مما دمر المزروعات ^(٥) وفي سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م « انبثق نهر الرفيل ونهر بوق فلم يقع عناية بتلافيها حتى

(١) التنوخي ج ٨ ص ٦٦

(٢) انظر كتب ورسائل علي بن عيسى لعماله في الصابي ص ٣٣٦ - ٨ ومسكويه ج ١ ص ٢٧ . وقد ارسل علي ، عند مجيئه للوزارة سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م كتاباً دورياً الى عماله جاء فيه : « وتمسكن في نفسك انه لا رخصة عندي ولا هواده في حق من حقوق امير المؤمنين اغضي عنه ولا درم من ماله اساع فيه ، ولا تقصير في شيء من امور العمل اصبر لقريب او بعيد عليه . ولا تسكن باظهار اثر جميل في ذلك اشد عناية منك بانصاف الرعية والعدل عليها ، ورفع صغير المؤمن وكبيرها عنها ، فاني اطالبك بذلك كما اطالبك بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها » . مسكويه ج ١ ص ٢٧ .

(٣) مسكويه ج ٢ ص ١٠٦ هامش

(٤) الصابي ص ٣٣٨

(٥) الصولي ص ١٠٨

خربت بادوريا بهذين البتقين بضعة عشر سنة^(١) . وفي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م انبثق النهران نتيجة سوء تصرف ابن رائق وجنده ، ويصف الصولي أثر ذلك بأنه « خرب الدنيا ، وغلبت الأسعار (أي ارتفعت لدرجة خطرة) إلى وقتنا هذا » ، أي إلى حوالي سنة ٣٣٤ هـ^(٢) . وفي سنة ٣٣٣ هـ / ٩٣٤ م انبثق نهر عيسى ، ولم يستطع أمير الأمراء إصلاحه^(٣) . وأخيراً انبثق نهر الخالص سنة ٣٣٤ هـ^(٤) . ولم يتم أي إصلاح سوى ما فعله الخليفة من سد بثق في نهر الصراة سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م^(٥) . وقد ختمت هذه الفترة السوداء بالفتح البويعي سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م . وبعد أن فتح البويهيون العراق ، غص معز الدولة (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ / ٩٤٥ - ٩٦٦ م) أسباب الأزمة الزراعية ، ووجد أن الرفاه لن يعود إلا بعد سد البثوق وإصلاح القنوات فقال : « وقد نذرت لله عند حضوري في هذه الحضرة ألا أقدم شيئاً على ذلك (أي سد البثوق) ولو أتفقت فيه جميع ما أملك »^(٦) .

وقد بر معز الدولة ببعض وعده . ففي سنة ٣٣٤ - ٣٣٥ هـ سد بثق نهر الرفيل وسد بثق نهر الروبانية ببادوريا ، ثم خرج إلى النهروانات فسد بثقاتها^(٧) ، وحفر لنهر الخالص محوله .

ويتضح أثر سد البثوق في قول مسكويه : « وكانت النهروانات قد بطلت وكذلك بادوريا فلما سد بثوقها عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلاً بدرهم »^(٨) .

(١) مسكويه ج ٢ ص ٩

(٢) الصولي ص ١٠٦ وص ٢٢٥

(٣) ن . م . ص ٢٧٨

(٤) مسكويه ج ٢ ص ٩٦ هامش

(٥) الصولي ص ١٣٧ - ١٣٨

(٦) مسكويه ج ٢ ص ١٠٦ هامش

(٧) ن . م . ج ٢ ص ١٦٥ ، وص ١٦١ هامش

(٨) مسكويه ج ٢ ص ١٦٥

وحاول معز الدولة إعمار الضياع الخراب بالسواد ، وكلف أبا الفرج بن أبي هشام بتنفيذ ذلك سنة ٣٣٤ هـ ^(١) . واهتم بمشكلة موعد جباية الخراج وعالجها . ففي سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م نقل وزيره المهلبى سنة ٣٥٠ هـ الخراجية إلى سنة ٣٥١ هـ ليوفى بين موعد الجباية وبين موسم نضوج الحاصل ^(٢) .

ولكن عناية معز الدولة بالري ، تلاشت أمام سياسته الهدامة تجاه الأراضي ، تلك السياسة التي ألجأته إليها مشكلة إعالة جيشه ، وفراغ الخزانة . ويعطي مسكويه معلومات قيمة ومفصلة عن تدابير معز الدولة المتعلقة بالأراضي . فيذكر أنه ، سنة ٣٣٤ هـ « أقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان ، وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد ، وحق بيت المال في ضياع الرعية » ^(٣) . ثم يزداد توضيحاً حين يقول : « إنه أقطع أكثر أعمال السواد في حال خرابه وتقصاف ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته . ثم ساهم الوزراء المقطعين ^(٤) ، وقبلوا منهم الرشى ، وأخذوا للمصانع في البعض ، وقبلوا الشفاعات في البعض فحصلت الاقطاعات لهم بغير ^(٥) متفاوتة . وزاد الارتفاع في بعضها بانحطاط الأسعار — وذلك أن الوقت الذي أقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقمح الذي ذكرناه — فتمسك الرابحون بما حصل في أيديهم من إقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة ^(٦) . ورد الخاسرون إقطاعاتهم فغوضوا عنها وتمت لهم نقائصها ^(٧) ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند

(١) ن . م . ج ٢ ص ٨٨

(٢) ن . م . ص ١٨٩ . يخرى الصاني (ابواسحاق) ان الطريقة التي اتبعها المهلبى هي اعتبار كل

٣٣ سنة قرية معادلة ١ . ٣٢ سنة شمسية . انظر المرسوم في رسائل الصاني ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٦

(٣) مسكويه ج ٢ ص ٩٦ . بقصد بحق بيت المال هنا الضرائب على الزرع .

(٤) اي تساهلوا في تقدير ما يلزم اصحاب الاقطاع دفعه

(٥) العبر جمع (عبرة) اي المعدل للجباية .

(٦) اي لم يمكن محاسبتهم على الفرق الواسع بين ما يطلب من المقطعين بموجب العبر الرسمية وبين حقيقة الانتاج

(٧) اي اعطوا اقطاعات جديدة حسنة الوارد .

إقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ، ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح ^(١) . وقلدت الاقطاعات المرتجعة (أي المردودة) من كان غرضه تناول ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع في عمارتها . هذا مع إهمال تام للزراع إذ « اقتصر المقطعون على تدير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجري على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تسمير ومصلحة » ^(٢) .

وكنتيجة لهذه السياسة « انصرف عمال المصالح (أي موظفو الري) عنها (أي عن الضياع) لخروج الأعمال عن يد السلطان ، ووقع الانقصار في عملها على أن يقدر ما يحتاج إليه (لربها) ويقسط على المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبأدائها وإن أدوها وقعت الحيانة فيها فلم تنصرف إلى وجوها » . فأدى ذلك إلى أن « فسدت المشارب (أي نظام الري) وبطلت المصالح (أي منشآت الري) وأتت الجوائح (أي النكبات) على التناثر (الزراع) ورقت أحوالهم (أي ضعفت) ، حتى صاروا « بين هارب جال (أي نازح عن أرضه) ، وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه » . وهكذا « بطلت العمارات وأغلقت الدواوين » ^(٣) .

ومن الناحية الأخرى ، أعطيت الأراضي الباقية ، بعد فصل الاقطاعات ، إلى « طبقتين من الناس ، إحداهما أكابر القواد والجند ، والأخرى أصحاب الدرايع (أي الكتاب) والمتصرفون . فأما القواد فانهم حرصوا على جمع الأموال وحياسة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط (أي التخفيف) ، فان استقصى (المال) عليهم صاروا أعداءهم » . وأما الكتاب والمديون « فكانوا أهدي من الجندي إلى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال » . وحال الطرفان دون تدخل موظفي

(١) أي أنهم يختارون بدلها من الأراضي ما يريدون فيربحون الفرق بين ما أرجعوا وما أخذوا ، ويفوزون بوارد جيد .

(٢) ن ٢٠٢ ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩

(٣) مسكويه ج ٢ ص ٩٨

الحكومة في شؤون ضياعهم وشؤون زراعتها . « فبطل . . أن يسمع لأحد ظلامة أو يقبل من كاتب نصيحة . . وبقي (المقطعون) من غير تفتيش مما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة . ومن غير إشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العارة » (١) .

وهكذا زالت العناية بالزراعة في جميع أنحاء السواد ، وترك الزراع تحت طمع المقطعين ، واستغلال الضمناء .

والخلاصة فإن معز الدولة أراد إصلاح نظام الري وتحسينه ، والعناية بالأرض الخراب والمتروكة وزرعها . ومن ناحية أخرى أراد بهذه السياسة تكوين قطائع عسكرية تربط جنده بالأرض . فكانت النتيجة خراب نظام الري ودمار الزراعة لأن الحكومة المركزية عجزت عن السيطرة على الجند ، ولم تستطع إثبات سلطانها إلا سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م عند مجيء عضد الدولة .

وقبل الحديث عن سياسة عضد الدولة ، يلزمنا تحليل سياسة الحمدانيين في الجزيرة . لقد اتبع الحمدانيون في الفترة بين (٣١٧ - ٣٦٨ هـ / ٩٢٩ - ٩٧٨ م) في الجزيرة ، وخاصة في الموصل ونصيبين وبلد سياسة تهدف إلى تعبئة جميع الموارد المالية للبلاد في سبيل خدمة الأمراء . وربما كانت هذه السياسة من وحي الوضع الجغرافي للحمدانيين ، الذين كانوا محصورين بين البيزنطيين في الشمال الغربي ، وبين حكومة بغداد المعادية في الجنوب الشرقي .

وكان لسياسة ناصر الدولة وجهتان : الأولى أنه « استولى على الناحية (الموصل وأعمالها) ملكاً وملكاً » (٢) . وقد توصل إلى ذلك بطريقة القسود والمضايقة . فقد « كان رسمه أن يضايق أصحاب المعاملات من التتاء وأصحاب العقار من أهل البلد

(١) مسكويه ج ٢ ص ٩٨-٩٩

(٢) ن . م . ص ٣٨٤

وبخاشنهم ويتأول عليهم^(١) حتى يلجئهم إلى البيع ويشترى أملاكهم بأوكس (أي أنجس) الأثمان^(٢). وقد حاول بعض الملاكين التخلص من ظلمه بالهرب ولكنه صادر أراضيهم. وعلى كل حال، فما جاءت سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧ م حتى صارت أراضي الموصل وأكثر عمالاتها من ممتلكات الحمدانيين^(٣).

والوجهة الثانية، هي أن ناصر الدولة اتخذ تدبيراً يمكنه من الحصول على أكبر ربح من أراضيهم، بزرع مزروعات مربحة فيها. فقد زرع القطن والرز والسمسم والحنطة بدل البساتين^(٤). وأخذ من الزراع الأصليين في الحالات التي سمح لهم فيها بزرع أراضيهم ثلاثة أخماس الحاصل. وقد سار أخلاف ناصر الدولة بعده على هذه السياسة، التي أوصلت الزراع إلى حافة الدمار^(٥).

وهكذا يتضح أن مصلحة الزراع أهملت في الفترة بين ٣٣٤-٣٦٨هـ / ٩٤٥-٩٧٨ م وأشغلت الحكومة نفسها بسد حاجاتها المالية، بأي وسيلة كانت. فأهملت السدود والقنوات^(٦)، كما أن الفيضانات وجفاف بعض القنوات أدت إلى تخریب بعض أقسام السواد^(٧).

وفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧ م صار عضد الدولة سيد العراق. وفي الفترة التالية، بين ٣٦٧-٣٧٢هـ / ٩٧٧-٩٨٢ م، أظهرت الحكومة النية الحسنة، والقابليات الإدارية اللازمة التي اختفت منذ زمن معز الدولة. فقد استعادت الحكومة سلطتها في العراق

(١) أي يدعي عليهم ادعاء آت باطلة

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٨٤

(٣) نفس المصدر والصحيفة ٦ وابن حوقل ص ١٤٢ و ص ١٤٣ و ص ٢٢٠ والصولي ١٣١

(٤) ابن حوقل ص ١٤٢

(٥) يقول الصولي (سنة ٣٢٧/٩٣٨) عن الأراضي حول الموصل «إن هذه الناحية إنما عمرت بعناية بني حمدان بها، ونزلهم فيها، ولو قد صارت إلى غيرهم لصارت تراباً» ص ١٣١

انظر ابن حوقل ص ١٤٢

(٦) انظر مسكويه ج ٢ ص ٤٠٦، أبو شجاع ص ٦٨-٩، والذهبي (خط) ورقة ١٨ ب.

(٧) انظر بصورة خاصة مسكويه ج ٢ ص ٤٠٥-٤٠٦، وابن الأنبار ج ٨ ص ٥١٠

وأظهرت فهماً أحسن من قبل لحاجات البلاد ، وكان لها الخبرة اللازمة لتطبيق إصلاحاتها .

بدأ عضد الدولة إصلاحاته الزراعية سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م . وكانت غايته الأساسية إصلاح نظام الري ، وتحسين طرق الجباية . ففي بغداد اندفنت مجاري الكثير من القنوات التي تروي المدينة والأراضي المحيطة بها مثل نهر عيسى ونهر الدجاج ونهر مسجد الأنباريين ونهر القلايين ونهر طابق ونهر البراذن ، فأمر بحفرها وتنظيف مجاريها ^(١) . وكان لسنده يثيق السهيلة في النهروان قرب بغداد أهمية خاصة ^(٢) . كذلك أعاد القنوات التي أصابها الخراب في السواد ، وأعاد بناء كثير من السدود ، ومن القناطر التي على أفواه الأنهار بالآجر والجص والنورة ، وطالب الرعية بالعمارة « مطالبة رفيقة » وأكد عليهم العناية بمنشآت الري بصورة خاصة . ووضع الحراس لحراسة تلك المنشآت ليل نهار ^(٣) . ثم أنه وسع مجرى نهر بيان الذي يصل دجلة العوراء بدجيل الأهواز ^(٤) .

ووضع طريقة منتظمة للجبائية . ففي عهده « أمضيت للرعية الرسوم الصحيحة ، وحذفت عنها الزيادات والتأويلات » وأخر موعد جباية الخراج إلى النوروز المعنضي ليناسب موسم نضوج الغلات ^(٥) . كما أنه أخذ بيد الزراع وشجعهم على عرض مظالمهم وشكاويهم وحاول إجابتها ولو كانت ضد المقطعين العسكريين ^(٦) .

(١) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٦ ، والذهبي ورقة ١٨ ب .

(٢) أبو شجاع ص ٦٩

(٣) مسكويه ج ٨ ص ٤٠٦ - ٤٧ ابن الأثير ج ٨ ص ٥١٨ ، أبو شجاع ص ٦٩

(٤) يسمى الذهبي (ورقة ٦٠ أ) هذه القناة بـ (النهر المعنضي) . ويرى المقدسي أن عضد الدولة نفسه حفر هذه القناة ص ٤١٩ . انظر أيضاً pp. 308-9, p. 307, J. R. A. S. [1895]

(٥) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٧

(٦) نفس المصدر والصحيفة . انظر أبو شجاع ص ٤٧ - ٥٠

ولكن فترة الهدوء هذه وما صحبها من رفاه نسبي كانت قصيرة . فحين توفي عضد الدولة ، شجر النزاع بين الأمراء البويهيين ، ولم يكن لأحد منهم الوقت الكافي أو القابلية للسير بموجب سياسة سلفه القدير . يذكر ياقوت أنه في ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م سدّخر الملك بثقا في النهروان ^(١) . وفي سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م حفر أبو العباس ابن واصل قناة بين البصرة والأهواز بموازاة نهر بيان ^(٢) . أما فيما عدا ذلك ، فلا تحمل المصادر إلا أنباء الحراب والفقر . كما شهدت السنوات العشرة الأخيرة من القرن الرابع فيضائين جارفين ^(٣) .

وبمكنتنا الآن تلخيص ما مر . ففي القرن الرابع الهجري حاول الحكام القديرون والوزراء البعيدو النظر المحافظة على نظام الري في وضع حسن . وساعدوا الزراع المحتاجين بتسليفهم النقود والبذور . كما أنهم سعوا لوضع الجباية على أساس عادل ، وأكدوا بصورة خاصة على تأجيل مواعدها حتى موسم نضوج الغلات . وحاول الأمراء القديرون في العصر البويهي حماية الزراع من ظلم رجال الجيش .

وكانت الملكيات الخاصة هي النوع السائد من الأراضي قبل الفتح البويهي . أما الاقطاع فكان شأنه ثانوياً ، والنوع الشائع منه هو الاقطاع المدني ، أما بعد الفتح البويهي فشاع الاقطاع العسكري حتى غمر أنواع الملكية الأخرى .

ثالثاً — النظام الزراعي :

أ — كان نصيب القرية من التقدم الذي شمل المدن ضئيلاً ^(٤) . فلم يكن هناك تبدل يذكر في عنصر الفلاحين أو في الأساليب الزراعية . فسكان السواد

(١) ياقوت — معجم الأدباء ج ١ ص ٢٣٩

(٢) الذهبي ورقة ٦٠ أ ، وابن الاثير ج ٩ ص ١٣٠

(٣) انظر الصابي ص ٤٤٤ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١٥٩ .

(٤) زبدان : المدن ج ٩ ص ١٧٩

كانوا بالدرجة الأولى من النبط الذين أسلموا وكانوا يتكلمون بلغة عربية ركيكة ، ولكنهم تمسكوا في الغالب بتقاليدهم السابقة للإسلام ^(١) . وقد استقر بينهم بعض البدو من العرب وبذلك أصبحوا سواديين ^(٢) . ولكن كلمة النبط بقيت تطلق على عامة فلاحى السواد ^(٣) .

ولما فتح العرب السواد تركوا تنظيم القرية على ما كان عليه . فكان لكل قرية رئيس يدعى (دهقان) ، ويشغل أهالي القرية له . ثم ظهر بالتدريج ملاكون عرب جدد بجانب الدهاقين الذين هبطت منزلتهم الى مجرد جباة ^(٤) . وكما كفتهم لهم على هذه الخدمة ، أخذ الدهاقين يجبون من الزراع ضريبة إضافية تسمى (حق الدهقنة) كانت مبعثاً لكثير من التعدي والاساءة أحياناً ^(٥) .

وفي القرن الرابع ، صار الدهاقين بمنزلة الشيوخ والأشراف ^(٦) ، يستشارون عادة في مشا كل الري والأراضي الواقعة في مناطقهم ^(٧) . ويطلق على الزراع عادة اسم الأكرة والفلاحين ^(٨) .

وكان الملاكون ، باستثناء القليل منهم ، يعيشون في المدن ، ويتركون وكلاء عنهم في القرى ^(٩) . وكان ينتظر من الملاكين أحياناً جلب الفلاحين إلى أراضيهم

(١) التنوخي ج ٨ ص ١٠٠ ، المقدسي ص ١٠٨

(٢) مسكويه ج ٢ ص ١٦٠ هامش

(٣) ن . م . ص ٤٠٩-٤١٠

(٤) الخطيب البغدادي (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٢-١٣

(٥) التنوخي - الفر ج بعد الشدة ج ١ ص ٥٥

(٦) زيدان ج ٢ ص ١٨٢-٣ ، الصابي ٢٥٦-٧ ، البقوي ص ٢٧٣

(٧) الصابي ص ٢٥٦-٧

(٨) التنوخي ج ١ ص ٤ ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الثاني ص ٢٩٠-٢٩١

(٩) الصابي ص ٢١٦ ، الذهبي ، ورقة ١ ب (تحت سنة ٣٦٢ هـ) .

وتزويدهم بالذور وبالمساعدات المالية ^(١). وليس بين أيدينا ما يدلنا على حصة الفلاح من الانتاج ^(٢). وسنتفصل قليلا في وضع الفلاحين في الفصل الثالث.

ب - طرق الزراعة :

كانت طريقة المناوبة في الزراعة شائعة . فكان يزرع نصف الأرض ، ويترك الثاني دون زرع ^(٣). وكانت الأرض تحرث بالمحراث البسيط ، تجره الثيران ^(٤). « فلا مندوحة للفلاح من البقر » كما يقول الدمشقي ^(٥). ومن أدوات الفلاح آتشد المسحاة والسكر ، وكان يستعمل المنجل للحصاد ^(٦).

وكان للتسميد أهمية خاصة في الزراعة ^(٧). يقول الجاحظ : « إن كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزرع إلا بالزبل والسماد ^(٨) ». ويقترح ابن وحشية في كتابه « الفلاحة النبطية » أن خير وسيلة لتسميد البساتين هو أن يوضع السماد قرب جذور الاشجار ثم تروى بعد ذلك ^(٩). وكانوا يستعملون الرماد وفضلات البشر ، والبر والزبل للسماد ، وكان الزبل يباع بالحلل ^(١٠).

وكانت النخيل ، حسب قول ابن وحشية تزرع من الفسيل أو من النوى ،

(١) انظر القلقشندي ج ١٣ ص ١٢٣ وما بعدها ، وص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) يذكر الصابي ان ابن الفرات كتب الى وكيل في ضيعته « استكثر من غلة المقاسمة فانها لنا دون الاكار وتوسط في الشئ فانها لنا وللآكار وقال الصبيقي فانها للاكار دوننا » ص ٢١٦

(٣) الماوردي ص ١٦٧

(٤) الجاحظ - الدلائل ص ٢٨ ، رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢١٧

(٥) الاشارة الى محاسن التجاره ص ٣٨

(٦) التعلابي - خاص الخاص ص ١١٨ ، ياقوت - معجم الادباء ج ١ ص ٨٥ ، اخوان الصفا ج ١ ص ٢١٧

(٧) ابن وحشية « خط » ورقة ٧٢ ب

(٨) الجاحظ - الدلائل ص ٢٥

(٩) ابن وحشية ورقة ١٥٠ ، يؤيده ياقوت - معجم الادباء ج ٥ ص ٣٠٦

(١٠) ياقوت - معجم الادباء ج ٥ ص ٣٠٦ ، ابن وحشية ١٩ وما بعدها وورقة ٦٠

وانسب المواسم لذلك هو ما بين آذار وحزيران^(١). وكانت تلقيح النخيل يتم بواسطة فلاحين مختصين^(٢). وكانت الأشجار المثمرة تزرع من البذور أو من الاقلام ، ويرى ابن وحشية أن خير وسيلة للاسراع بنموها هو أن تعمس البذور أو أطراف الأقلام في الزيت^(٣).

وكنل على الأساليب الراقية للزرع الاصطناعي ، نذكر ما رواه الثعالبي من أن بنت ناصر الدولة ذهبت للحج عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ، وحملت معها على ظهور الجمال أواني فخار زرعت فيها الخضروات^(٤).

لم يكن للفلاحين وسيلة لمكافحة الجراد والأوبئة التي تهدد مزارعهم . وكان البلاء الأكبر من الجراد ، فقد أضر كثيراً بالزروع في السنوات ٣١١هـ^(٥) و ٣٤٦هـ^(٦) و ٣٤٨هـ^(٧) و ٣٥١هـ^(٨) و ٣٩٣هـ^(٩) و ٤٠١هـ^(١٠). وكان الفلاح مكتوف الأيدي تجاه الجراد . ولا نسمع عن مكافحة فعلية للجراد إلا في سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م ، حين حاول الفلاحون دفعه عن المزارعات بالطبول والأبواق^(١١). ولا ندري فيما إذا حاولوا طريقة أخرى أكثر أثراً من الناحية العملية ، وهي قتل الجراد قبل أن يستطيع الطيران ، كما كان يعمل في الأندلس^(١٢).

(١) ابن وحشية ورقة ٤٥ ب

(٢) ن. م. م. ورقة ٤٧ ب - ٤٨ أ

(٣) ن. م. م. ورقة ٥ ب

(٤) الثعالبي - لطائف المعارف ص ٥٥

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٦

(٦) ابن العبري «س» ص ١٦٥

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٣ - ٤

(٨) ابن العبري «س» ص ١٦٧

(٩) ن. م. م. ص ١٨٣

(١٠) ن. م. م. ص ١٨٥

(١١) ن. م. م. ص ١٨٥

(١٢) عريب بن سعيد «باعتناء دوزي» ص ٤٦

ولم تكن خطورة الحشرات كبيرة . ففي سنة ٥٣٣٤ هـ ، هددت الحشرات المزارع والحدائق ، إلا أن طيراً من الطيور أكلها وأخذ الزروع ^(١) . ويقترح ابن وحشية بعض الأدوية لأمراض الأشجار ، وليس ما يدل على أن أحداً استعملها بصورة جدية . وكان الزراع يستخدمون الأطفال لافزع الطيور وابعادها عن الزرع .

ج - وسائل الري :

كانت الحكومة تشرف على توزيع المياه ، وكانت مسؤولة بالدرجة الأولى عن إنشاء القنوات والسدود وخزانات المياه والمنشآت . وكانت تستخدم لذلك الغرض عدداً كبيراً من المهندسين ^(٢) .

وكانت المزارع تسقى سيقاً أو بواسطة الآلات الرافعة . وأكثر هذه الآلات شيوعاً هي : الدالية ، والناعورة ، والدولاب . فالدالية هي دولاب يديره نور أو بقرة ، والناعورة هي دولاب يديره تيار النهر ^(٣) ، أما الدولاب فكان أكثر الثلاثة تعقيداً يديره حصان أو نور ^(٤) .

وكانت النواوير تستعمل في منطقة النهروان ^(٥) ، وفي غرب بغداد ^(٦) . وكانت الدواليب تستعمل في الجانب الغربي من بغداد لري الحدائق ^(٧) ، وفي المنطقة السكّانة بين بغداد والانبّار حيث كان الأهليون أحياناً يستعملون الجمال لتدويرها ^(٨) .

(١) ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٢١ ب (خط)

(٢) انظر الصابي ص ٢٥٦-٧

(٣) Lane, Dict. b. I. pt. 3. p. 904

(٤) ibid p. 902 وانظر النويري - ج ١ ص ٢٨٨ و ٢٨٩ ، والخوارزمي ص ٧٠-٧١

(٥) ابن رسته ص ١٦٣

(٦) ابن الجوزي ، تليس ابليس ص ٢٠٤

(٧) ابن الجوزي - مناقب بغداد ص ٢٧ ، التما لي - بقيمة الدهر ج ٢ ص ١٢

(٨) التتوخي ج ٨ ص ١٣٩

وكانت مزارع حران تسقى من الآبار ^(١) ، ويحتمل أن الماء كان يرفع بالزرايق وهي ضرب من الدلاء ^(٢) .

وفي كثير من أنحاء العراق كانت المزارع تسقى سيجاً . وقد شق عضد الدولة قنوات صغيرة من نهر الخالص ليسقي حدائقه في الجانب الشرقي من بغداد ^(٣) . وبنيت « القناطر » على كثير من أفواه القنوات لتنظيم توزيع الماء ورفع مستواه في القنوات الفرعية لتسهيل السقي سيجاً . وكانت هذه القناطر تبنى عادة بالحص والنورة والآجر ^(٤) .

أما في منطقة البطيحة ، فقد كان الماء ضحلاً ومناسباً لزراعة الرز ^(٥) . وكانت السداد تبنى من الطين والقصب لاستخلاص بعض الأراضي من الماء ، أو ل إيقاف الماء عند فيضانه من غمر حقولها ^(٦) .

وكان لمنطقة البصرة نظام خاص للري . فقد كان فيها شبكة من القنوات تأخذ ماءها نتيجة دفع مياه المد التي تدخلها مرتين كل أربع وعشرين ساعة ، فتروي الحقول والبساتين المحيطة بها بصورة ميكانيكية ^(٧) .

وكان الري من مياه العيون متبعاً في الجزيرة . فقد كان في مدينة رأس العين ثلثمائة وستين عيناً للماء العذب يستفاد منها في ري البساتين ^(٨) . وكانت حقول وبساتين نصيبين تروى من عين ماء في التلال المجاورة ^(٩) .

(١) المقدسي ص ١٤١

(٢) Mez p. 451

(٣) الخطيب البغدادي ص ٥٩

(٤) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٧

(٥) المقدسي ص ١١٩

(٦) مسكويه ج ٢ ص ٢٩٧

(٧) المقدسي ص ١٢٥ ، والاصطخري ص ٨١

(٨) المقدسي ص ١٤٠

(٩) الاصطخري ص ٧٢-٧٣

وكانت الأمطار مهمة للزراعة في منطقة الجزيرة ، وكان موسمها بين تشرين الأول ونيسان ^(١) . ويذكر الجاحظ أن حقولا واسعة في البراري وعلى سفوح الجبال كانت تعتمد على مياه المطر وتقل غلة كبيرة ^(٢) . وكان لنصيبين حقولا واسعة تربوها مياه الأمطار ^(٣) . وبلغت أهمية المطر درجة أن تأخر نزوله سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م وسنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م أدى في الحالتين إلى حصول غلاء ^(٤) .

د - مناطق الزراعة :

اقتصرت الزراعة في الجنوب على الأراضي المحيطة بالأنهار والممتدة على ضفاف القنوات ، أما في الشمال فكانت المزارع مجاورة للضفاف ، أو في الأماكن التي يكثر فيها نزول الأمطار . وقد اعتمدت كثافة المزروعات على وفرة المياه وعلى مجال الاستفادة منها .

ولهذا كانت الأراضي المحيطة بالبصرة والأراضي الواقعة بين دجلة والفرات إلى الجنوب من بغداد أكثف المناطق بالمزروعات ^(٥) . وتقل كثافة الزروع كلما اقتربنا من الصحراء ^(٦) .

وكانت بساتين النخيل في منطقة البصرة تمتد من عبدسي إلى عبادان ، على مسافة تتجاوز الخمسين فرسخاً ^(٧) . وكانت حدائق نهر الأبله الذي يبلغ طوله أربعة فراسخ جميلة وفسيحة لدرجة أن منطقة الأبله كانت تعتبر إحدى جنات الدنيا الأربع ^(٨) .

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٨٢

(٢) الجاحظ - الدلائل والاعتبار ص ١٧

(٣) الاصطخري ص ٧٢-٧٣

(٤) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٢ ج ٩ ص ٣٩

(٥) الاصطخري ص ٨٠ ، وص ٨٥ ، ابن حوقل ص ٢٤٣

(٦) الاصطخري ص ٨٢ ، وابن حوقل ص ٢٣٩

(٧) الاصطخري ص ٨١ ، ابن حوقل ص ٢٣٦

(٨) المقدسي ص ٥٣ ، الاصطخري ص ٨١ ، N-kh. p. 235 and p. 243 off

وكانت على ضفاف نهر معقل جنات فسيحة وحقول غناء^(١). هذا مع أن المنطقة الخصبة حول البصرة كانت ضيقة لأن الصحراء العربية تكاد تصل نهاية نهر الابل^(٢).

وتقع منطقة البطيحة شمال منطقة البصرة ، وكانت الزراعة هناك تقتصر على الأماكن الضحلة والبقع اليابسة في الأهوار . وقد جعلتها كثرة المياه وحرارة الجو منطقة ممتازة لزراعة الرز^(٣) . وكانت بعض مزارع البطيحة مجاورة لريف وأسط . وتكثر في واسط بساتين النخيل الواسعة ، والحداثق ، والحقول الفسيحة^(٤) . ويذكر ابن جبير أن الجهة الشرقية للقرات ، بجوار الكوفة ، كثيفة البساتين^(٥) . وإلى غرب القرات تمتد المزارع وبساتين النخيل حتى الخيرة والقادسية على حدود الصحراء^(٦) .

وبين الاصطخري أن الأراضي بين بغداد في الشمال والكوفة في الجنوب ودجلة في الشرق والقرات في الغرب كانت كثيفة الزروع لدرجة يصعب معها التمييز بين المزارع المختلفة^(٧) . وكانت عامرة بالمدن والقرى ، ومن أهمها (قصر ابن هيرة^(٨)) .

وكان طسوج بادوريا من أهم طساسيج بغداد وأغناها بالمزارع . وفيه ضياع خاصة للامراء والوزراء والقواد^(٩) . وتتمتع بادوريا بمزايا خاصة ، إذ تجمع

(١) ابن حوقل ص ٢٣٧

(٢) N-kh. p. 235

(٣) المقدسي ص ١١٩ ، قرن اخوان الصفا ج ٢ ص ١٣٧

(٤) المقدسي ص ١١٨-١١٩ ، الاصطخري ص ٨٢

(٥) ابن جبير ص ٢١٢-٢١٣

(٦) الاصطخري ص ٨٢ ، ابن حوقل ص ٢٣٩

(٧) الاصطخري ص ٨٥ ، ابن حوقل ص ٢٤٣

(٨) ابن حوقل ص ٢٤٣ .

(٩) التنوخي ج ٨ ص ١٦-١٧ والصاهبي ص ٢٦

بين الخصوبة والري المنظم والقرب من العاصمة . وإلى الغرب من بادوريا ، على
الفرات ، تقع الأنبار ، التي يدل اسمها (المخزن) على خصوبتها ، إلا أن الزراعة فيها
تدهورت في القرن الرابع الهجري (١) .

وتقل المزروعات إلى الشرق من النهروان على الطريق إلى الدسكرة . أما
وراء الدسكرة حتى حلوان ، فكانت الأرض قاحلة ، باستثناء حلوان نفسها فقد
كانت تحيطها الحدائق (٢) .

وهناك نطاق أخضر من الزروع يبلغ عرضه بضعة أميال ، يمتد على الضفة
الشرقية لدجلة ، بين تكريت في الشمال وواسط في الجنوب ، وتوجد المراعي
شرقه . أما الأرض بين تكريت والأنبار فكانت ، باستثناء ضفاف الأنهار ،
قاحلة (٣) .

ونشطت الزراعة في منطقة الجزيرة على ضفاف النهرين وروافدها . وكانت
الزروع كثيفة في منطقة الخابور ، حول مدينة الخابور وعلى ضفتي نهر الخابور (٤) .
وامتدت بساكنين وحقول مدينة رأس العين على أرض واسعة يبلغ طولها حوالي عشرين
فرسخاً (٥) . وكانت عامة مدن الجزيرة محاطة بمزارع واسعة (٦) .

ولقد كانت الزراعة تعتمد على الاستقرار السياسي . وهذا ابن حوقل يندب
خراب بعض الأراضي في الجزيرة ، قرب الحدود البيزنطية خاصة ، نتيجة الغزوات
والحروب المستمرة مع البيزنطيين (٧) .

(١) ابن حوقل ص ٢٢٧

(٢) المقدسي ص ١٢٣

(٣) الاصطخري ص ٨٥ و ص ٨٨ ، والمقدسي ص ١٢٢ ، ابن حوقل ص ٢٤٦ - ٢٤٧

(٤) المقدسي ص ١٤١ ، الاصطخري ص ٧٤

(٥) ابن حوقل ص ٢٢٢ ، المقدسي ص ١٤٠

(٦) المقدسي ص ١٣٩ و ص ١٤١ ، ابن حوقل ص ٢٢٣

(٧) ابن حوقل ص ٢٣٠ و ص ٢٢٣

٥ - المحاصيل الزراعية ومناطقها

كانت الحنطة والشعير والتمر والرز ، أهم المحاصيل الزراعية في البلاد . وهناك حاصلات أخرى من الحبوب والفواكه ، ولكن أهميتها ثانوية بين المنتوجات الزراعية .

وكانت منطقة البصرة أهم مركز لزراعة النخيل في العراق ، وكانت تنتج أنواعاً مختلفة من التمر لا مثيل لها في أي مكان . فيذكر ابن وحشية أن أنواع التمر العراقية لا تحصى^(١) ، بينما يقول الجاحظ أن مدينة البصرة تنتج ثلاثمائة نوع من التمر^(٢) . وكانت النخيل تزرع في السواد وتمتد زراعتها غرباً حتى القادسية^(٣) ، وشمالاً حتى الأنبار وهيت^(٤) . وكان الرطب العراقي يتمتع بشهرة واسعة^(٥) . وكانت توجد بعض بساتين النخيل بجوار سنجار ، أما عدا ذلك فلا توجد نخيل في الجزيرة .

وكانت الحنطة والشعير تزرع في كافة أنحاء العراق . ويظهر من جرائد الواردات في ابن خردادبة وقدامة ، أن الحنطة والشعير كانت تزرع في كل طسوج من طساسيج السواد ، باستثناء منطقة البطيحة ، وأن خراج السواد كان يدفع على الأغلب حنطة وشعيراً^(٦) . ويذكر قدامة أن زراع السواد كانوا يدفعون في الخراج ١٧٧٢٠٠ كراً^(٧) حنطة ، و ٩٩٧٢٢٢ كراً شعير سنوياً^(٨) . وكانت

(١) ابن وحشية (خط) ورقة ٤٥ أ

(٢) ابن الفقيه ص ٢٥٣

(٣) الاصلطخري ص ٨٣ ، ابن حوقل ص ٢٤٠

(٤) الاصلطخري ص ٧٣

(٥) الزويري ج ١ ص ٣٦٩ - ٣٧١ ، النعماني : لطائف المعارف ص ١٣٢ ، المقدسي ص ١١٨

(٦) ابن خردادبة ص ٨ - ١٤ ، قدامة ص ٢٣٧ - ٢٣٩

(٧) يبلغ وزن السكر المعدل حوالي ٣٣٠ كيلو غراماً

(٨) قدامة ص ٢٣٩

منطقة واسط مركزاً هاماً لزراعة الشعير ^(١) . وتزرع الحنطة والشعير بكثرة في الجزيرة وخاصة حول الموصل ^(٢) . لذا كانت الجزيرة الخزن الذي يمون العراق ، لاسيما بغداد بالحبوب ، في أوقات الشدة خاصة ^(٣) .

وتعهد ضامن ضرائب منطقة واسط سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م بعشرة آلاف كر من الرز في جملة ما يدفع للحكومة ^(٤) . ويشير التنوخي إلى حقول الرز في الأراضي المنخفضة والأهوار قرب الكوفة ، وعلى قنوات الفرات السفلى مثل سورا ونهر الصراة ونهر النيل ، ويشير إلى حقول أخرى في منطقة جبّل على دجلة ، وخمن حصة الحكومة من الرز الحاصل من السيين وقسين وجبّل بحوالي ثلاثة آلاف كر ^(٥) . هذا وكان الرز يزرع في منطقة البطيحة ^(٦) . أما في الجزيرة فلا يوجد ما يدل على توفر زراعته في أي جزء منها .

واليك أسماء المناطق التي كانت تدفع الرز جزء من خراجها ، حسب ما نجده في جريدة ابن خرداذبه .

(١) سورا وبار بسما أي الأراضي التي تمتد الى الجنوب والجنوب الغربي من نهر كوثي . (٢) فرات بادقلى . (٣) نستر . (٤) كسكر ، وهي تمتد شرق نهر دجلة من كوت العمارة الى ملتقى دجلة بالفرات . وتستعمل هذه الكلمة أحياناً مرادفة لكلمة ميسان ^(٧) .

أما الاشارات إلى الحبوب الأخرى فضئيلة . ومنها السمس ، ويذكر المقدسي أن

(١) مسكويه ج ١ ص ٢٩٤

(٢) المقدسي ص ١٤٥ ، ابن حوقل ص ٢١٦

(٣) المقدسي ص ١٣٦

(٤) مسكويه ج ١ ص ٢٩٤

(٥) التنوخي ج ٨ ص ٦٧

(٦) المقدسي ص ١١٩ ، اخوان الصفا ج ٢ ص ١٣٧

(٧) ابن خرداذبه ص ٨ - ١٤

تكريت كانت مركز زراعته^(١). ويروى أن ضامن ضرائب واسط لسنة ٣٢٢ هـ تعهد بدفع ٤٠٠ كر من السمس سنوياً^(٢) مما يدل على أنه كان يزرع في السواد. وكانت الذرة والمماش والعفس تزرع أيضاً^(٣).

وكانت زراعة القواكه منتشرة في مختلف الجهات. ويظهر أن العنب كان يزرع بكثرة، حتى أن عمر بن الخطاب رأى من الضروري تخصيص الخراج الذي يؤخذ من الأغراب لوفرتها^(٤). وكانت تزرع أنواع متعددة من العنب^(٥)، ومنها الرازي الذي أدخله العرب إلى العراق من الطائف^(٦). وهناك أنواع مشهورة تنسب إلى محلات معروفة في العراق مثل أعناب (عكبرا) و (دير العاقول) و (معلثايا) و (سروج) و (حلوان)^(٧) و (بغداد)^(٨).

وأدخلت أشجار البرتقال والليمون إلى العراق لأول مرة في القرن الرابع الهجري. إذ تفهم من السعودي أنها جلبت من الهند بعد سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م إلى عمان، ومن هناك جلبت إلى البصرة ثم إلى أنحاء العراق^(٩). وكان القاهر يحب أشجار البرتقال فغرسها في حدائق قصره^(١٠). وكانت البصرة مشهورة بجودة برتقالها وليمونها^(١١)، ولكن يظهر أن البرتقال والليمون كان لا يزال قليلاً في القرن الرابع الهجري^(١٢).

(١) المقدسي ص ١٢٣

(٢) مسكويه ج ١ ص ٢٩٤

(٣) ابن خرداذبه ص ١٤ ، الجاحظ : الدلائل ص ١٩ ، اخوان الصفا ج ٢ ص ١٣٨

(٤) الماوردي ص ١٦٨

(٥) ابن الفقيه ص ١٢٥

(٦) Mez p. 432

(٧) المقدسي ص ١٢٢ و ص ١٢٣ و ص ١٢٥ ، ابن حوقل ص ٢٣٠

(٨) النويري ج ١ ص ٣٧١ ، الثعالي : لطائف المعارف ص ١٣٣

(٩) السعودي ج ٢ ص ٤٣٨

(١٠) ن. م. ج ٨ ص ٣٦٦

(١١) المقدسي ص ١٤٥ ، النويري ج ١ ص ٣٧١ ، الثعالي : يقيعة الدهر ج ٢ ص ١٣٠-١٣١

(١٢) Mez p. 432-3

وكان لرمان سنجار شهرة خاصة ^(١) . وكان الخوخ يزرع في البصرة ^(٢) . واشتهرت الرحبة وسنجار بزيتونها ^(٣) . وهناك نوع ممتاز من السفرجل يزرع في الرحبة ^(٤) . وكان تين حلوان مضرب المثل ^(٥) . أما الرقى والبطيخ فكانت من الفواكه المحبوبة ، وكانت سوق الفواكه تسمى عادة « دار البطيخ » ^(٦) . هذا وكان الأجاص والمشمش واللوز والجوز والبطيخ والبوط والسماق يزرع في العراق ^(٧) .

وكان القطن من الحاصلات المهمة خاصة في منطقة الخابور . وكانت (عربان) تصدر القطن إلى الموصل وإلى أنحاء أخرى من العراق ^(٨) . ومن المراكز المهمة الأخرى لزراعة القطن مجدل ورأس العين ^(٩) وحرات في الجزيرة ، و**البصرة** في **السود** ^(١٠) . وهكذا كان القطن يزرع في **السود** وفي الجزيرة .

وكان قصب السكر يزرع حوالي **البصرة** وفي **سنجار** ^(١١) . ويحتمل أنه كان يزرع في البطيحة ^(١٢) . ويخبرنا الثعالبي أن قصب السكر كان ينتج بوفرة في العراق ^(١٣) .

(١) ابن حوقل ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، الثعالبي : لطائف المعارف ص ١٣٣

(٢) الجاحظ : البخل ص ٢٠١

(٣) المقدسي ص ١٤١ ، ابن حوقل ص ٢٢٠ - ٢٢١

(٤) المقدسي ص ١٤٥

(٥) ن. م. ص ١٢٣ ، النوري ج ١ ص ٣٧١ ، الثعالبي : لطائف المعارف ص ١٣٣

(٦) مسكويه ج ٣ ص ٥١ ، الجاحظ : الدلائل ص ٢٣ ، Mez p. 437

(٧) اخوان الصفا ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤١ ، ابن حوقل ص ٢٢٧ و ٢٣٠ - ٢٣١

(٨) الاصطخري ص ٧٤ ، ابن حوقل ص ٢٢٢

(٩) الاصطخري ص ٧٤

(١٠) المقدسي ص ١١٨ و ص ١٤١

(١١) الماوردي ص ١٦٨ ، الثعالبي : بتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣١ ، البيهقي ص ٦٢٣ ، المقدسي ص ١٤٥

(١٢) انظر اخوان الصفا ج ٢ ص ١٣٧

(١٣) الثعالبي : لطائف المعارف ص ١٠٧

وكانت معلّثا تصدر القنب . وكان القت يزرع بصورة خاصة في القادسية
 ويستفاد منه لاطعام جمال ورواحل الحجاج ^(١) .
 وكانت الخضر تزرع في العراق ، وتورد الإشارة إلى القرع والقثاء ^(٢) ،
 والفاصولية ^(٣) ، والباقلاء ، والبزاليا ^(٤) ، والجزر ، والباذنجان ، والقرنبيط
 والسلغم ^(٥) ، والفجل ^(٦) .
 وكانت تزرع أنواع الأزهار والرياحين ، مثل الترجس والياسمين والورد
الجوري ، والقرقل ^(٧) .

-
- (١) ابن حوقل ص ٢٤٠
 (٢) الجاحظ : الدلائل ص ٢٣
 (٣) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ٢٢١ ، الثعالي : بقيمة الدهرج ٢ ص ١٤٠
 (٤) الجاحظ : الدلائل ص ١٩
 (٥) اخوان الصفا ج ٢ ص ١٣٨
 (٦) الجاحظ : البخل ص ٢٤١
 (٧) حكاية أبي القاسم البغدادى ص ٨٩ ، اليعقوبي ص ٢٦٤ ، النويري ص ٣٧١

الفصل الثالث

الصناعة

خطة الفصل

١ - العمل :

أ - أصناف العمال :

(١) العمال الأحرار - في المدن والمزارع

(٢) الرقيق

١ - طريقة الحصول على الرقيق .

٢ - حقوق عمالهم : الخدمة المنزلية ، الحراسة والجندية ، الزراعة ، حالة الاقنان .

ب - حركة العمال :

(١) أسبابها : ظهور طبقة رأسمالية ، تركيز العمل ، الدعايات .

(٢) بدء حركة العمال في القرن الثالث الهجري .

(٣) حركة العمال في القرن الرابع الهجري :

١ - معنى ثورة الزنج (٨٦٩ - ٨٨٣ م)

٢ - حركة القرامطة : اتباعها ، المبادئ التي دعت اليها ، اشتراكية حمدان العملية ،

نهاية الحركة في العراق .

٣ - اخوان الصفا ودعائهم .

٤ - خاتمة .

ج - تفطيمات العمال :

(١) روح التكتل عند العمال .

(٢) الأصناف .

(٣) منظمات العمال - البوادر الأولى - العيارون والشطار وتنظيمهم المهد لنشوء الفتوة .

(٤) نظرة الدولة لأصحاب المهن .

٢ - الصنائع والمهن :

أ - تصنيف اخوان الصفا لأصحاب المهن :

(١) حسب الفائدة .

(٢) حسب المواد الأولية .

(٣) حسب الانتاج .

(٤) حسب الأدوات .

ب — الصناعات :

- (١) الحياكة : النسيج ، السجاد ، الطراز ، الخيم ، الخمر .
- (٢) الصباغة .
- (٣) الخزف .
- (٤) الزجاج .
- (٥) الصياغة
- (٦) صناعة المعادن
- (٧) النجالة
- (٨) صناعة الصابون والزيوت والعمود
- (٩) الدباغة وصناعة الجلود
- (١٠) منتجات أخرى .

١ - العمل

كان في العراق صنفان رئيسيان من العمال : الأحرار ، والرقيق . فالعمال الأحرار كانوا يعيشون في المدن أو يسكنون في الريف . ففي المدن كانوا يكونون عامة أصحاب الصناعات . ويقرب منهم في الواقع أصحاب الحوانيت والبيوعات البسيطة كالبقالين والزياتين والقصابين . ويطلق على هؤلاء بمجموعهم اسم « العامة » . ومع أن أكثرهم كان من غير العرب ، أي من « الموالي » إلا أنه لم يكن تمييز عنصري فيما بينهم^(١) . وكان العامة في بغداد خليطاً من أجناس مختلفة ، إذ أن فيهم الفرس والترك والزوج والديلمة ، والروم ، والنبط ، والأرمن ، والكرج ، والسلاف ، والأكراد ، والبربر ، والعرب ، وتربطهم جميعاً اللغة العربية التي كانوا يتكلمون بها^(٢) . وكان الفلاحون في القرى في صنف الأحرار نظرياً ، إلا أنهم في الواقع لم يكونوا دائماً كذلك^(٣) . وكانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من الشعب ويتكلمون الآرامية مع العربية^(٤) .

(١) Massignon - Enquête p. 42

(٢) زبدان : التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٤٥

(٣) النظر مسكوبه ج ٢ ص ٩٧ ، طيفور : تاريخ بغداد ص ٧٣

(٤) زبدان : التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٤٤ ، E. L. Nabateans

وكان أصحاب الحرف يكونون عادة أوطأ طبقة بين الأحرار^(١). ويظهر أن واردهم المالي كان يكفي لضروريات عيشهم فقط. وخير تقدير لحالتهم الاقتصادية قول أبي الفضل الدمشقي « وأما الصنائع العملية ، وهي المهن ، فقد قيل قديماً الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى . وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بد له منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة . وأيضاً فإنه مع ذلك إذا ميز الناس دخل في أدون طبقاتهم »^(٢).

وكان فلاحو السواد فقراء جداً^(٣). يقول المقدسي في معيشة أهل البطيحة : « عيش ضيق ، أدامهم السمك ، وماؤهم حميم » . ثم يصف النظرة الاجتماعية إليهم فيقول : « وعقلهم سخيّف ولسانهم قبيح »^(٤).

الطبقة الثانية من العمال ، هي طبقة العبد التي تعتبر أوطأ من طبقة العمال الأحرار . ويحصل على العبد بالطرق التالية :

أ - بطريق الحرب . فإذا فتحت بلدة ، جاز للمسلمين أن يسترقوا سكانها^(٥). كما أنه يحق للإمام إذا شاء أن يسترق الأسرى^(٦). وفي القرن الرابع الهجري ، تضاهل مجال توسع الاسلام عسكرياً ، وزال تقريباً مجال الحصول على الرقيق عن طريق الفتوحات^(٧).

ب - وكان بعض الولاة يرسل الرقيق ضمن الواردات . فمثلاً اعتاد بعض البربر

(١) الدمشقي - الإشارة الى محاسن التجارة ص ٤٣

(٢) الدمشقي ص ٤٣

(٣) انظر تفصيل ذلك في الفصل الخاص بـ « مستوى المعيشة » .

(٤) المقدسي ص ١١٩

(٥) زبدان - التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٤٢

(٦) ن . م . ج ٤ ص ٤٣ ، Mez p. 166 . ويحق للإمام بالإضافة الى ذلك : ١ - قتل الأسرى

٢ - قبول الفدية ٣ - العفو .

(٧) يذكر أنه بعد فتح المعتصم للعمورية نوّدي على الأسرى للبيس ، خمسة خمسة وستة ستة ، لكثر عددهم .

أن يقدموا أطفالهم بديل الجزية ^(١). وكان عبدالله بن طاهر ، أمير خراسان (٨٢٨ - ٨٤٤ م) يرسل إلى الخليفة ألفين من الأتراك الغزية سنوياً ^(٢).

ج - طريق الشراء ، وكانت هذه هي الوسيلة الرئيسية للحصول على الرقيق في القرن الرابع الهجري . وكانت توجد تجارة واسعة للرقيق ، وكان في أكثر المدن الرئيسية أسواقاً خاصة لبيع الرقيق ^(٣). واعتاد بعض التجار أن ينظموا حملات خاصة للحصول على الرقيق ^(٤).

وكانوا يحصلون على الرقيق من الجنسين ، سوداً وبيضاً . فالرقيق الأسود يجلب من الحبشة والسودان ، عن طريق مصر ، ^(٥) أو من زنجبار بطريق البحر ^(٦). ويصف مؤلف حدود العالم بلاد السودان - وهي البلاد الواقعة بين النيل والمحيط الأطلسي - بأنها « البلاد التي يأتي منها الخصيان . فالتجار يسرقون أطفالهم . . ويخصونهم ثم يجلبونهم إلى مصر للبيع » ^(٧).

وبين الرقيق الأبيض الروم ، والكرج ، والأرمن ، إلا أن أكثرهم من الترك والسلاف (الصقالبة) ^(٨). فالترك ، سيما الخزر ، وبعض السلاف كانوا يجلبون عن طريق خوارزم . وكانت سمرقند السوق الأعظم والمركز الرئيسي

(١) زيدان ج ٤ ص ٤٣ .

(٢) ابن خردادبه ص ٣٩

(٣) البیهقي ص ٦١٦ ، رسائل الصابي ج ١ الرسالة الأولى والثالثة . ويصف اليمقوني (البلدان ص ٢٦٠) سوق الرقيق في أسـر من رأى ، التي بنيت في القرن الثالث الهجري ، قائلاً : « وسوق الرقيق في سرمة فيها طرق متشعبة فيها الحجر والغرف والخوانيت للرقيق » .

(٤) E. I. art Zanj, H. A. P. 165

(٥) زيدان : التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٣٩ ، Mez p. 157 H. A. P. 169

Noldeke : Sketches p 169

(٦) الروزي ص ٥٤

(٧) H. A. p. 169

(٨) زيدان ج ٥ ص ٣٩ ، ابن حوقل ص ٤٨٢ ، ٩٤ ، Mez p. 158

لتدريهم^(١). ومن صادرات مدينة بلغار - وهي عاصمة البلغار الذين يسكنون على نهر القولسكا - الرقيق الذين يؤخذون إلى خوارزم وإلى جهات جيحون^(٢). ويجلب من خراسان رقيق أبيض غالي الأثمان ، يصل سعر الواحد منه إلى خمسة آلاف دينار^(٣). أما الرقيق الأوربي فأكثره من أهالي شرقي أوربا ، ويجلب عادة عن طريق المانبا إلى الاندلس ومنها إلى موافي البحر الأبيض المتوسط^(٤).

د - وكان أبناء الاماء يعتبرون رقيقاً إذا كان الأب عبداً ، أو كان حراً ولم يكن ملكاً للامة ، أو إذا كان مالكا للام ولم يعترف بابوة الطفل^(٥).

وكان الرقيق ، بصورة عامة ، يستخدمون في المهن التالية :

أ - في خدمة البيوت ، وذلك بعد شيء من التدريب . فكان منهم الطباخون ، والخزانون ، والبوابون ، والملاحون في القوارب ، وسوا من الخيل ، وحتى أمناء في المكتبات الخاصة^(٦). وكان الخصيان يقومون بحراسة الحرم وخدمتهن^(٧).

ب - واستخدم بعضهم في أعمال أدبية كالغناء والقاء الشعر وحفظ القرآن والحديث وتلاوتها^(٨). ولما كان المجتمع كثير التقدير للشعر والغناء ، فقد كان الطلب عالياً على ذوي المواهب الفنية من الرقيق . لذا كان النخاسون (تجار الرقيق) يقومون بتعليم الغلمان والجواري ، فنون الشعر والموسيقى ويربحون من وراء ذلك أرباحاً

(١) زيدان ج ٥ ص ٣٩ ، ابن حوقل ص ٤٨٢ و ص ٤٩٤ .

(٢) Mez p. 159

(٣) زيدان ج ٥ ص ١٣٩

(٤) ن . م . و . Mez p. 159

(٥) انظر Mez, add. note p. 166

(٦) البيهقي ص ٦١٣ ، زيدان - مختارات ، ج ٢ ص ١٠٤ ، حكاية أبي القاسم ص ١٠١ ،

Mez p. 165

(٧) البيهقي ص ٦٠٩

(٨) انظر زيدان - التمدن ج ٤ ص ٤٤

طائلة (١) . وقد كان أكثر المغنين في بغداد سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م من الرقيق (٢) .
ج - وهناك عدد كبير من الرقيق يستخدم حرساً خاصاً أو يدرب للجيش . فقد
استخدم المقتدر أحد عشر ألف مملوك في قصره (٣) . وكان في الجيش فرق كاملة
من المالك (٤) .

د - وهناك العبيد الذين يشتغلون في الحقول . وهؤلاء كانوا على قسمين :
فالقسم الأول عبيد لا حقوق لهم مطلقاً ، كالزنج الذين كانوا يشتغلون في بطيحة
البصرة وفي بساتينها (٥) . وتحدث ربيعة الرأي عن العبيد الذين يشتغلون في فلاحه
الأرض ويعاملون كالمال (٦) . واستخدم بعض الرقيق في الرعي (٧) .

والقسم الثاني هم الاقنان الذين كانوا يعيشون في القرى ويعتبرون جزء من
الأرض . وكان هؤلاء في الأصل من الفلاحين النبط الأحرار ، وليس لهم ما يملكون
إلا مقدرتهم على العمل . وعند ما تنتقل ملكية الأراضي التي يشتغلون عليها ، سواء
أكان ذلك بالفتح أو بالشراء ، كانوا يبقون على الأرض ، وكان يعتبرهم السادة الجدد
جزء من ملكيتهم الجديدة ويعاملونهم معاملة العبيد . وقد حصل هذا قبل الاسلام ،
وجاء الاسلام فألغى الفوارق الطبقية بين المغلوبين ، وحرر العبيد نظرياً ، إلا أن قسماً
منهم بقوا عبيداً في الواقع (٨) . وربما أمكن اعتبار الزط الذين جاء بهم الحجاج من

(١) الاغانى ج ١٢ ص ٤٣

(٢) حكاية ابي القاسم ص ٨٧ ، انظر زبدان ج ٤ ص ٣٣ — ٣٨

(٣) الخطيب البغدادي ج ١ ص ٥١

(٤) الصابي ص ١١ وما يليها . يذكر الصابي فرقة من الزنج كونها الموفق ، واخرى من العبيد كونها
المعتضد ، ص ١٢ .

(٥) الطبري ص ١١١ ص ١٧٤٢

(٦) ربيعة الرأي ص ١٧

(٧) البيهقي ص ١١٣

(٨) يذكر ابو القاسم البغدادي « انباط القرى وعبيدها » . ويقول شريك ، وهو فقيه : « اهل
السواء ارقاء » - اختلاف الفقهاء للطبري ص ٢٢٢

السند من الأفتان (١). ولم يكن بالإمكان تحرير الأفتان أو بيعهم ، لأنهم ليسوا عبيداً من الوجهة القانونية — وإن كانوا كذلك في الواقع — ولكنهم بقوا مربوطين بالأرض (٢).

وأوصى الاسلام بحسن معاملة العبيد (٣)، إلا أنه من المنتظر أن يشذ الكثيرون عن هذه التوصية. وكثيراً ما هرب العبيد من أسيادهم ، ولذا تؤكد عهود الخليفة على ضرورة ارجاع العبيد الهاربين (الأباق) إلى أسيادهم (٤).

ولم يكن استخدام العبيد على نطاق واسع ، ولا فقر أهل الصنائع والحرف وانحطاط مراكزهم الاجتماعي ، بالأمر الجديد ، ولكن القرن الرابع شهد مؤثرات جديدة أثارت العمال لدرجة لا سابق لها ، وزلزلت الخلافة بصورة عنيفة. وأهم هذه المؤثرات ، ثلاثة :

أولاً : ظهور طبقة رأسمالية ، تمتلك رؤوس أموال كبيرة وتشجع الصيرفة ووسائل الاعتماد وإنشاء المصارف (٥). ويتكون أفرادها من : (أ) الموظفين الكبار كالوزراء والقواد ، ورؤساء الكتاب ، وكلهم يستلم رواتب ضخمة تتجاوز رواتبهم في أي فترة سابقة (٦). و (ب) التجار المثرين مثل ابن الجصاص (٧).

ثانياً : تجمع العمال أكثر من ذي قبل ، كما هو وضع الزوج في جنوب العراق.

(١) Baladhuri - Origins II p. 109-110

(٢) زيدان — مختارات ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥. وادعى المؤمن أن عمر بن الخطاب (ر) « كان يقول : من كان جاره نبطياً واحتاج الى ثمنه فليبعه ». طيفور ص ٧٣.

(٣) زيدان — التمدد ج ٤ ص ٤٤ off p. 166 Mez

(٤) طبري س III ص ١٧٥٠ وبهم البلاذري (Origins II p. 109) الأباق الهاربين من باهلة باتهم حرصوا الزط على الثورة على المعتصم. انظر رسائل الصافي ، الرسالتين الأولى والثالثة.

(٥) انظر فصل الجبهة والصيرفة

(٦) انظر فصل « مستوى المعيشة »

(٧) انظر الفصل عن « التجارة »

كما أن مجموعات أهل الحرف في المدن تنظمت كثيراً (١). وهذا ساعد على تكوين الشعور بالمصلحة المشتركة ، وأصبح العمال يشعرون بقوتهم .

ثالثاً : ظهور دعاية قوية تبث باسم العدل الديني ، إلا أنها كانت في الواقع تؤكد بصورة خاصة على إصلاح الأحوال المادية . هكذا كانت الدعاية التي انتجت ثورة الزنج ، والدعاية التي بثها القرامطة وأخوان الصفا . وقد أضيفت هذه الدعاية الجديدة إلى بذور التذمر الموجودة بين الطبقات الفقيرة وأثارت الوعي فيها .

وقد بانت بوادر الاضطراب منذ القرن الثالث الهجري . وكانت نتيجة مباشرة للانحطاط السياسي ، ولارتفاع الأسعار دون حصول ارتفاع مماثل في الأجور ، ولاحتكار المواد الغذائية من قبل التجار والمترين (٢) .

وفي أواخر القرن الثاني الهجري ، وأوائل القرن الثالث ، ظهر العيارون والشطار في بغداد . وكانوا في الظاهر عصابات من اللصوص جعلت هدفها نهب الخوانيت والأسواق وبيوت الأغنياء . ولكن جذور الحركة هي في رغبة الطبقة المنكوبة مالياً لأخذ ثارها من المترين . وتظهر الأهمية الاجتماعية للحركة من انتشارها ، ففي خلال النزاع بين الأمين والمأمون ارتفع عدد العيارين إلى خمسين ألفاً ، يرتدون لباساً خاصاً يميزهم (٣) .

وفي خلال القرن الرابع الهجري ، استمر العيارون والشطار مصدر بلاء لبغداد (٤) . وفي سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م جيوأ الضرائب من أسواق بغداد (٥) . وفي سنة ٣٨٠ هـ /

(١) انظر قسم (جـ) من هذا الفصل

(٢) انظر زيدان ج ٥ ص ٤٧

(٣) انظر زيدان ج ٥ ص ٤٦ - ٤٧ ، ومختارات زيدان ج ٢ ص ٨٧ ، والأغاني ج ٦ ص ٩١

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢ ، ٨٣ ، و ص ٢٤٤ ج ٩ ص ١٤٥ - ١٥٠ . وفي مسكويه معلومات كثيرة .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (خط) مجلد ١٢ ورقة ٨٤ أ .

٩٩٠ م تسلطوا على بغداد ، فنهوا سكانها وعينوا عريقاً في كل محلة ^(١) . ومما يجلب الانتباه أن كثيراً من العلويين والعباسيين كانوا في صفوف العيارين الذين نهبوا بغداد سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م ^(٢) ويمكننا فهم هذه الحالة إذا تذكرنا أن التغلب البويهري أقر أشراف أهل البلاد وجعلهم في منزلة اجتماعية اقتصادية ثانوية ^(٣) . وترد الإشارة إلى عصابات اعتيادية من اللصوص ، تتجول في البلاد وتهاجم القوافل . ولسان حال البعض منها يظهر في قول ابن سيار الكردي ، رئيس إحدى هذه العصابات ، حين برر عمله قائلاً : « إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها ونجروا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة ، واللصوص فقراء اليها . فإذا أخذوا أموالهم - وإن كره التجار أخذها - كان ذلك لهم مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا » ^(٤) . في مثل هذه التربة بنرت الدعاية الجديدة ، وولدت حركتين كبيرتين : ثورة الزنج ، وحركة القرامطة . وقد درست هاتان الحركتان لحد الآن من الناحيتين الاجتماعية والسياسية . ومهمتنا أن نفحص أسسهما الاقتصادية ، ففيها تختفي جذور الحركتين .

ثورة الزنج

سنة ٢٥٥ هـ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ م - ٨٨٣ م

• هما كانت نوايا وأهداف صاحب الزنج - الذي ادعى أنه علوي - فان دوافع اتباعه من الزنوج كانت اقتصادية واجتماعية . فالثوار ، وهم عبيد من زنوج الصومال ،

(١) ن . م . ورقة ١٠٥ أ - ب .

(٢) ن . م . ورقة ١١٦ ب - ١١٧ أ .

(٣) الصابي ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٤) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٦ .

وزنجبار ، كانوا يشتغلون للمثريين من أصحاب المصالح في السهول الملحية قرب البصرة (في فرات البصرة) في كسح السباخ لجعل الأرض قابلة للزراعة وللإستفادة من الأملاح المتجمعة ^(١) . وانضمت اليهم جماعات من العبيد الهاريين (الأباق) من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من وضعهم السيئ ^(٢) .

وكان الزوج يشتغلون عادة في جماعات كبيرة تتراوح بين ألف وخمسة آلاف ^(٣) . بل قد يصل عددهم إلى أكثر من هذا بكثير ، فقد بلغ عدد إحدى هذه الجماعات في منطقة دجيل الأهواز خمسة عشر ألفاً ^(٤) . وهكذا يظهر كثرة عدد الزوج ، ومدى تركز العمل بينهم .

وكان هؤلاء الزوج يشتغلون دون أجور ، في سبيل عيش نكد . فلم يكن أسيادهم يعطونهم إلا قوتاً يومياً يتكون من قليل من الطحين والتمر والسويق ^(٥) . لذا كان أي وعد بتحسين وضعهم المعاشي مصدر إغراء كبير لهم . وقد فهم صاحب الزنج حالتهم ، بعد أن تحرى الوضع وسأل « عن . . ما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر » ^(٦) . ولم يكن في المثل والمبادي ما يؤثر على هؤلاء المناكيد خاصة وأن أكثرهم هج لا يفهمون حتى اللغة العربية ^(٧) . ولذا أكد صاحب الزنج على النواحي للمادية . ففي سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٦٩ م ألقى فيهم خطبة « ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال ، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم

(١) الطبري س ١١١ ص ١٧٤٢ ، Noldeke - sketches p. 144 .

(٢) الطبري س ١١١ ص ١٧٥٠ ، Noldeke, opt. cit. p. 153 .

(٣) Massignon. E. I. Iv p. 1212 (مادة Zanj)

(٤) الطبري س ١١١ ص ١٧٥٠-١٧٥١

(٥) الطبري س ١١١ ص ١٧٤٨

(٦) ن . م . ، س ١١١ ص ١٧٤٨

(٧) ن . م . ، س ١١١ ص ١٧٥١

ويعلمهم العبيد والأموال والمنازل ، ويبلغ بهم أعلى الأمور ،^(١) .

ومن هذا يتضح أن صاحب الزنج هدف إلى إجراء تعديلات محلية في أوضاع العبيد الاجتماعية ولم يرد إلغاء الرق . وكانت دعوته موجهة إلى جماعة معينة من العبيد . وقد حرر العبيد كلما سنحت له الفرصة ، ولكنه كان يسترق أسرى المسلمين^(٢) . ولهذا فشلت دعوته (سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م) في البصرة رغم انقسام أهلها الأحرار إلى حزينين متخاصمين ، الباهلية والسعدية^(٣) . ولهذا أيضاً نجد أهل القرى المجاورة ، إضافة إلى أسياذ الزنج ، يعدون (رميس) قائد الخليفة سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م بمكافئات مادية كبيرة إن هو أخذ الحركة وأرجع العبيد إلى أسياذهم^(٤) .

و لم يرد الزنج إلا تحرير أنفسهم وتحسين وضعهم للمادي ، دون أن يهدفوا إلى انشاء نظام اشتراكي عام كما اعتقد الوزير السلجوقي نظام الملك^(٥) . ولعل عدم وجود برنامج اقتصادي اجتماعي شامل في حركة الزنج يفسر فشل حركتي الزنج والقرامطة في التعاون ضد العباسيين ، رغم الجهود التي بذلها حمدان قرامط ، زعيم قرامطة العراق^(٦) .

(١) ن . م . م . س ١١١ ص ١٧٥٠

(٢) ن . م . م . س ١١١ ص ١٧٧٣ و ص ١٧٧٦ و ص ٢٠٤٥

(٣) ن . م . م . ص ١٧٤٥ - ١٧٤٦ و ص ١٧٧٧

(٤) ن . م . م . س ١١١ ص ١٧٥٩

(٥) سياست نامه (الترجمة الفرنسية) ص ٢٨٥ تقول « كانت مبادئه عين مبادئ منردك » . وقد دعى منردك إلى « أن القروات .. يجب أن توزع بين الناس حسب حاجتهم ، بشكل لا يدع أحداً محروماً من وسائل العيش وغير قادر على حصول ما يلزمه ، ولأجل أن تحصل المساواة بين الجميع » (ص ٢٨٤) .

(٦) يذكر الطبري (س ١١١ ص ٢١٣٠) أن حمدان قرامط قابل صاحب الزنج ، وقال له : « اني على مذهب ، وورائي مائة الف سيف فناظرني فان اتفقتا على المذهب ملت بمن ممي اليك وان تكن الأخرى انصرفت عنك .. فناظرته الى الظهر فتبين لي في آخر مناظرتي اياه انه على خلاف امري » .

مركز القرامطة (١)

بدأت الدعوة المنظمة لقرامطة العراق حوالي سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م وأنتجت أول حركة مسلحة سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م (٢). ثم تراخت الحركة بعد سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م حين اختفى رئيس دعايتها حمدان قرمط ، وقتل عضده اليعمن عبدان ، نتيجة اختلافهما مع (الإمام) أحمد بن عبدالله بن ميمون . وأخذت الحركة فعلاً بعد فشلها العسكري سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م (٣)، وحلت بها الضربة الأخيرة سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م (٤). ولقد تأثرت الحركة القرمطية في العراق ، في النواحي السياسية والاجتماعية ، بالوضع المحلي . وكان منظمها الأكبر حمدان قرمط قروناً عارفاً بنقاط الشكوى عند أهل السواد . ولهم معنى وأهمية الحركة القرمطية يلزمنا أن نعرف الجماعات التي تأثرت بها ، والمبادي التي دعت إليها .

انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الجبلية الذين كانوا يثنون من جشع الجباة واستغلال الملاكين (٥). فلما أخذت ثورة القرامطة سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م توقف قائد الخليفة عن التكيل بالثوار « خوفاً على السواد أن يخرّب إذ كانوا (أي الثوار) فلاحيه وعماله » (٦). وهناك حادث كان له أثر خاص في توسيع الحركة ، وهو ثورة الزنج وما أورثته من خراب في السواد (٧).

(١) انظر تعريف ماسينيون للكلمة في E. 1. II p. 767

(٢) انظر De Sacy, vol I p. Clxviii و De Goeje-memoirs p. 16, p. 31 والطبري

س III ص ٢١٣٠

(٣) De Sacy, I, p. cc-ccx

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٧

(٥) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤١

(٦) الطبري س III ص ٢٣٠٦ ، انظر أيضاً Clxxv De Sacy, I, p. Clxviii.

(٧) De Goeje p. 26

وانتشرت الحركة بين أهل الحرف وعوام المدن ، وقد كان مستوى معيشتهم واطشاً ، وفيهم يقول الغزالي : « والعامي الجاهل يظن أن التلبس بالأديان والعقائد مثل المواصلات والمعاهدات الاختيارية ، فيصلها مرة بحكم المصلحة ويقطعها أخرى »^(١) .
 فقلة ثقافة العامة جعلتهم يجهلون دقائق العقيدة ، وينجرفون بسهولة في تيار الدعوة القرمطية الماهرة^(٢) .

ونجحت الدعوة القرمطية كذلك مع قبائل العراق الجنوبي^(٣) . وقد كان فقر البدو مضرب المثل . فلما قال بدوي « الغناء زاد المسافر » علق عليه بعضهم بأنه يقول ذلك لأنه لا يعرف خبز السميد ، ولا شواء باب السرخ (ببغداد) ولا الخضر ولا الفالودج المصري^(٤) .

هذه هي أهم الجماعات التي انتشرت بينها الدعوة ، مع أنها كانت عامة وأثرت في جميع الطبقات والأصناف^(٥) . ولا يمكن وصفها بأنها حركة فارسية تهدف إلى إرجاع ملك الفرس^(٦) ، لأنها ضمت إلى صفوفها بعضاً من الفقراء العرب ، بينما وقفت الارستقراطية الفارسية على الضد منها^(٧) .

أما من حيث المبادي فقد نادى القرامطة ، كما يقول الغزالي : « بالظن في

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٥٣

(٢) انظر البغدادي ص ١٤١ . ويقول الغزالي : فضائح الباطنية ص ٥٣ : « ان العامي منقلب »

(٣) البغدادي ص ١٤٢ ، De sacy I p. clxxv

(٤) ابو القاسم البغدادي ص ٩٤

(٥) يقول المعري :

« كيف لا يشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء »

ويقول :

يقال ان زماناً يستفيد لهم حق يبدل من بؤس بنعماء

(٦) البغدادي ص ١٤١ - ١٤٢

(٧) انظر Mussulman Culture pp. 72 - 77 , pp. 100 - 102

= mic Guilds , E. H. R. 1937 p. 22

السلطين وعلماؤ الزمان . . وينكرون أن الفرج منتظر من كل ذلك ^(١) . وظهروا أمام الناس بمظهر أبطال السلم والرفاه الذين وعد بها العباسيون ولم يحققوها ^(٢) . وأكدوا على أهمية الناحية المادية . قال الديلمي : « ومنهم - أي القرامطة - رجل أصابه فقر ومسكنة فيطمعونه في سد الخلة وجبر القاقة » ^(٣) . وقد أوضح الحسين الأهوازي - وهو أول داع اسماعيلي إلى العراق - مهمته حين وصل سواد الكوفة سنة ٢١٤ هـ / ٨٧٧ م إذ قال لخدان قرمط : « أمرت أن أدعو أهلها (قرية قرب الكوفة) من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاوة إلى السعادة ، واستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم ما لا يستغنون به من التعب والسكد » ^(٤) . وهكذا أعطيت الناحية المادية أهمية خاصة .

وقد تطرف القرامطة إلى حد أن اعتبروا الدين سبب استعباد الجماهير . وتنسب إلى عبيدالله بن الحسن القيرواني رسالة أرسلها إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجناي ، حلل فيها أثر الاسلام ، جاء فيها : « ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم (أي الرسول) حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه ، وأخبرهم بكون ما لا يرونه ابدأ من البعث من القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدتهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته خولاً ، واستباح بذلك أموالهم بقوله : « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » ^(٥) . فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٤ .

(٢) De Goeje p. 42 .

(٣) الديلمي ص ٢٠ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٥ ص ١١٣ . ويذكر النويري أن الأهوازي قال ما منناه :

أمرت أن أروي هذه القرية وأن أغني أهلها ، وأن أقدم واسطهم على ثروة أسياهم .

e Sacy, vol. I p. clxviii

من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج . ثم قال سليمان بن الحسن في هذه الرسالة : « وأنت واخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس . وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذا تم المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس . فهنيئاً لكم ما نلتهم من الراحة عن أمرهم » ^(١) . ولا تخفى اللهجة التجارية لهذه الفترة في الرسالة ، كما تبين النظرة للمادية للحياة فيها .

وقد اتخذ القرامطة نفس الموقف من بقية الأديان ، فقالوا : « إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى . . وكل من ادعى النبوة ، كانوا أصحاب نواميس ومخاريق ، أحبوا الزعامة على العامة فخدعهم بنيرانها واستعبدهم بشرائعهم » ^(٢) . والخلاصة فإن القرامطة قالوا بأن الأنبياء والسلاطين أنزلوا الجماهير إلى مستوى العبودية الاجتماعية والشفاء المادي ، وأعلنوا بأنهم يريدون إرجاع العدل الاجتماعي ، وإنشاء الرفاه المادي . وقد حاول حمدان قرمط انجاز ذلك بتأسيس مجتمع اشتراكي لأتباعه في السواد . وقد سجل النويري تدايره رواية عن ابن رزام .

فبعد أن نشر حمدان مبادئه في بعض القرى ، أخذ يفرض على أتباعه سلسلة متزايدة من الضرائب والفروض . وأخيراً فرض عليهم سنة ٢٧٦ هـ نظام (الألفة) ، وبموجبه تجمع أموال القرية في محل واحد ليشارك الجميع في التمتع بها . ويختار الداعي من أهل القرية رجلاً ثقة يتسلم كل ما يملكه أهل القرية من مال ومتاع وحلي ودواب . وعلى هذا الثقة أن يكسو العريان ويسد حاجات الناس الأخرى حتى لا يبقى فقير بينهم .

وأخذ كل فرد يشتغل بمجد وإخلاص لخبر المجموع ، وذلك ليحتل المركز الذي يليق بمخدراته . فالتساء يأتيين بما يحصلن عليه من الغزل ، وحتى الأطفال يقدمون الجعل

(٥) البغدادي س ٢٨١ - ٢ .

(٢) ن . م . ص ٢٨٨ .

الذي يحصلون عليه من نظارة الحقول ، وليس لأحد ملك عدا سيفه وسلاحه . وقد قال حمدان لأتباعه إنهم في غنى عن المال لأن الأرض لهم ^(١) .

وهكذا يتبين أن حمدان اعتقد أن سبب التدمير هو الشقاء المادي والحطة الاجتماعية ، وأنه لا يمكن تحقيق المساواة الاجتماعية دون المساواة المادية . ولذا كان من الضروري قطع دابر الفقر ، وخير وسيلة لذلك - في نظره - هي اشتراكية المال . وقد قبل اتباع حمدان تدابير بكل حماس ، ولا سيما وأنه جعل ما يعطى للفرد يتناسب وحاجته ، بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع . لذا فلا غرابة في أن اعتقد نظام الملك أن الحركة القرمطية هي استمرار لحركة مزدك الاشتراكية التي ظهرت في العصر الساساني والتي كان أساسها « توزيع المال حسب الحاجة » ^(٢) .

ولا ندري كم استمر نظام حمدان ، وليس من المحتمل بقاءه بعد دحر القرامطة سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م . إلا أن فعاليات القرامطة استمرت بصورة سرية حتى ثورتهم سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م حين اجتمع أكثر من عشرة آلاف منهم بسواد واسط . وتجمع آخرون في عين القرو ونواحيها . وكانت أعلامهم بيضاء مكتوباً عليها « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » ^(٣) . وقد أخذت هذه الثورة وقضاء لت أهمية القرامطة ^(٤) .

إلا أن الآراء الاشتراكية عاشت في البحرين حيث أنشأ أحد دعاة حمدان ^(٥) ،

(١) انظر De Sacy : Exposé, 1 p. clxxxix off : De Goeje - Carmathes p. 27 off.

وقد استندت (الأئمة) إلى تأويل الآية ٩٨ من سورة ٣ ، وآية ٦٤ من سورة ٨ من القرآن .

(٢) انظر Lewis : Origins pp. 96 - 100 وعنان - الحاكم ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) القرآن : سورة ٢٨ آية ٥ .

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٧ .

(٥) ابن حوقل ص ٢٩٥ .

وهو سعيد الجنابي ، دولة شبه اشتراكية ، وقد وصفها ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري^(١) .

ثانياً — اخوان الصفا

اخوان الصفا جمعية سرية بدأت فعاليتها في البصرة أو بغداد ، وانتشرت في مختلف البلدان^(٢) . وكانت تشغل ضد الخلافة العباسية وتسعى لتهديب العامة ، جماعة ذلك وسيلة لاجداث ثورة سياسية دينية عامة . ولهذا الغرض ألفوا رسائلهم المشهورة بـ « رسائل اخوان الصفا » ، وعددها بين إحدى وخمسين وثلاث وخمسين رسالة ، تناولوا فيها كل نواحي المعرفة التي يحتاجها الفرد المثقف في القرن الرابع الهجري^(٣) .

ومما يجلب الانتباه ، أن « رسائل اخوان الصفا » وجهت عناية خاصة إلى العمل وإلى الصناعات . وقد أثنت ، في رسالة خاصة ، على شرف الصناعات^(٤) ، في حين أنها وصفت من لا صناعة له بأنه « لا يتعلم الصناعة لكبر في نفسه مثل أولاد الملوك .. و (من) لا يتعلم ولا يعمل لزهد وورعه ورضاه بقليل من أمور الدنيا وإقباله على طلب الآخرة مثل الأنبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم ، و (من) لا يعمل ولا يتعلم لكسله وثقل طبيعته عن الحركة وبرضى بالذل والهوان في طلب معاشه كالمكدين

(١) ناصر خسرو : سياحت نامه من ٩٣ - ٩٥ (الترجمة العربية) ، ص ٢٥٥ وما بعدها (من الترجمة الفرنسية) .

(٢) يميل الباحثون الى ان انشاء هذه الجمعية كان في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري بين سنة (٣٣٤ - ٣٧٣ / ٩٤٦ - ٩٨٣ م) . الهمداني : رسائل اخوان الصفا ص ٧ ، انظر القفطي ص ٨٢ .

(٣) انظر رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ١٦ - ٤٧ (لأحمد زكي باشا) و ص ٣ - ١٦ (لطف حسين) ومادة « اخوان الصفا » في دائرة المعارف الاسلامية

و Massignon, Der islam IV p. 324 وتتمتع صوان الحركة ص ٢١

و Der islam xx p. 210 - 27

(٤) الرسائل ج ١ ص ٢١٠ - ٢٢٧ .

والسؤال .. و (من) لا يعمل من أجل مهائنه واسترخاء طبيعته وقلة فهمه مثل الفساد وأمثالهن من الرجال »^(١).

ويظهر اتجاه اخوان الصفا بوضوح في عدم أخذهم بالنسب مقياساً اجتماعياً في تصنيف طبقات المجتمع . فهم يصنفون الناس على أساس مادي حسب عملهم ودخلهم كما يلي :

١ - الصناع : « وهم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم » ، ويعيشون من بيع ما ينتجون .

٢ - التجار : وهؤلاء هم الذين يتبايعون بالأخذ والعطاء . وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون .

٣ - الأغنياء : وهم يملكون المواد الأولية ويشتررون البضائع المنتجة . ويدخل أغنياء التجار في هذه الطبقة^(٢) .

ولا يزال ولاء اخوان الصفا غير معروف بالضبط . وما دامت رسائلهم هي السجل الوحيد لمبادئهم ، فانها تستحق عناية خاصة .

فالرسائل لها لون شيعي علوي واضح^(٣) . وهي تتمتع بمكانة خاصة في أدب الاسماعيلية في اليمن . وقد نسبها ادريس ، أحد رؤساء الدعوة في اليمن (توفي سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) إلى أحد الأئمة المستورين وهو جد المهدي بالله الفاطمي^(٤) . ويصفها السيفي وهو اسماعيلي آخر (توفي سنة ١٢٣٦ هـ) بأنها « القرآن بعد القرآن ، وهي قرآن العلم ، كما أن القرآن قرآن الوحي ، وهي قرآن الامامة ، وذلك قرآن

(١) ن . م . ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ن . م . ج ١ ص ٢١٧ .

(٣) Der islam xx p. 282 ، انظر الرسائل ج ٤ ص ٢٢٢ و ٤٠٦ .

(٤) الهمداني - اخوان الصفا ص ١٥ ، Der islam xx p. 292 .

النوبة» (١). ويرى غلام حسين ، اعتماداً على مؤرخ من الدعاة ، أن الرسائل ألها أربعة دعاة لأحد الأئمة العلويين (٢).

وإذا التفطنا إلى المؤلفين من غير الاسماعيلية ، نرى ابن الآلوسي يعتقد بأن الرسائل « هي أصل مذهب القرامطة » (٣). ويرى نيكلسون أن « الرسالة الجامعة ، وهي زبدة الرسائل ، لها صبغة اسماعيلية واضحة » (٤). ويرى أحمد زكي باشا (٥) وماسنيون (٦) أن اخوان الصفا هم فرع من الحركة القرمطية (أو الاسماعيلية). ويرى الهمداني - الذي درس الرسائل والأدب الاسماعيلي - أن « الإمام هو مركز دعوة الرسائل ، وهو الذي تدعو اليه الرسائل من أولها إلى آخرها » ، وأن فلسفة الرسائل هي عين فلسفة الاسماعيلية (٧).

ولكن عدم الاشارة إلى الرسائل من جانب الدعاة الفاطميين في مصر يسترعي الانتباه . ولعل روح « الرسائل » الثورية لم تكن لتناسب حكماً مستقراً كالحكم الفاطمي (٨) ، وهذا ما يجعل الباحث يميل إلى أن « اخوان الصفا » لم يكونوا مواليين للفاطميين (٩). ولعل « اخوان الصفا » كانوا فرعاً للحركة القرمطية في العراق ، إلا أنهم أرادوا أن يحققوا بطريق الثقافة ما عجز القرامطة عن تحقيقه بالسيف . وهكذا يظهر من هذه الحركات الاجتماعية ، أن المجتمع العراقي كان مجتمعاً

(١) الهمداني ، ن . م . ص ١٤ .

(٢) ن . م . ص ١٥ م ١ .

(٣) رسائل اخوان الصفا ج ١ المقدمة ص ٧ - ٨ .

(٤) Nicholson : Literary History of The Arabs p. 371 .

(٥) مقدمة رسائل اخوان الصفا ص ٣٤ .

(٦) Der Islam . IV p. 324 .

(٧) الهمداني ، ن . م . ص ٢٣ و ص ٢٦ .

(٨) Der Islam xx p. 294 .

(٩) انظر مقدمة رسائل اخوان الصفا ص ٧ - ٨ .

ديناميكياً ، وأن التيارات الاجتماعية والاقتصادية كانت تعمل بنشاط وراء البريق الذي يظهر في ترف الطبقة الغنية .

فالطبقة العامة لم تقبل ظروفها التبعة بهدوء ، بل حاولت أن تثبت كيانها وتحسن أحوالها بكل وسيلة ، سلمية أو ثورية . ونلاحظ ، بصورة عامة ، أن بعضهم أرادوا التوصل إلى نتائج سريعة ، بصرف النظر عن الكلفة ، فانضموا إلى حركة القرامطة وثورة الزنج ، بينما حاول ذلك آخرون بطرق سلمية تعاونية فكونوا الجمعيات والنقابات . وكان عامة الجماعة الأولى من الفلاحين والعبيد ، في حين أن أهل الصنائع والحرف تمكتلوا وكونوا الأصناف والنقابات كما سنوضح الآن :

تمتلك العمل :

١ - ان الحديث عن تكوين نقابات في القرن الرابع سابق لأوانه ، إلا أننا نلاحظ شيئاً من التكتل بين أصحاب الصنائع .

فهناك شعور بروح الجماعة بين أهل الصنائع ، وكل واحد منهم يشعر بصلة تربطه باخوانه ^(١) ، وكان شعارهم « الصناعة نسب » ^(٢) . وكان أصحاب الحرفة الواحدة يكونون جبهة واحدة أمام الخطر . فمثلاً اقتتل بأنعوا الاطعمة مع صنائع الأحذية في الموصل سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م ^(٣) .

ومما يسترعي الانتباه أن النسبة إلى المهنة فشت في القرن الرابع ، وظهرت بمجنب النسبة المألوفة إلى المدينة أو القبيلة . فـ « ابن الجراح » كان لقب الوزير علي بن عيسى ، و « ابن الجصاص » لقب تاجر مشهور ، و « الثعالبي » لقب كاتب ومؤرخ مشهور في العصر البويهي ، و « الحلاج » لقب الصوفي المشهور . وكانت

(١) رسائل الجاحظ : للسندوني ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) انظر البخل : للجاحظ ص ٥١

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٩

هذه الألقاب أكثر شيوعاً في الطبقة العامة ^(١). وهذا يدل على أن الاشتغال بالمهن اليدوية لم يعد محترماً ، وأن روح التكتل أصبحت قوية بين أصحاب المهنة الواحدة .

٢ - وكان أصحاب الصنایع يعيشون جماعات في محلات خاصة بهم ، أو يشتغلون في أسواق منفصلة . فمن محلات بغداد ، التي يذكرها الخطيب البغدادي ، محلة « البرزآین » - باعة الأقمشة - ، ومحلة « أصحاب الصابون » - صناع الصابون - ، ومحلة « السوآفین » - باعة السويق - ، ومحلة « القطانین » - حياك القطن - ^(٢) . وكان في الموصل سوق لصناع الأحذية ^(٣) . وكان في بغداد سوق للصغارین ^(٤) . ويلاحظ في المدن التي أنشئت في العصر العباسي مثل بغداد (القرن الثاني للهجرة) ، وسامراء (القرن الثالث للهجرة) أن أسواقها منفصلة ومنظمة بشكل يجعل « كل تجارة منفردة ، وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم » ^(٥) .

٣ - وتشير المعلومات إلى حصول تنظيم متدرج عند أهل الحرف . فهناك « الصناع » و « الأساتذة » ^(٦) . ولكل حرفة « رئيس » من بين أصحابها ، ولكن اختياره يكون بواسطة الحكومة . ولا يوجد ما يشير إلى أي اضطهاد لأصحاب الحرف من قبل الحكومة في هذه الفترة ^(٧) . ويحتمل أن سياسة الاضطهاد ، ظهرت فيما بعد نتيجة ظروف خاصة ، وأنها ساعدت على زيادة تماسك الأصناف .

(١) انظر حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٧٨ و ص ٧٩ و ص ٨١ و ص ٨٥ و ص ٨٦ و ص ٩٥ و ص ٩٦ و ص ١٣٧ و ١٣٩ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ص ٦٧ - ٨ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٩ .

(٤) طيفور ص ١٧٩ .

(٥) اليعقوبي : البلدان ص ٢٨٥ .

(٦) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢٥٥ .

(٧) التنوخي : نشوار الحضارة ج ١ ص ٣٨ .

ويوجد نوع طريف من نقابات خاصة ، وهي جماعات العيارين والشطار ، وهم أسلاف حركة الفتوة المشهورة .

وكان لكل من العيارين والشطار « أزرّة » أو « مئزر » يلف به وسطه ^(١) . وفي سنة ١٩٧٥ هـ / ١٨١٢ م ، نظم العيارون صفوفهم إلى عشرات على كل منها (عريف) ، وعلى كل عشرة عرفاء (نقيب) ، وعلى كل عشرة قباء (قائد) ، وعلى كل عشرة قواد (أمير) ^(٢) . وكان لفظ (فتى) شائناً آتتد بين العيارين ، فقد تعنى شاعرهم قاتلاً :

« ويقول الفتى - إذا طعن الطعنسة - خذها من الفتى العيار » ^(٣)

وهذا يشير إلى أن مدلول الكلمتين - فتى وعيار - في الأصل واحد ، وبدل على أن (الفتوة) بدأت كحركة اجتماعية للطبقة الفقيرة ، دون أن يكون لها آتتد ذلك القانون الاخلاقي السامي الذي تمثل فيها في خلافة الناصر (سنة ٦٠٢ هـ) .

ويؤيد هذا الاستنتاج القصة التالية التي يرويها التنوخي . سرقت خمسمائة دينار من رجل في قارب في نهر الابلّة ، فنصح بالذهاب إلى شيخ من الفتيان في السجن . فاتبع النصيح ، وقال له الشيخ : « امض الساعة لوفتك ولا تتأخر ، إلى بني هلال ، فادخل الدرب الفلاني حتى تنتهي إلى آخره فالك تشاهد باباً شعباً فافتحه وادخله بلا استئذان فتجد دهليزاً طويلاً يؤدي إلى باين فادخل الأيمن منها ، فسيدخلك إلى دار فيها أوتاد وبواري وعلى كل وتد (أزار) و (مئزر) ، فأتزع ثيابك والقها على الوتد ، واتزر بالمئزر واتشح بالأزار . فيجيء قوم يفعلون كما فعلت إلى أن يتكاملوا ، ثم يأتون بطعام فكل معهم وتعد أن تفعل في كل شيء كما يفعلون ،

(١) الاغانى ج ٦ ص ٩١ .

(٢) السمردي : سروج الذهب ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٣) ن . م . ن . ج ٦ ص ٤٦٣ .

فاذا أتوا بالبئذ فاشرب معهم أقداحا يسيرة ، ثم خذ قدحا كبيرا واملاؤه ، وقم فقل هذا شادي ^(١) خالي أبو بكر البغاش ، فسيضحكون ويفرحون ويقولون : هو خالك ؟ فقل نعم ، خالي يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : بحياقي يا فتیان ردوا على ابن اختي القوطة التي أخذتموها أمس في السفينة بنهر الابله ، فانهم يردونها عليك . فخرجت من عنده وفعلت ما قال ووجدت الصورة على ما ذكر فردت القوطة بعينها ^(٢) .

نمطينا هذه القصة صورة عن الحياة الداخلية لجمعية من جمعيات الفتوة . فهي توضح أن الفتیان المذكورين لم يتورعوا عن السرقة . وأنهم كانوا يشتغلون ويقسمون الأرباح . ثم أن علاقاتهم بالحكومة كانت عدائية ، وكانوا يجتمعون سرا في محل منزو . ثم أن شرهم نخب القادم الجديد ، والاشارة الى الأزار والمثرتنبي . عن مراسيم خاصة للأنهاء ^(٣) .

ويعطينا القشيري الذي كتب سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م معلومات تسكل ما ذكره التنوخي والسعودي . فهو يذكر أن رجلا قال لامرأته : « أريد أن .. أدعو عياراً شاطراً كان في بلدكم رأس الفتیان » ^(٤) .

ومن هذا يتبين أن العيارين والفتیان جماعة واحدة ، وأن الشطار هم من نفس الجماعة ^(٥) .

ويعطي القشيري تعاريف متعددة لكلمة « فتوة » ، مما يدل على أن حركة الفتوة لم يتكون لها عرف منظم بعد ، لكنها كان لها بعض المقاييس المتعارفة .

(١) كلمة « شادي » غير واضحة ، ولعلها تعني : هذا نخب من قدمي الى الجماعة . والمعنى الحرابي انه شد الأزار الى الوسط ، أي ادخله سلك الجماعة .

(٢) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١١٢ - ١١٤ .

(٣) قارن هذا بما ذكره ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٤) القشيري : الرسالة ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٥) يزوي سبط ابن الجوزي ان (عياراً) صار في بغداد سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م فتبته عذد كبير .

من الشطار . مرآة الزمان ، مجلد ١٢ (خط) ورقة ١٠٨ ب .

وسكان ينتظر من الفتيان إطاعة الشريعة ، والرأفة بجميع الناس ، وعدم إيذاء أحد ، وإن حصل اعتداء منهم على أحد وجب تعويضه عما أصابه من ضرر ، واسترضاءه ، والعتو عن يسيء اليهم . وينتظر من الفتيان أن يتحلوا بالكرم حتى مع المشركين ، وأن يتصفوا بالأمانة ، والصدق ، والتواضع ، والمحافظة على الوعد^(١) . ويعطي القشيري أمثلة مناسبة تكمل تعاريفه . فيذكر خبر سقاء يرفض أخذ دراهم مقابل ما قدمه من ماء لسجين ، وتاجر آ يرفض أخذ ربح على رأس ماله لأن ذلك ليس من الفتوة . وأمثلة من الرفق بالحيوان .

ويستنتج من القشيري أن حركة الفتوة كانت منتشرة في العراق والشام وإيران ، وأنها ضمت بين أتباعها ناساً من الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة ، إذ أن بينهم التجار والخدم والسقائين^(٢) .

يقسم البروفسور (تيشنر Taeschner) تاريخ الفتوة إلى ثلاثة أدوار ، فيرى أنها بدأت حركة فروسية أرستقراطية ، ثم تطورت في القرن الثالث عشر للميلاد إلى حركة للطبقة المتوسطة ، وأخيراً أصبحت حركة العامة في القرن الخامس عشر^(٣) . ولاسكني أرى أن هذا التقسيم تنقصه الدقة . فكتابات المسعودي والتونخي تدفع إلى الاستنتاج بأن تطور حركة الفتوة اتخذ اتجاهًا معكوسًا . فحركة الفتوة ، كما يظهر ، بدأت في الطبقة العامة ، ثم صار لها أتباع في الطبقة المتوسطة عند نهاية القرن الرابع الهجري^(٤) . وكانت الحركة معادية للحكومة ، واستمرت على عدائها مدة طويلة . فابن الجوزي المتوفي سنة ٥٧٩ هـ / ١٢٠٠ م كان يتهم مبادئهم الخلقية ويعتبرهم

(١) ن . م . ص ١٢١

(٢) ن . م . ص ١٢٢ - ٣

(٣) Taeschner = Die islamische Futuwwabünde , Z. D. M. G. 1933 p. 6 off.

(٤) انظر القشيري ص ١٢٢ - ٣

لصوصاً^(١). ولم تتخذ الفتوة صفة ارستقراطية عسكرية إلا في خلافة الناصر لدين الله .
فقد حاول الناصر الاستفادة من حركة الفتوة وتوجيهها في مصلحة الدولة ، ولذلك
ترأسها وهذب أهدافها في منشوره المشهور الذي أصدره سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م^(٢).
فلما قضى المغول على العباسيين في العراق ، انحطت منزلة أهل البلاد تحت السادة
الأجانب ، وزال التأييد الرسمي لحركة الفتوة ، وبذلك فقدت هذه الحركة صفتها
الارستقراطية^(٣).

و كانت سياسة الحكومة تجاه أهل الحرف ، تقتصر على الاشراف على أعمالهم ،
وليس فيها ما يدل على الاضطهاد . فقد فرض عهد الطائع ، الصادر سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ،
على ولاية الحسبة أن يقوموا « بتصفح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم ومجتمع أسواقهم
ومعاملاتهم ، وأن يعيروا موازينهم والمسكايل ، ويقرروها على التعديل والتكميل .
ومن اطلعوا منه على حيلة أو تلبيس (أو غيلة أو تدليس) ، أو يخش فيما يوفيه
أو استفضال فيما يستوفيه ، نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها ، وخصوه بوجيعها وألمها ،
واقفين به عند ذلك الحد الذي يروونه لذنبه مجازياً ، وفي تأديبه كافياً . فقد قال الله
عز وجل : ويل للمطففين الذين إذا اكتبوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم
أو وزنوهم يخسرون »^(٤).

وجاء في عهد آخر صادر في نفس السنة ، عن الخليفة الطائع : « والى ولاية الحسبة
بمراعاة أمور العوام في المتاجر والصناعات ، ومنعهم من الغش والتدليس في سائر

(١) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ٣٩٢ . ويبين أن لباسهم الخناس هو « السراويل »
أو سراويل الفتوة .

(٢) يعطي ابن الساعي في كتابه « الجامع المختصر » (ج ٩ ص ٢٢٣ - ٢٢٦) هذا
المنشور بكامله .

(٣) ان قراءة ابن الفوطي - الحوادث الجامعة ، تمطي هذا الاستنتاج . انظر أيضاً بحث الأستاذ
مصطفى جواد : الفتوة والفتيان في لغة العرب المجلد الثامن (١٩٣٠) ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٤) رسائل الصابي ج ١ ص ١١٤ .

المعاملات ، وامتعان المكايل والأوزان وحياطتها من التطفيف والنقصان ^(١) .
وهكذا يبين أن إشراف الحكومة يقتصر على منع الفش في الصناعة والاتاج ،
ومنع الحيلة والتدليس في المعاملات ، والتأكد من صحة الموازين والمكايل ، وذلك
لأن الحرف والأصناف لم تكن تهدد الدولة في فعاليتها ، فلم يكن ما يستوجب
مكافحتها سياسياً .

وإن رجعنا إلى الكتب التي تبحث عن الحسبة ، نجد أن الماوردي (توفي سنة
٤٥٠ هـ) يبين في فصله عن (الحسبة) أن أهل الحرف كانوا تحت إشراف المحتسب ،
ولكنه لا يوضح تنظيماتهم ^(٢) . أما كتب الحسبة ، فلا نستطيع الاستفادة منها في
هذه الدراسة ، لأنها متأخرة تعود إلى ما بعد القرن الثاني عشر ^(٣) .

المهن والصنائع :

إن أتم وصف للصنائع في القرن الرابع الهجري ، هو ما نجده في رسائل اخوان
الصفا . ففي هذه الرسائل نجد الحرف مصنفة بأشكال مختلفة وفق أسس متعددة ،
ويكفي عرض ذلك بإيجاز :

صنف اخوان الصفا الصنائع حسب فائدها بالشكل التالي :

أ - الصنائع الضرورية للمجتمع : كالزراعة والحياكة والبناء .

ب - صنائع تأتي في الدرجة الثانية ، فهي اما تابعة للاولى ، او متممة لها ومكملة .
فمثلاً لا تتم الحياكة إلا بصناعة الغزل ، وصناعة الغزل لا تتم إلا بصناعة الخللج ،

(١) ن . م . ص ١٤١ - ١٤٢

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٤٣ - ٢٤٩

(٣) الشيرازي : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ابن الأخوة القرشي : معالم القرية ، العسائي :
الانتصاب في الانتصاب (خط) ، ابن بسم : المشرق ، المجلد العاشر ، ابن تيمية : الحسبة

فصارت صناعة النزل وصناعة الخلع تابعة للحياكة ، كما أن الخياطة لازمة لعمل الملابس من النسيج ، فصارت الخياطة متممة للحياكة .

ج - صنائع الجمال والزينة : مثل صناعة العطور ، وصناعة الحبر والوشى .

وصنفوا الصنائع حسب موضوع الصناعة إلى نوعين :

أ - الصنائع الروحانية : وتشمل المهن الفكرية .

ب - الصنائع الجسمانية : وتشمل الحرف اليدوية . وهذه تصنف بدورها إلى صنفين :

(١) الصنائع التي يكون موضوعها بسيطاً : كالماء (كالسقائين والملاحين ،

والسباحين .. الخ) ، والتراب (كحفاري الآبار والأنهار والمعادن .. الخ)

والنار (كصناعة النفاطين ، والوقادين ، والمشعلين) والهواء (كصناعة

الزمارين ، والبواقين ، والنفاخين أجمع) ، أو الماء والتراب (كصناعة

الفخارين والفخارين وضراي اللبن) .

(٢) الصنائع التي يكون موضوعها مركباً ، والمواضيع المركبة ثلاثة أنواع وهي :

الأجسام المعدنية ^(١) — ومن صنائع هذا النوع ، صناعة الصغارين والحديد

والزجاجين والصواغين .

والنباتات — والصناعات من هذا النوع اما أن تتناول أصول النبات من

الأشجار والقضبان والأوراق كصناعة النجارين والحواصين والبوارين والحصريين

والاقصاصين ومن شا كلهم . أو تتناول لحاء النبات ، كصناعة الكتانين ومن يعمل

القنب والكغذ ومن شا كلهم . أو تتناول ثمر الأشجار وحب النبات كصناعة

الدقاقين ، والعصارين ، والبزارين ، والشيرجين ، وكل من يخرج الأدهان من ثمر

الشجر وحب النبات .

والحيوان — والصناعات هنا اما عامة كصناعة الصيادين ورعاة الفم والبيطرة

(١) كان الكيميائيون يعتقدون ان المعادن كلها مركبة .

أو تناول إنتاج الحيوان ، كصناعة الدباغين ، والأساكفة ، والسيوريين ، والطباخين ، أو مقادير الأجسام ، كصناعة الوزائين والكيالين . ومن الصنائع ما موضوعها أجساد الناس كصناعة الطب والزيين ، وتقوس الناس كصناعة المعلمين ^(١) .

وصنفوا الصنائع تصنيفاً ثالثاً حسب قيمة إنتاجها ، فهي تتفاضل من حيث :
(أ) قيمتها . (ب) الحاجة إليها . (ج) فائدتها بالنسبة للناس ^(٢) .

وصنفوها تصنيفاً رابعاً حسب الأدوات والآلات المستعملة فيها ^(٣) .
ولهذه التصنيفات أهمية كبرى لأنها تدل على نطاق الصناعات الموجودة في القرن الرابع ، كما أنها تلقي ضوءاً على الفكر الاقتصادي في تلك الفترة .

وكانت المهن عادة وراثية ، وكل صانع يفضل حرفته على جميع الحرف . ويلمح الجاحظ إلى هذه النظرة حين يقول : « ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ومسهل ذلك عليهم ، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً قال يا حجام ، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك » ^(٤) .
ومع ذلك اعتبرت بعض المهن مشينة حتى بنظر العامة مثل مهنة البوابين والقوادين والمشعوذين ^(٥) .

وكان العراق مشهوراً بصناعاته في القرن الرابع الهجري ^(٦) . وكانت مصنوعاته الرئيسية هي أدوات الترف التي يستعملها الأغنياء ^(٧) . أما الصناعات التي تنتج لاستهلاك العامة فكانت محدودة ، مثل حياكة القطن ، وعمل الأحذية وصنع الأدوات النحاسية .

(١) اخوان الصفا ج ١ ص ١١٣ - ١١٥

(٢) ن . م . ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، الفارابي : احصاء العلوم ص ٢

(٣) اخوان الصفا ص ٢١٥

(٤) الجاحظ : رسائل (السندوني) ص ١٢٦

(٥) الدمشقي ص ٤٢ - ٤٣

(٦) انظر ابن حوقل ص ٢٣٤ ، المقدسي ص ٣٣ ، H. A. p. 138

(٧) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٢١٧ ، H. A. p. 138

الحياكة — وكانت أهم الصناعات في القرن الرابع الهجري^(١) ، كما كان فن النسيج أرق من أي فن صناعي^(٢) . وكانت الحياكة تعتبر أقدم الصناعات اليدوية ، لأن الجو يجعل العناية بالملابس ضرورية^(٣) . كما أن أهم أقسام الأثاث كانت تتألف من الستائر ، والاندماط ، والسجاد ، والبسط ، والوسائد^(٤) . وكان الناس يعنون بصورة خاصة بالملابس ، فلكل طبقة من الناس لباسها ، ولكل صنف زيّه ، وكل مناسبة تتطلب نوعاً خاصاً من الملابس^(٥) . وكان الأغنياء يتنافسون في ارتداء الملابس الثمينة ، ويمتلكون صناديق واسعة للملابس تحتوي على عشرات لا بل مئات من القطع من نفس النوع^(٦) . وهذا الطلب الزائد شجع الصناع على تحسين منتوجهم وعلى الاكثار من أنواعه^(٧) .

ويعود تاريخ الحياكة في العراق إلى أزمان سبقت الاسلام^(٨) . ولكنها ازدهرت بصورة خاصة في العصر العباسي . فكانت بغداد تصنع المنسوجات الحريرية الفاخرة ، والثياب الحريرية من ألوان مختلفة ، والأقمشة القطنية ، والعمائم الرقيقة ، والمناديل القصرية والبويبية الشهيرة^(٩) . وكانت ثيابها القطنية الرقيقة

(١) Hitti, p. 345 . ويمكننا ملاحظة ذلك من كثرة الاشارات الى الحياكة بالنسبة الى ضآلتها فيما يخص الحرف الأخرى .

(٢) Mez p. 459

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٤ ، الحبيشي ص ٧

(٤) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٣٦ ، الخطيب البغدادي ص ٥٠ و ٥٢

(٥) انظر الوشاء - الموشى ص ١٢٤ حيث يحدد قطع الملابس للرجل الظريف ، ويشير الى ملابس المفتين ، والى ملابس الأغنياء في مجالس السمر .

(٦) الثعالي : لطائف المعارف ص ٧٢

(٧) مقدمة ابن خلدون ٣٤٤

(٨) يوسف غنيمية : مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٥٦٣ ، والحيرة ص ٨٣

(٩) الدمشقي ص ٢٦

منقطعة النظير^(١). قال النويري : « ومن كان يريد الثياب الرقاق فليحق . . . بالعراق »^(٢). وكان السقلاطون ، وهونسيج حريري سميك ، وردي اللون ، يصنع بالدرجة الأولى في بغداد^(٣). وكانت ثياب (الملحم) ، وهي ثياب سداها من الحرير ولحمها القطن تصنع في بغداد^(٤). وكانت الثياب العتائية المشهورة تصنع في محلة العتائية في بغداد وتنسب إليها ، وهي ثياب مخططة تصنع من خيوط القطن والحرير^(٥). وأخيراً كانت الأزرتصنع في بغداد أيضاً^(٦).

وفي باقندرا - وهي قرية على بعد أربعين ميلاً من بغداد - كان يصنع نسيج قطني قوي سميك^(٧). وكانت حرابي - وهي مدينة تقع على نهر الدجيل - تصنع وتصدر أنسجة قطنية سميكة^(٨). وكانت الحضيرة ، وهي قرية من بغداد تصنع الثياب الكرباس الصفيقة ، وهي ثياب قطنية سميكة ، على نطاق واسع^(٩). وكانت البصرة مشهورة بالخز والبز^(١٠). فالخز نسيج رقيق يعمل من الصوف

(١) ابن الفقيه ص ٢٥٤

(٢) النويري نهاية الارب ج ١ ص ٣٧٢

(٣) ن . م . ج ١ ص ٣٦٩ ، حدود العالم ص ٣٨٣ . وقد خلد هذا النسيج اسمه في كلات مثل : Sekerlat و Eskerlat ، بمحلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٥٦٨

(٤) انظر Dozy, - Vêtements p. 113 ومجلة غرفة تجارة ص ٥٦٧

(٥) ابن جيب ص ٢٢٦ ، Dozy, o. c. p. 110 and 436 ، والمقدسي ص ٣٢٣ ، وابن حوقل ص ٢٦١ ، حكاية ابي القاسم البغدادى ص ٣٥ ، Hitti p. 347 ومجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤١ ص ٥٦٦ و Survey of Persian Art, III p, 1996 , N. i.

و (Dict. de Le Langue Francaise II p. 2121 و Johnson's Dictionary (Taby))

(٦) المقدسي ص ١٢٨

(٧) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٥

(٨) ن . م . ج ٢ ص ٢٣٥

(٩) ن . م . ج ٢ ص ٢٩٢

(١٠) المقدسي ص ١٢٨

والحرير^(١) . وكانت القطعة الواحدة من هذا النسيج تبلغ عادة خمسة عشر ذراعاً^(٢) . في الطول ، وأربع عقد في العرض ، وخير أنواعه ما كان نسيجه محكماً ووزنه ثقيلاً^(٣) . أما البز فهو نسيج قطني ثمين^(٤) . وكانت البصرة تنتج فوطاً^(٥) (مفردتها فوطة) ثمينة وأقمشة كتانية ممتازة^(٦) .

وتفوقت الموصل بصنع أنسجة قطنية تدعى « الشاش » كان لها شهرة واسعة ، وقد انتشرت إلى الغرب باسم Muslin و Mousseline^(٧) . وكانت تنتج (المسوح) أيضاً ، وهو نسيج مخطط يمكن صنع ملابس منه أو استعماله بساطاً . وكانت تصنع (الخز) أيضاً^(٨) . وكانت آمد تصنع (الوشي) والناديل والطالسة^(٩) .

ويذكر ابن الفقيه أن للكوفيين مهارة خاصة في صنع الوشي ، وهو نسيج حريري مطرز ، وفي صنع الخز^(١٠) . وكانت السكوفة تصنع العائم من الخز ،

(١) De Goeje , B. G. A. IV p. 224 ويقول دوزي ان الخز هو Filoselle Vêtements في ص ٤٣٧ من قاموسه للباس . ويرى زيدان (اعتماداً على قاموس الف باه) انه من وبر الحرير . انظر التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٠٦

(٢) الذراع = ٦٢ سم .

(٣) الدمشقي ص ٢٦

(٤) زيدان : التمدن ج ٥ ص ١٠٦

(٥) في معنى الفوطة انظر Dozy, o. c. p. 334 - 43 . وتعني الفوطة : ١ - نسيج تلفه المرأة على رأسها ٢ - منزر ٣ - نسيج ينشر على الظهر لحاياته من حر الشمس .

(٦) B. A. p. 139

(٧) يوسف غنيمة : مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤١ ص ٥٦٦-٥٦٧

(٨) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٤٧ ، انظر أيضاً Dozy : vetements pp. 405-7

الابشيهي : المستطرف (القاهرة ١٣٠٨ ج ٢ ص ٦٦

(٩) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٤٤

(١٠) ابن الفقيه ص ٢٢٥

وكانت هذه العائم مشهورة بجمالها ^(١) . وكانت تصنع الأنسجة الحريرية وخاصة النوع المستعمل لغطاء الرأس ، ولا تزال تسمى الكوفية ^(٢) . وكانت الحيرة تنسج الحرير ، والأقشة القطنية والصوفية . وكان للثياب الحيرية شهرة خاصة في القرن الرابع الهجري ^(٣) .

وتصنع الابلّة الكتان الرقيق ، بشكليه البسيط والمطرز ^(٤) . وكانت العائم التي تصنعها الابلّة مشهورة ^(٥) . وكانت النعانية تنتج الملابس الصوفية الجميلة ، وثياباً صفراء باهتة اللون ^(٦) . وكانت مدينة (قصر ابن هبيرة) مليئة بالحاكّة ^(٧) . ويقول المقدسي عن تكريت إنها « معدن .. صنّاع الصوف » ^(٨) .

وكانت الجوارب تصنع من الحرير أو من المرعز ^(٩) .

وكان السجاد في البلاد الشرقية ولا يزال دليلاً على الثروة ، كما أنه حاجة من الحاجات العملية ^(١٠) . وكان السجاد الثمين يفرش في قصور الخلافة لاطهار روعتها ^(١١) . فيذكر مثلاً أن بوران أرملة المأمون أصلحت عمارة قصر البرامكة القديم في بغداد سنة ٢٩٧ هـ / ٨٩٢ م وعلقت على جدرانها سجاداً تقيساً من الصوف

(١) المقدسي ص ١٢٨

(٢) انظر Hitti p. 347 و Dozy : vêtements p. 390 - 4

(٣) الخطيب البغدادي ص ٥٢ ، يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٣ وما بعدها

(٤) المقدسي ص ١٢٨

(٥) النويري ج ١ ص ٣٦٩

(٦) المقدسي ص ١٢٨

(٧) ابن رسته ص ١٢١

(٨) المقدسي ص ١٢٣

(٩) الوشاء - الموثى

(١٠) Survey of persian art, vol. III p. 2271

(١١) انظر الخطيب البغدادي ص ٥٢

تخالطه خيوط ذهبية^(١). وأمرت أم المستعين بصنع بساط خاص لها ، وكان من الحرير وعليه صور مختلف الحيوانات ، وكانت صور الطيور فيه من خيوط الذهب ، وعيونها من العقيق والجوهر^(٢).

وتعود صناعة البسط في العراق إلى العصر البابلي ، ولا تزال موجودة إلى الآن . وقد ساعدت ظروف الحياة الرعوية بصورة خاصة على ظهور هذه الصناعة^(٣). وكان الصوف أهم المواد في صناعة البسط والسجاد ، ويظهر أنه كان يستعمل في سدى جميع البسط إلا القليل منها ، إذ كان سداها من الحرير ، ويحتمل أن هذه كانت من صنع معامل الخلافة^(٤). وكان القطن ، وحتى الكتان تستعمل أحيانا في صنع البسط^(٥).

وهناك أنواع جيدة من السجاد ، كانوا يتفنون في حياكتها وفي تنويع طريقة الحياكة^(٦). أما السجاد الفخم ، فكان يزين بخيوط الفضة والذهب في الحياكة^(٧). وكانت البسط والسجاد تستعمل لأغراض مختلفة . فهناك ما يفرش منها على الأرض ، وهي اما كبيرة تسمى (البسط) أو مستطيلة وتسمى (الانماخ) . والبعض منها يعلق للزينة ويسمى (الانماط) ، وهناك نوع خاص يستعمل للصلاة ويسمى السجادة^(٨).

وكانت الحيرة والنعمانية مشهورة بالبسط التي تصنعها . وتشتهر بسط الحيرة بأنها

(١) Levy : Baghdad chronicle p. 118

(٢) بلغت كلفة هذا البساط مائة وثلاثون مليون درم . زيدان : التمدن ج ٢ ص ١٣٥

(٣) Survey of Persian Art, III p. 2271-2

(٤) ibid III , p. 2456

(٥) ibid III p. 2439 and 2241

(٦) ibid III p. 2439

(٧) E. I. supp. , p. 107 See also p. 108

(٨) الخطيب البغدادي ص ٥٢ ، Mez p. 459 ، وحكاية أبي التماس ص ٣٦ ، p. 106 E. I. supp. ,

ينسج فيها صور الفيلة والخيول والجمال والطيور ، وكانت هذه الأشكال تقلد في النعمانية ، حتى أن مصنوعات النعمانية كانت تسمى البسط الحيرية ^(١) . ويذكر ابن الفقيه أن منطقة ميسان ودست ميسان كانت مشهورة بصناعة أجود البسط والستائر ^(٢) . وكانت واسط مشهورة بصناعة السجاد ^(٣) .

وكانت الستائر التي تصنع في واسط من أحسن الأنواع ^(٤) . وقد ذكرها الخطيب البغدادي في جملة أثاث قصر المقتدر ^(٥) . وكانت الموصل وآمد تصنع الستائر الجيدة وتصدرها ^(٦) . وكانت بعض الستائر تطرز بخيوط الذهب ، في حين أن البعض الآخر كانت تنسج بالذهب ^(٧) .

وأخيراً نذكر أن الوسائد والحمايد والمساند من مختلف الأنواع كانت تنسج في العراق ^(٨) .

وكان للخلفاء والأمراء معامل خاصة تعرف بـ (دور الطراز) . وتعني كلمة (طراز) في الأصل « التطريز » ^(٩) ، ثم صارت تعني النسيج المحلى بسطور من الكتابة . وكانت الكتابة تنسج على حافة القماش وتحوي اسم الخليفة (أو الأمير) ولقبه وبعض عبارات الدعاء . وكانت الكتابة تحاك من خيوط الذهب ، أو من خيوط ذات ألوان زاهية .

(١) ابن رسته ص ١٨٦ ، يوسف شنيمة : الحيرة ص ٨٣

(٢) ابن الفقيه ص ٢٥٣

(٣) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٦

(٤) المقدمة ص ١٢٨ - ١٢٩

(٥) الخطيب البغدادي ص ٥٢

(٦) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٤٧ و ص ٣٤٤ ، النعماني : لطائف المعارف ص ١١١

(٧) الخطيب البغدادي ص ٥٢

(٨) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٣٦ . ولغرض معرفة الامعاء العربية لأنواع البسط ، انظر

H. Worrel, in *ars islamica* I, 1934 p. 219 - 222 , II 1935 p. 65 - 68

(٩) يشير (الوشاء) ص ١٦٨ - ٩ الى ملابس جوارى عليها (طراز) اي كتابات .

وكانت دار الطراز مظهرآ من مظاهر السلطان ، وكانت تنتج البسط والشياب والأعلام والبنود والفرش ^(١) ، وهذه يستعملها الخليفة أو الأمير أو يعطيها لكبار الموظفين علامة تشريفه لهم . وكان لبعض الولاة في القرن الرابع ، كالحمدانيين في الموصل ، دور طراز خاصة بهم ^(٢) . وكان للراسبي (توفي سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م) عامل الأهواز ، ثمانين دار طراز خاصة به ^(٣) . وأهم مراكز الطراز بغداد ، وكان لمصنوعاتهما شهرة خاصة ^(٤) .

ويستخدم في دور الطراز الصاغة والحاككة ، ويشرف عليهم موظف خاص يدعى « صاحب الطراز » ^(٥) .

الخيام والحصر — كان نسج الخيام للبدو من الصناعات المهمة . وتدعى الخيمة المصنوعة من الصوف بـ (الخباء) ، والخيمة المصنوعة من الشعر بـ (القسقاط) ، والخيمة المصنوعة من الوبر بـ (البجاد) ، والخيمة المصنوعة من القطن بـ (السراق) . وهناك نوع خاص من الخيم يدعى (الطرف) يصنع من نوع خاص من الجلد ويستعمله الأغنياء ^(٦) .

(١) رسائل الصابي ص ١٤١

(٢) ن . م . ص ١٤١

(٣) ابن تغريبردي : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٢

(٤) E. I. IV p. 790

(٥) رسائل الصابي ص ١٤١ ، انظر عن الطراز :

E. I. Supp. . pp. 248 - 250 E. I. III p. 785 - 793 ومقدمة ابن خلدون

٢٢٢ - ٢٢٣ ، ويوسف غنية ، مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٥٦٨ وزبدان : الخمدن

ج ١ ص ١٢٤ - ٢٧ و Hitti p. 347

(٦) الالوسي : بلوغ الارب ج ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، يشير البخلاء للجاحظ ص ٣١١ الى صناعات الخيم في البصرة .

كانت الحصر الجيدة تصنع في ميسان (١). وكانت الحصر المصنوعة في بغداد مضرب المثل في جمالها (٢). وكان أكثر أهل عبادان يشتغلون بصناعة الحصر ، وكانوا يصنعونها من الخلفاء (٣). وكانت بعض الحصر المصنوعة في عبادان رقيقة منسوجة بدقة وأناقة ، ناعمة يمكن طيها كما تطوى الملابس (٤). وكانت الحصر تصنع من البردي والقصب وسعف النخيل والخلفاء (٥). وكانت النقوش على الأقمشة متنوعة ، وهي بين نقط ، وخطوط ، ومشجرات ، وصور ، وكتابات (٦).

وكان الحاككة شديدي المحافظة فاستمروا يستعملون أدواتهم التقليدية (٧). ولكن تقلهم بصورة متكررة من منطقة إلى أخرى ساعد على انتشار أساليب مختلفة وطرق فنية متنوعة إلى مختلف أنحاء البلاد الإسلامية (٨).

الصبغة — إن تنوع الألوان في الأقمشة يدل على فن راق في الصبغة (٩). فاللون الاسود كان الشعار الرسمي ، كما أن اللون القرمزي كان لون السلاطون (١٠)، والاخضر شعار العلويين ، في حين أن الملابس الصفراء المصبوغة بالزعفران كانت

(١) التوبري ج ١ ص ٣٧٠

(٢) التعلالي : نمار القلوب ص ٤٢٨

(٣) المقدسي ص ١١٨ ، التوبري ج ١ ص ٣٧٠

(٤) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٣٦

(٥) غنية : مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٥٨٠

(٦) Survey of persian art III px 2090 - 2091

(٧) الآلومي : بلوغ الاربع ج ٣ ص ٤٠٥-٤٠٦ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ،

الدهشتي : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٢٥ .

(٨) اليعقوبي ص ٢٦٤ و Survey of persian art III p 2176

(٩) يقول H. Jacoby : « ان الصباغين م أم عامل ، بمد الصوف ، في عمل السجاد »

S. P. A. III 2459

(١٠) غنية - ن . م ص ٥٦٩

محبوبة لدى المغنين . وكان الناس يتبارون في لبس الملابس الزاهية ، المتنوعة الالوان ، في حفلاتهم المسائية (١) .

وكانت الأصباغ ، باستثناء القرمز ، نباتية . وكانت النيلة تستعمل لكل أنواع الزرقة ، كما كانت (الفؤة) تستعمل لكل أصناف الحمرة من اللون الوردي الفاتح إلى اللون الرماني (٢) . وكانت واسط أشهر محل للصبغ بالقرمز (٣) . وكان قشر الرمان يستعمل لتكوين صبغ أصفر جميل ، رخيص ، ثابت اللون (٤) . وكانوا يخلطون الفؤة بالدباغ بنسب مختلفة ، لتكوين أصباغ يتراوح شكلها بين اللون القرمزي والقرمي . وكان الزعفران يستعمل لتكوين صبغة صفراء ممتازة .

وكان الصباغون يتقنون في مهنتهم ، وبعضهم يختص بالصبغ بصبغة واحدة مثل (الفؤة) و (النيلة) . وكانت الأصباغ المركبة تكون بخلط الأصباغ الأولية (٥) .

وكانت صناعة الفخار قديمة جداً في العراق . وكانت الأدوات المعمولة من الفخار هي الأدوات الشائعة قبل إدخال المعدن والزجاج في الحياة الاعتيادية . ولقد وصل فن صناعة الفخار أوجه من السكال في العراق (٦) . وتصنع من الفخار ، الجرار الكبيرة والصغيرة للماء وللتبديد ، وكذا الأواني والكؤوس ، والسرر ، والحباب بأشكال مختلفة ، وهذه كلها تعمل من الفخار غير المزجج (٧) . وهي اما بسيطة أو مزينة بالنقوش (٨) .

(١) الوشاء - كتاب الموشى ص ١٢٣

(٢) Survey of persian art III p . 2459 - 61

(٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٣٩

(٤) ن . م . ص ٣٤٢ ، المقدسي ص ٩٧

(٥) Surve. of persian art, vol. III p. 2459 - 61

E. I. Supplement p. 44 (٦)

(٧) ibid p. 44 البخله : للجاحظ ص ٢١٨ ، غنيمة - ن . م . ص ٥٦٩ - ٥٧٠

(٨) E. I. Suppl. p. 44 ، الصولي - اخبار الرازي والمتقى بالله ص ١٢٧ ، غنيمة ن . م .

وتفنن العراقيون في صنع الخزف ، حتى كانت مصنوعاتهم منه مشهورة . ويشيد مؤلف (حدود العالم) بالخزف البغدادي ^(١) . ويتحدث أبو القاسم البغدادي (حوالي ٥٣٠٦ هـ) عن « غضاثر » بغداد الجميلة ذات الألوان الزاهية ^(٢) . وكانت الحيرة تصنع الجرار والأواني الزاهية الألوان ^(٣) . ولما بنى المعتصم سامراء ، جلب إليها صناع الخزف من الكوفة والبصرة ^(٤) ، مما يدل على تفوق هاتين المدينتين في صنع الخزف . وقد اشتهرت بلدة (نهر الدير) قرب البصرة بصنع الغضاثر ^(٥) .

ويعتبر القرنان الثالث والرابع الهجريين فترة لامعة في تاريخ صناعة الفخار والخزف في العراق . فبالإضافة إلى جمال الصناعة في هيئة الخزف ، ارتقى التفنن في التزجيج ، وفي استعمال الألوان ، البسيطة منها والمتوجة ، رقياً كبيراً ^(٦) . وقد « وصلت غايتها في الفن وجمال الصناعة في سامراء » ^(٧) .

ويجدر بنا أن نذكر أن الدكاترة سار (Sarre) وهرتسفيلد (Herzfeld) والمسيو پيزار (Pèzard) يرون أن فن التزجيج الملون نشأ في العراق وانتشر منه إلى سورية ومصر وإيران ^(٨) . وتدل البقايا الخزفية التي وجدت في آثار سامراء على تنوع كبير في الألوان البراقة : منها اللون الذهبي اللامع ، والأحمر الغامق

(١) H. A. p. 138

(٢) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٣٧

(٣) غنيمة : الحيرة ص ٨١

(٤) اليمقوني - البلدان ص ٢٦٤ . وهذا لا يترك محلاً لادعاء الأستاذ بتلر (Mr. Butler) بأن المعتصم جلب عمال الخزف من مصر كما يبين في كتابه Islamic pottery, london, 1926

(٥) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٨٣٩ . ولتوضيح معنى الغضاثر ، انظر حدود العالم ص ٣٨٤ ومعالق القرية ص ٨٩ - ٩٠ (من الترجمة الانكليزية) .

(٦) Butler p. 39

(٧) ibid, p. 37

(٨) Quoted in Butler p. 37 , p. 35

البراق ، والأخضر ، والعقيق البراق ^(١) . وأما الخزف الذي وجد في الرقة فهو أحمر يحاطه اللون القهوائي ^(٢) .

ومن الأدوات الخزفية ، كاسات عميقة ومسطحة ، وأواني مختلفة الشكل : مخروطية وكروية ومحدبة ، وكؤوس صغيرة ^(٣) ، وسرج ^(٤) . أما النقوش فكانت عادة تخطيطات مشجرة ، وكتابات كوفية ، وأزهار ^(٥) ، وصور في بعض الأحيان ^(٦) . وكان القاشاني العراقي ممتازاً ومشهوراً لدرجة أن كمية منه أرسلت من بغداد إلى القبروان سنة ٢٢٨ هـ / ٨٦٢ م لتزيين مسجدها ، ولا يزال هذا القاشاني (السكاشي) بهجة الناظرين لحد الآن ^(٧) .

الزجاج — وكان الزجاج يصنع من نوع خاص من الصخور الرملية ^(٨) . وقد ورث العرب هذه الصناعة ولكنهم حسنها ، فقد زادوا في نسبة الصخور الرملية في صنعه ، فصار زجاجهم أقوى من الزجاج الروماني ^(٩) . وقد صنعوا الأقداح ، والأواني والكؤوس والقناديل من الزجاج ^(١٠) ، واستعملوا الزجاج المنقوش بصورة فنية للشبايك واستخدموا الجليس لتثيته . وزينوا الأدوات

(١) Butler, p. 39

(٢) Pier p. 2

(٣) ibid p 9 - 10

(٤) الجاحظ - البخله ص ٣٦ و ص ٣٧

(٥) Pier p. 2

(٦) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ١٢٧

(٧) المقتطف ١٩٣٢ ص ٤٥٩

(٨) الجاحظ - الدلائل والاعتبار ص ١٥

(٩) لقد استفدت من رسالتين خطيتين تفضل السيد س . بهجت باطلاعي عليهما . فالأولى رسالة كتبها السيد المذكور في تاريخ صناعة الزجاج في مصر . والثانية نسخة (على الآلة الطابعة) لاطروحة في نفس الموضوع عنوانها « صناعة الزجاج في مصر - القاهرة ١٩٠٨ » كتبها د . د . بارودي . وكلتا الرسالتين تشير الى صنع نقود وأوزان زجاجية في مصر ، فالنقود خضراء باهتة اللون ، والأوزان خضراء غامقة .

(١٠) الجاحظ - البخله ص ٣٧ ، الأغاني ج ٣ ص ٤٧

الزجاجية برسم المشجرات والكتابات عليها ، أو بحفرها فيها . وكانت الألوان المستعملة عادة ، اللون الذهبي ، والأحمر ، والأخضر ، والأبيض ، والأزرق ^(١) . وقد رسمت على الاقداح صور حيوانات ، وصوراً بشرية ، وحتى مناظر صيد في بعض الاحيان ^(٢) .

وكان الزجاج العراقي معروفاً خارج العراق ، حتى وصلت شهرته الاندلس حيث كان يسمى Iragi (العراقي) ^(٣) . وقد شاهد ابن جبير في السكبة قناديل من الزجاج العراقي تزينها نقوش جميلة ^(٤) .

وقد برعت بغداد في صنع الأواني والاقداح الزجاجية ^(٥) . وتورد إشارات إلى وجود معامل للزجاج في البصرة ^(٦) ، والقادسية (بين حربي وسامراء) ^(٧) ، ولمدة من الزمن في سامراء ^(٨) .

واشتهرت النجف ببلورها ، وكان يصنع منه الخواتم ، وبعض أنواع القناديل ، وبعض أدوات الزينة . ولصلة هذا البلور بالنجف ، فقد اشتهر باسم در النجف (أو در نجف) ^(٩) .

الصياغة — وقد تقدم فن الصياغة لزيادة الترف في المجتمع . وبالإضافة إلى أدوات

(١) راجع م ٩ من ص ٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٤٧ ، ويقول أبو نؤاس في وصف صور على كأس شراب :
« قراتها كسرى وفي جنباتها
مهي تدبرها بالقسي الفوارس »

(٣) غنيمة ن . م . ص ٥٧٢

(٤) ابن جبير ص ٨١

(٥) ابن الفقيه ص ٢٥٣

(٦) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٤

(٧) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٩

(٨) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٤

(٩) غنيمة ن . م . ص ٥٧٧

الزينة الاعتيادية التي تصنع للسيدات ^(١) ، فقد كانت تصنع بعض الأدوات من الفضة والذهب للاغنياء ، وكانت تزين بالكتابة بصورة فنية ^(٢) ، كما أنها كانت ترصع أحياناً بالجوهر ^(٣) . وكان لصياغ العراق شهرة واسعة . وقد رأى أحد السواح ، في قصر أمير لاهور الهندي أواني ذهبية وفضية من صنع العراق ^(٤) .

وكان الخلفاء عادة هم السباقون في الترف . ففي ليلة زواجه بيوران ، فرش المأمون بساطاً حيك من خيوط الذهب ^(٥) . وكان الذهب والفضة يستعملان لتزيين القاعات أحياناً ^(٦) . وكان للمقتدر أربعمائة سرج من فضة وذهب في اسطبله ^(٧) . وكانت فريدة العصر ، الشجرة المشهورة ، التي سمي (قصر الشجرة) باسمها . وكانت هذه شجرة من الفضة والذهب يبلغ وزنها خمسمائة ألف درهم وعليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفر كلما هبت الريح . ولما رآها رسول الامبراطور البيزنطي إلى المقتدر « كان تعجبه من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده » ^(٨) .

الحداذة — كان الحدادون يصنعون شبايك الحديد ، والسيوف ، والدروع ، والحوذ الحديدية ، والكراسي ، وغير ذلك ^(٩) . كما كانوا يصنعون الأدوات الهندسية ^(١٠) . وكان الصقارون يصنعون القدور من حجوم مختلفة ، ويصنعون

(١) الابشيهي - المستطرف ج ٢ ص ١٧٥ « القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ »

(٢) الوشاء - المؤتى ص ١٨٨ - ١٩٠

(٣) الثعالي : لطائف المعارف ص ٧٣ - ٧٤

(٤) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ٢ ص ٦١ و ص ١٧٣ - ٩ « الترجمة الانكليزية » .

(٥) الثعالي : لطائف المعارف ص ٧٣

(٦) الخطيب البغدادي ص ٥٠

(٧) ن . م . ص ٥٣

(٨) ن . م . ص ٥٢ و ص ٥٤

(٩) ن . م . ص ٥٥ ، غنيمة ن . م . ص ٥٧٣

(١٠) المصري - زهر الآداب ج ٢ ص ١٠٥ - ١٠٦

الاولائي والجرار ، والابواب النحاسية ، والقناديل والشمعدانات وغيرها ^(١) .
 « واستخدم النحاس ، والصفر ، والبرنز ، والحديد ، والفولاذ . . لصنع أنواع من
 الادوات متنوعة لدرجة تثير الدهشة . . وقد شمل فن التزيين : الخفر ، والتليس ،
 والتطعيم ، ونقش الحافات بنقوش ظاهرة صلبة أو جوفاء . . بالاضافة إلى التذهيب
 والترصيع » ^(٢) .

وقد اشتهرت الموصل بصنع الاسطال والسلاسل والتشاب والسكاكين ^(٣) .
 وكانت حران مركز صنع الآلات الرياضية والهندسية الدقيقة ^(٤) ، وأهمها
 الاسطربلاب . وكان الاسطربلاب يصنع عادة من البرنز أو النحاس ، ويستعمل
 لغرض قياس ارتفاع النجوم والقمر والشمس ، ولغرض تعيين بعض القياسات
 الرياضية والطوبوغرافية ، دون اللجوء إلى المعادلات أو الاعمال الحسابية ^(٥) . وكانت
 موازين حران مشهورة أيضاً ^(٦) .

التجارة — وكانت التجارة صناعة مهمة . وكان التجارون يصنعون الكراسي ،
 والمناضد ، والابواب ، والسقوف الخشبية ، ويزينوها أحياناً بنقوش جميلة ، خاصة إذا
 كانت من خشب الساج ^(٧) . وكانت قطع الخشب تسمر بالمسامير ، أو تدخل نهاياتها
 ببعضها بصورة فنية ، ثم تصقل حتى يظهر الكل قطعة واحدة ^(٨) . وكانوا يصنعون

(١) طيفور ص ١٧٩ : Survey of Persian Art, III p. 2472

(٢) Survey of Persian Art, III p. 2477

(٣) المقدسي ص ١٤٥

(٤) ابن الفقيه ص ١٣٢

(٥) Survey of Persian art III p. 2530

(٦) المقدسي ص ١٤٥ ، التنوخي ج ٨ ص ١٦

(٧) ابن خلدون — المقدمة ص ٣٤٢ — ٣ ، حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٣٦ ، الخطيب

البغدادي ص ٦٣

(٨) ابن خلدون — المقدمة ص ٣٤٣

كؤوساً خشبية في دير الجاجم (قرب السكوفة) ، وكان استعمال هذه الكؤوس شائعاً^(١) . وتصنع بعض الآلات الموسيقية من الخشب ، فمثلاً كان العود الثمين يصنع من الآبنوس ويطعم بالعاج^(٢) . وكان النجارون يصنعون بعض أدوات القتال ، كالاقواس والسهام والرماح ، وأدوات الحصار كالمجانيق^(٣) .

وكانت صناعة القوارب والسفن نشيطة وواسعة ، وتستعمل هذه القوارب للنزهة أو للسفر أو للحرب . وكان في الابلّة كثير من دور صناعة السفن^(٤) . ويذكر أبو القاسم البغدادى أربعة عشر نوعاً من القوارب ، التي كانت تستعمل في بغداد حوالي سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م^(٥) ، ينما يسمى المقدسي ستاً وثلاثين نوعاً من القوارب والسفن^(٦) . وكانوا يتفننون في صنع قوارب النزهة ، مثل حرّاقات الامين ، التي صنعت على هيئة الاسد والفيل والصقر والزرافة والدلفين^(٧) .

الصابون والدهون والعطور : يجب أن تقدّر أهمية صناعة الصابون بضوء الاهمية التي كانت للحمامات في الحياة الاجتماعية . واذا رجعنا إلى الخطيب البغدادى نجده يخبرنا بأن أهالي بغداد وحدها كانوا يحتاجون مليوناً ونصف مايون رطل من الصابون ليلة عيد الفطر ، لأن الفرد الواحد يحتاج في تلك الليلة - في رأيه - إلى رطل واحد^(٨) .

وكان الصابون يصنع بهيئة قطع جامدة^(٩) ، وتستعمل النورة أحياناً

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ٦٥٢

(٢) حكاية ابي القاسم البغدادى ص ٥٥ و ٧٥

(٣) ابن خلدون - المقدمة ص ٣٤٢

(٤) غنيمة ن . م . ص ٨٢

(٥) حكاية ابي القاسم البغدادى ص ١٠٧

(٦) المقدسي ص ٣١ - ٣٢

(٧) غنيمة ن . م . ص ٨٢

(٨) الخطيب البغدادى ص ٧٥

(٩) ابن ابي اصيبعة - طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٦٤

في تحضيره ^(١) . وكان لصناع الصابون محلة خاصة في بغداد في جهة الكرخ ^(٢) .
إلا أن أعظم مراكز صناعة الصابون في القرن الرابع الهجري كان في الرقة ^(٣) .
وكانت صناعة العطور، وماء الورد، واستخلاص الادهان من النباتات والبدور
واسعة . ويستفاد منها في الطب وفي الطيب ^(٤) . ومن جملة الدهون التي كانت
تصنع، الزيت (زيت الزيتون) والشيرج (زيت السمسم) ^(٥) ، ودهن اللوز ^(٦) ،
ودهن الخروع ^(٧) . وقد اشتهرت حران بالزيت ^(٨) . وكانت بغداد تفتج
الشيرج وأنواع الزيوت ^(٩) ، وكان لها سوق خاص للعطور ^(١٠) . وكانت البصرة
والكوفة تصنع ماء الورد، ودهن البنفسج المشهور ^(١١) .

الدباغة وصناعة الاحذية : عن العراقيين بالاحذية بصورة خاصة . ويعدد
الوشاء المتوفى سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م سبعة أنواع من الاحذية البديعة ، من ألوان
مختلفة ، بعضها لونها واحد : وهي سوداء وحمراء وصفراء ، وبعضها ذات لونين : أحمر
وأصفر ، وأسود وأصفر ^(١٢) .

(١) الجاحظ - البخل - ص ٢٢٣

(٢) الخطيب البغدادي ص ٦٧

(٣) المقدسي ص ١٦٠

(٤) غنيمة ن . م . ص ٥٨٠

(٥) معالم القرية - لابن الاخوة القرشي ص ٢٢٨

(٦) ابن أبي اصيبعة - طبقات الأطباء ص ١٦٩

(٧) ن . م . ج ١ ص ١٦٠

(٨) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ١٢٣

(٩) المقدسي ص ١٦٠ ، H. A. p 138

(١٠) ابن أبي اصيبعة - طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٦٤

(١١) الاصلطخري ص ١٥٣ ، المقدسي ص ١٢٨ و ١٣٠ ، ابن الفقيه ص ٢٥٢ ، ابن أبي اصيبعة

ج ١ ص ١٤٩ . ولما بنى المعتصم سامراء جلب صناع الزيت من الكوفة ، اليعقوبي ص ٢٦٤

(١٢) الوشاء - الموشى ص ١٢٥

ويذكر الثعالبي أن بيت الاسكاف يضرب به المثل فيقال : « بيت الاسكاف فيه من كل جلد رقعة ومن كل ادم قطعة » ^(١). وكانت البصرة تنتج أحذية جيدة ^(٢). واختصت بغداد بصنع نوعين ممتازين من الجلود ، (الدارش) وهو جلد أسود ، و (الأسكاع) وهو جلد أحمر ^(٣). واستعمل صناع الجلود قشور الرمان للصبغة ^(٤). وقد كانت مهنة الصباغة مستهجنة بنظر الناس ، وربما كان ذلك نتيجة الرائحة الكريهة المتصلة بهذه الصناعة ^(٥).

صناعات أخرى : وكان النبيذ يصنع في العراق . ولنبذ قطربل شهرة خاصة ^(٦). واهتم الناس بحفظ الفواكه وذلك اما بتجفيفها كما هو الحال مع التين والزبيب وحب الرمان ^(٧)، أو بوضعها في العسل والشربت كما هو الحال مع التفاح ^(٨). وكانت الجزيرة مركزاً هاماً لتجفيف الفواكه ^(٩). وكانوا يحفظون أنواعاً أخرى من الاطعمة نذكر منها اللحم المسمى بالقديد ، والجبن ^(١٠). وكان سواد الموصل مشهوراً بحفظ الجبن ^(١١).

(١) الثعالبي - نمار القلوب ص ١٩٣

(٢) H. A. p. 139

(٣) ابن الفقيه ص ٢٥٣

(٤) الجاحظ - البخل ص ٢٣٧

(٥) حكاية ابي القاسم البغدادى ص ١٣٨ و ص ٣

(٦) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٧٤ ، H. A. p. 138

(٧) الدهشقي - الاشارة الى محاسن التجارة ص ٣٤

(٨) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٧٤

(٩) المقدسي ص ١٤٥

(١٠) الجاحظ - البخل ص ٥٨

(١١) المقدسي ص ١٤٥

وتوجد إشارات إلى صنع الأدوية والعقاقير ، نذكر منها الزنجفر، والزنجار،
والمرداسنج (١) .

وفي الختام نشير إلى مهنة نسخ الكتب وتجليدها . وكان نسخ الكتب يعتبر
ناحية من مهنة الوراقين (باعة الكتب) (٢) .

(١) ن . م . ص ١٢٨
(٢) ابن خلدون - المقدمة ص ٣٥٢

الفصل الرابع

التجارة

فصل الفصل :

أولاً - المقدمة :

- أ - أهمية التجارة في الأدب : (١) الجاحظ - « التبصر بالتجارة » و « رسالة في مدح
التجار » . (٢) الجغرافيون (٣) النعماني (٤) الشيباني - كتاب الخراج والحيل .
(٥) الدمشقي - الإشارة الى عاسن التجارة . (٦) كتاب آخرون .
ب - آراء في التجارة .

- ج - العوامل المشجعة للتجارة : (١) موقع العراق الجغرافي (٢) تشجيع الدولة (٣) التقاليد
الاسلامية (٤) نمو وسائل الاعتماد .

- العوامل المثبطة : (١) احتقار الاقتصاد (٢) مكانة التجارة في المجتمع (٣) تحريم الربا .

ثانياً - التجار :

- أ - ابن الجصاص ، كتل لتاجر .

- ب - أصناف التجار : (١) الركاض (٢) الخزان (٣) التجيز .

ثالثاً - الاعتماد :

- أ - انواع الاعتماد : (١) المضاربة (٢) السلف المؤجل (٣) الاستسلاف المنجم .

- ب - المتعاملون بالاعتماد : (١) الصرافون (٢) التجار (٣) الاعتماد المقعد - التحويل والسفتجة
(٤) اقراض التجار للدولة .

رابعاً - الأسواق المحلية :

- أ - اسواق بغداد ب - اسواق البصرة ج - اسواق الموصل د - اسواق الحسكة
هـ - المدن في اسواق الريف المحيطة بها .

خامساً - الصادرات والواردات :

- (١) الصادرات (ب) الواردات ، من : (١) ايران (٢) ما وراء النهر (٣) الهند (٤) التبت
(٥) الصين (٦) الشام (٧) الجزيرة العربية (٨) اليمن (٩) مصر (١٠) شمال افريقيا
(١١) ارمينيا (١٢) بلاد الروم .

سادساً - المواصلات الداخلية :

- (١) النقل بطريق النهر (ب) خطوط المواصلات البرية ، البريد .

سابعاً - : العلاقات الخارجية :

- أ - التجارة البحرية : (١) سفن التجارة (٢) الهند - سومطرة (٣) الصين - كوريا (٥) البحر الأحمر - شرق افريقية (٥) المستعمرات التجارية .
- ب - التجارة البرية : (١) الطريق من بغداد الى خراسان ، ثم الى ممرقند وهناك يقشرب الى فرعين : الفرع الشمالي الى خوارزم وبلغار والخزر والروس ، والفرع الشرقي الى الصين والتبت . التجارة البرية مع الهند . (٢) التجارة مع الجنوب والغرب : الشام ، الجزيرة العربية ، شمال افريقية . (٣) المستعمرات التجارية .
- ج - النقد والتجارة الدولية .

١ - بعض ما كتب في التجارة :

يدل عدد المؤلفات عن التجارة على أهميتها ، خاصة إذا قورنت بقلة ما كتب عن النواحي الأخرى للحياة الاقتصادية . وقد كان الجاحظ (المتوفي سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) أول من كتب في هذا الموضوع بشيء من التفصيل . فقد كتب رسالة للتجار بعنوان « كتاب التبصر في التجارة » بدأها بذكر بعض المبادئ العامة في التجارة ، ثم تناول الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعطور والثياب وبعض المنسوجات ، ثم تحدث عن واردات العراق وعن أنواع طيور الصيد ^(١) . وكتب الجاحظ كذلك « رسالة في مدح التجار وفي ذم خدمة السلطان » ^(٢) . ويظهر أن هذا الكاتب الواسع الأفق أدرك بثاقب نظره القوة النامية لطبقة وسطى جديدة .

وإذا نظرنا في كتب الجغرافيين المعاصرين ، مثل ابن خرداذبه ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وابن رسته ، واليعقوبي ، وابن الفقيه ، والمسعودي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، ومؤلف حدود العالم — نجد أنهم كتبوا في المنتجات المحلية ، ووصفوا طرق المواصلات .

(١) نشره الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب الصمادحي ، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٢

س ٣٢١ - ٣٥١ ، دمشق ١٩٣٢ تم نشر منفصلاً .

(٢) رسائل الجاحظ ، « الرسالة السادسة » ، القاهرة ١٩٣٤ .

وتناول عبد الملك النعماني (المتوفي ٥٤٢٩/١٠٣٧ م) ، في كتابه «خاص الخاص» ، موضوع التجارة ، إذ جمع الآيات القرآنية والأحاديث والأمثال التي تتعلق بالتجار^(١) . وكتب الشيباني (حوالي سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) كتاباً خاصاً للتجار العراقيين ، شرح لهم فيه الطرق التي يستطيعون بموجبها تجنب القيود الإسلامية في بعض أنواع البيع ، وفي مسألة الربا . وما هذا الكتاب إلا مظهرًا للتصادم بين القوى الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، وبين المبادئ الخلقية والاجتماعية للمجتمع الإسلامي الأول البسيط^(٢) .

وكتب أبو الفضل الدمشقي كتابه الفذ الموسوم بـ «الإشارة إلى محاسن التجارة»^(٣) ، وتناول فيه - بشيء من الاسهاب - أصناف البضائع ، والمعاملات التجارية وأصولها ، والتجار وأصنافهم . وللكتاب أهمية كبرى في دراسة الفكر الاقتصادي عند العرب .

وتوجد كتب أخرى تناول موضوعات خاصة مثل «الجواهر في معرفة الجواهر» لليروني . وقد بدأه الليروني بذكر بعض المبادئ الاقتصادية ، وتناول فيه الأحجار الكريمة بالدرجة الأولى^(٤) . وكتاب «الجواهر وأصنافها» لمحمد بن شاذان الجوهري ، كتبه للخليفة المعتضد . وكتاب كتبه مؤلف مصري في «أجناس الرقيق» . ولم يصلنا من هذه المؤلفات إلا الأول منها^(٥) .

(١) النعماني - خاص الخاص ص ٧٠ . وقد نقل عنه أحمد بن عبد الرزاق المقدسي في كتابه «اليواقيت» ص ٢٧-٣١

(٢) كتاب «التخارج والحيل» . نشره يوسف شاخت ، هانوفر ١٩٢٣

(٣) لسنا متأكدين من تاريخ تأليف هذا الكتاب ، ويرى زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٣٤» انه كتب في العصر البويهي . وقد ترجمه ريتز Ritter الى الألمانية وحلله في Berlin ، 1916 ، "Ein Arabisches Handbuch der Handelstwissenschaft"

(٤) نشره ف . كرنكو في حيدر آباد ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م

(٥) انظر زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٣٤ و 1 - 160 Mez p.

٢ - وترد بعض الأمثلة والأقوال المأثورة - في القرن الرابع الهجري - وهي تلقي ضوء على الفعاليات التجارية ومنها : « رأس المال أحد الربحين » و « الأرباح توفيقات » .
وهذان القولان يشيران إلى مخاطر التجارة .

ومنها « الزاج في كل سوق هو البائع لما ينفق فيها » . وقيل « الموجود من كل شيء رخيص ، بوجدانه ، غال بفقدانه إذا مست الحاجة إليه » . و « ما من شيء كثر إلا رخص » . وهذه الأقوال تدل على إدراك لقوانين العرض والطلب .
ومنها « قيل لبعض المياسير : بم كثر مالك ؟ قال : ما بعت بنسيئة قط ، ولا رددت ربحاً وإن قل ، وما وصل إليّ درهم إلا صرفته في غيرها » . ومن هذا نستنتج أن الاعتماد لم يكن مأموناً تماماً . ومن ناحية ثانية أدرك التجار أن تشغيل المال دائماً مشروع مربح .

وقيل : « التدبير نصف التجارة » . كما أننا نرى الإشارة إلى فائدة التجارة بالجملة في القول التالي : « اشتر لنفسك وللسوق » . ونلاحظ روح المواظبة والمثابرة في القول الآتي : « إذا لم تربحوا في تجارة فاعتزلوا عنها إلى غيرها ، وإذا لم يرزق أحدكم بأرض فليستبدل بها » ^(١) .

٣ - وهناك عوامل ساعدت على نمو التجارة ، نكتفي ببيان أهمها :
منها أن موقع العراق الجغرافي جعله جسراً بين إيران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب ، والجزيرة العربية والشام ومصر والغرب من الجانب الآخر . وهكذا قدر لسكان العراق ، عند توفر الظروف ، أن يصبحوا وسطاء فعالين في تجارة العالم المتمدن ^(٢) .

وقد شجعت الدولة التجار بصورة مباشرة وغير مباشرة . فالخليفة و كبار موظفيه

(١) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٢٦ - ٧ ، الثعالبى خامس الخاس ص ٧٠

(٢) انظر الجاحظ - البخله ص ٣٩ ، والتتوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١

زادوا الطلب على البضائع الأجنبية^(١) ، مما دعى ابن خلدون أن يسمي الدولة « السوق الأعظم للتجار »^(٢) . وقد أيد بعض الخلفاء التجار لحد أنهم أعفوا من بعض الضرائب ، بل وقدموا لهم هدايا نقدية^(٣) .

ثم أن تقوُّد البلاد السياسي وسع مجال فعاليات أهلها التجارية^(٤) .

ثم أن الرسول وخلفاءه الثلاثة الأولين اشتغلوا بالتجارة وبذلك رفعوا من شأنها في نظر المسلمين^(٥) . كما وردت الأحاديث في تحييد التجارة . فهناك حديث يحذر الاشتغال بالتجارة لأن « تسعة أعشار الرزق في التجارة » . ويذهب حديث آخر إلى أبعد من ذلك ، فيضع التاجر الأمين في مرتبة النبيين والصدِّيقين والشهداء^(٦) . وقد ساعد توسع وسائل الاعتماد ، والمؤسسات الصيرفية على تكوين جو مناسب للفعاليات التجارية^(٧) .

وتوجد عوامل واتجاهات كانت تعرقل النشاط التجاري . منها أن التوفير كان ينظر إليه بازدراء ، كما أن الاقتصاد كان يعتبر بخلاً . فكان الناس يهزؤون بالتجار لأنهم يجمعون ثروتهم « من الحبات والقراريط والدوانيق وأرباع الدراهم وأنصافها »^(٨) . وقال أحدهم :

(١) انظر زبدان - التمدن ج ١ ص ٦٧ - ٧٤ و ص ٨٠ - ٨٤

(٢) المقدمة ص ٢٣٩

(٣) النى الوائق للضرائب على البضائع الواردة في البحر الصيني . انظر اليعقوبي - التاريخ ص ٥٩٠

(٤) انظر رحلة ابن فضلان إلى البغداد سنة ٩٢١ - ٩٢٢ م . في معجم البلدان - لياقوت الحموي ، مادة : بلغار

(٥) الجاحظ - البخل ص ٣٠١

(٦) المقدسي - البيواقيت ص ٢٧ ، وانظر أيضاً :

Torrey : The Commercial Theological Terms in The Koran, esp. p. 2 - 3, Manual of Hadith by Muhammad ali p. 294

(٧) انظر فصل « الجبهة والصيرفة » . وسنشرح الاعتماد في قسم نال من هذا الفصل .

(٨) الجاحظ - البخل ص ٢١٤

ما للتجار والسخاء وإنما نبتت لحومهم على القيراط^(١)
 واحتج أحد التجار قائلاً: « لا يقال (لرجل) بخيل إلا وهو ذو مال »^(٢) .
 إلا أن هذا الاحتجاج بحد ذاته دليل على النظرة الأدبية التي ينظر بها أكثر الناس
 إلى جمع المال .

ومن الناحية الاجتماعية ، كان التجار في درجة اجتماعية أوطأ من الأشراف^(٣) .
 فالعائلات الشريفة ابتعدت ، بصورة عامة ، عن الاشتغال بالتجارة . فلما أراد يحيى
 البرمكي الاشتغال بالتجارة ، نصحه أحد التجار قائلاً : « أنت رجل شريف وابن
 شريف ، وليست التجارة من شأنك »^(٤) . وكان الوزير المشهور محمد بن عبد الملك
 الزيات يقول : « إن أمير المؤمنين . . نقلني من ذل التجارة إلى عز الوزارة »^(٥) .
 ويذكر عن الوزير ابن الفرات أنه وصف ابن الجصاص ، أشهر تجار القرن الرابع
 الهجري ، بأنه « رقيق عامي »^(٦) .

ولكن يجب أن لا يبالغ في أهمية هذه النظرة . فعامة الناس كانوا يحترمون
 التجار ، وحتى الأشراف كانوا بحاجة إلى إرضائهم لما عندهم من الثروات^(٧) .
 ولقد حرم الاسلام « الربا »^(٨) . وكان معنى الربا أولاً ، الزيادة على الدين .

(١) المقدسي - اليواقيت ص ٢٨

(٢) الدمشقي - الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٦٧

(٣) ابن خلدون - المقدمة ص ٣٣١

(٤) الجهمياري - الوزراء والسكرتاب ص ١٨٦

(٥) التعالي - خاص الخامس ، ص ٥

(٦) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٦٣

(٧) الدمشقي ص ٦١ و ص ٤٧ و ص ٦٨ ، التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٨ - ٢٢

(٨) جاء التحريم قوياً مؤكداً ، قال تعالى : « واحل الله البيع وحرم الربا » و « يمحى الله الربا ويربي الصدقات » و « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم
 مؤمنين . فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » [القرآن : سورة ٢ آية ٢٧٥ - ٢٨٠]

ثم صار يعني « كل زيادة غير مشروعة ، تؤخذ دون مقابل » ^(١) . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى منع استعمال السفتجة ، لأن مرسلها - الذي يعتبر صاحب القرض - يرجع فائدة التخلص من أجور النقل ^(٢) . وحتى الدفع المؤجل لم يسمح به إلا في حالات الشدة ^(٣) .

وعلى الرغم من وجود اختلاف بين الفقهاء في تفاصيل موضوع الربا ، فإن النظرة السائدة هي أن الربا يكون في النقود وفي المواد الغذائية ، « إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام » . فـ « على الصيرفي أن يحترز من النسبته والفضل » في المعاملات بالنقود . و « أما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التفاضل في المجلس ، اختلف جنس الطعام المبيع بالمشتري أو لم يختلف » ^(٤) .

لقد كان منع الربا عاملا يذكر في عرقلة نمو الصيرفة والاعتماد . ولكن هذه المشكلة خففت بطريقتين : الأولى هو أن الصرافين وأصحاب البنوك كانوا بالدرجة الأولى من غير المسلمين . والثاني هو أن توسع العلاقات والحاجات الاجتماعية ونموها دفع الفقهاء إلى إيجاد وسائل مشروعة للخلاص من هذه المشكلة . فالشيباني - في كتابه « المحارج والحيل » - سمح عمليا ببيع البضائع دون رؤيتها ، وأجاز التأخير في الدفع ، ونقل الديون ، وتخفيف الدين في حالة الدفع المعجل ، والدفع بأقساط ، وأهم من كل ذلك أجاز أخذ الفائض . واقترح « بيع العينة » لتسوية الفائض . فإذا أراد (س) أن يقترض من (ص) بفائض ، فإنه يبيع (ص) بضائع شكلية بقيمة تساوي القرض المطلوب ، ويستلم هذه القيمة حالا . ثم يعود (ص) فيبيع (س) نفس البضائع بمبلغ

(١) انظر E. I. art. Riba, vol. III p. 1149

(٢) انظر فصل « الجبهة والصيرفة » لتوضيح معنى السفتجة . انظر أيضاً E. I, III p. 1150

(٣) (سورة ٤ ، آية ١٦١)

(٤) معالم القرية - لابن الاخوة القرشي ص ٦٨ . يعطي تفصيلا مأخوذة من كتاب احياء علوم

الدين للقرطبي ج ٢ ص ٦٣ - ٤

بساوي مقدار القرض الذي أعطاه مضافا اليه الربح المطلوب ، على أن يكون الدفع في وقت تال يتفق عليه . وهكذا يحصل (ص) على الفائض الذي يريده عن المبلغ الذي أقرضه ^(١) .

أما احتكار المواد الغذائية ، لغرض تأخير بيعها حتى يرتفع السعر ، فكان ممنوعاً شرعاً ^(٢) . ولكن التجار أهملوا هذا القيد في الغالب وصار للاحتكار دور هام في الفعاليات التجارية ^(٣) .

ومما يجلب الانتباه ، أن الاحتكار - في غير المواد الغذائية - لم يكن مألوفاً في العراق ، مع أنه لم يكن ممنوعاً . وأقرب شيء اليه هو الضمان . فيخبرنا الصولي عن رجل ضمن النقل النهري بين بغداد والبصرة سنة ٣٢٦هـ / ٩٤٠م ^(٤) . ولم تكن الدولة تحتكر شيئاً عدا المنسوجات الرسمية ، أو الطراز ، للخليفة ^(٥) . وينفرد عضو الدولة في أنه أوجد نوعاً من الاحتكار لصنع القز (وهو نسيج حريري) وعمل الثلج ^(٦) .

ثانياً - التجار :

كان التجار يشتغلون بشراء وبيع البضائع التي يحتاجها الناس عامة ، إلا أن تجارتهم كانت ، بالدرجة الأولى ، في أدوات الترف كالبلسط والجواهر والرقيق ^(٧) .

(١) الشيباني ص ٦-٧ . ويقترح الشيباني طرقاً أخرى ولكن هذه أهمها . وانظر البخلاء للاجاحظ ص ٢١٨ ، وخاصة م ٥ .

(٢) معالم القرية ص ٦٦ - ٧ .

(٣) انظر : مسكويه ج ١ ص ٧٣-٧٥ . ويرى المقرئ ان الاحتكار ، كان السبب الرئيسي لعدة مجاعات في مصر . اغانة الامة ص ١٦ - ٤١ وخاصة ص ١٧ و ص ٢٦ .

(٤) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ٢٠٦ .

(٥) انظر زبدان ج ١ ص ١٢٤ وما بعدها .

(٦) ابن الاثير ج ٩ ص ١٦ .

(٧) يظهر هذا من محتويات كتاب التبصر بالتجارة للاجاحظ وكتاب الاشارة الى محاسن التجارة للدمشقي

وكانت سوقهم تعتمد في الدرجة الأولى على كبار الموظفين وعلى الأغنياء ، كما أن حالة تجارتهم وأرباحهم كانت تعتمد كثيراً على الأوضاع السياسية .

ولأجل أن تقيم حالة التجار في هذه الفترة ، نسبنا أن نأخذ التاجر المشهور ابن الجصاص مثلاً لذلك .

كان ابن الجصاص تاجراً عراقياً يتعاطى بيع الجواهر . ثم رحل إلى القسطنطينية في زمن الأمير الطولوني خارويه (٨٨٣ - ٨٩٥ م) . ثم اتصل بالأمير الطولوني ، فقال حظوة عنده ، وقربه الأمير وجعله وكيله الوحيد لتجهيز البلاط بالأحجار الكريمة ^(١) . ثم يحدثنا ابن الجصاص نفسه عن ارتفاع ثروته فيقول : « كان بدء إكثاري اتني كنت في دهليز أبي الجيش خارويه بن أحمد بن طولون ، وكنت أتوكل له ولهم في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاج إليه ، وما كنت أكاد أفارق الدهليز لاختصاصي بهم . فخرجت إلي قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائتا حبة ، لم أر قبله أحسن منه ولا أوفر ، تساوي كل حبة ألف دينار عندي . فقالت : نحتاج أن نخرط هذه حتى تصغر فتجعل لأربع عشرات اللعب . فكذبت أن أطير وأخذتها وقلت : السمع والطاعة ، وخرجت في الحال مسروراً على وجهي وجعت التجار ولم أزل أشترى ما قدرت عليه إلى أن حصلت مائة حبة أشكال ، في النوع الذي أرادته . وجئت بها عشيّاً ، فقلت : إن خرط هذا يحتاج إلى زمان وانتظار ، وقد خرطنا اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا (ودفعت إليهم المحتدع) ، والباقي نخرط في أيام . ففنتعت بذلك وارتضت الحب . وخرجت فما زلت أياماً في طلب الباقي حتى اجتمع ، فحملت إليهم مائتي حبة قامت عليّ بأنمان قريبة تكون دون مائة ألف درهم أو حوالها ، وحصلت جوهرًا بمائتي ألف دينار » . ثم يستطرد ابن الجصاص فيقول : « وأخذت لنفسني غرفة كانت فيه (أي الدهليز) فجعلتها مسكني . قال :

فلحقني من هذا أكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهت إلى ما استفاض خيره ^(١). وفي سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ، زوج خارويه ابنته إلى الخليفة المعتضد ، فاستدعى ابن الجصاص و « أجرى أمر الجهاز على يده فخراف الأموال بغير حساب » . وتظهر مقدار فائدة ابن الجصاص ، من أنه أفرغ خزائن خارويه حتى قال هذا : « لعن الله ابن الجصاص ، أفقرني في السر » ^(٢) .

ثم نقل ابن الجصاص مركزه إلى بغداد سنة ٨٩٥ م ، وهنا زادت ثروته واتسع نفوذه . وسارت أموره من جيد إلى أجود حتى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، حين حصلت فتنة ابن المعتز ، واتهم ابن الجصاص بآيواء ابن المعتز ، فصودرت أمواله في تلك السنة ^(٣) . وقد اختلف في مقدار ما خسره بهذه المصادرة ، فابن الجصاص يدعي أنه خسر عشرين مليون دينار ، أما المؤرخون فيتراوح تقديرهم للخسارة بين أربعة ملايين ^(٤) وبين ستة عشر مليون دينار ^(٥) ، في حين أن الوزير ابن الفرات قدر المصادرة بعشرة ملايين دينار في النقد والبضائع ^(٦) . ومع ذلك ، فقد اعترف ابن الجصاص بأنه بقي لديه بعد المصادرة ٢٠٠.٠٠٠ دينار ^(٧) .

ثم تحسنت أحوال ابن الجصاص ، وما جاء عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م حتى استعاد

(١) ن . م . ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١ . وتورد القصة نفسها ، باختلاف بسيط ، في فوات الوفيات ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨ . ويذكر فوات الوفيات أن سعر كل حبة : مائة ألف دينار ويجعل ثمن العقد ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار . ويظهر أنه مرتبك إذ أن الثمن السكلي يجب أن يكون ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار . وهذا مبالغة يصعب قبولها .

(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة ، ج ١ ص ٢٦٢

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٧٧ ، التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦ ، مسكويه ج ١ ص ٥ - ٨

(٤) مسكويه ج ١ ص ٣٥

(٥) فوات الوفيات (عن ابن الجوزي) ج ١ ص ١٧٧

(٦) الصابي - الوزراء ص ٢٢٣ ، انظر مسكويه ج ١ ص ٢٣٩

(٧) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦ - ١٧

نفوذه وثروته . وصار الوزير ابن الفرات يخافه ويسعى لهلاكه ، ولكنه كان ذكياً فاستطاع التخلص من مكائد الوزير . إذ أنه زار الوزير سرّاً في الليل ، وطلب إليه أن يكف عن ابدائه ، وقال له : « فان نزلت تحت حكمي في الصلح ، وإلا فعليّ وعليّ » . ثم بين ابن الجصاص تهديده : « وحلفت له بإيمان غليظة ، لأفصدن الخليفة ولأحولن إليه من خزاتي ألف دينار عيّنًا وورقًا ، ولا أصبح إلا وهي عنده ، وأنت تعلم قدرتي عليها ، وأقول له : خذ هذا المال وسلم ابن الفرات إلى فلان واستوزره . وأنظر له أقرب من يقع في نفسي انه يجيب إلى تقليده . . ولا أعتد إلا بعض كتابك فانه لا يفرق بينك وبينهم إذا رأى المال حاضرًا . فيسلمك في الحال لهم ويراني المتقلد بعين من أخذه وهو صغير فجعله وزيراً وغرم منه هذا المال الكثير . وبعثه (الوزير الجديد) أني ربه وولي نعمته ، فيخدمني ويتدبر بتدبري في جميع أمره ، فأسلمك إليه فيفرغ عليك العذاب حتى يأخذ منك الألف دينار بأسرها . فارتاع ابن الفرات لهذا التهديد ، وسأل ابن الجصاص عن طلبته ، فقال : « ان تحلف الساعة بما استحكفك به من الايمان المغلظة انك تكون لي ، لا علي ، في صغير أمري وكبيره ، ولا تنقص لي شيئاً ، ولا تغير معاملتي ، ولا تضع من شيء ، وتزيد في رفعتي وذكري الجليل ، ولا تبغي لي الغوائل ، ولا تدسس علي المسكاره ، ولا تشرع لي في سوء ولا نكبة أبداً ، ظاهراً ولا باطناً وتفعل وتعمل . فاشتطت عليه الأمن من كل ما كنت أخافه . فقال (ابن الفرات) : وتحلف أنت ايضاً بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة والمؤازرة . فقلت : أفعل » . وتم الاتفاق بين الاثنين على ذلك . وفي اليوم التالي « أمر (ابن الفرات) بإنشاء الكتب إلى عمال النواحي بأعزاز وكلائي (ابن الجصاص) وصيانة أشياء وضياعي . وتقدم إلى كتاب الدواوين باخراج كل ما كانوا أدخلوه إليها ، من تغيير رسومي والزيادة عليّ ،

وأن أجري على الرسوم القديمة» (١). وهكذا انتصرت قوة المال على الوزير ،
ويمكن تاجر أن يؤثر على سياسة الدولة . ولعل هذه آخر مناورة مهمة لابن الجصاص ،
الذي توفي سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م (٢) .

ومما مر نستخلص عدة أمور : منها أن ابن الجصاص كان يتعامل بأدوات الترف
فقط كالجواهر والرياش . وأنه لم يكن معروفاً حتى صارت له صلات بالأمير الطولوني
خمارويه وبالحلفاء العباسيين في بغداد ، ومعنى ذلك أن معاملاته الرئيسية كانت مع
الطبقة العليا في الدولة . ثم أن أرباحه كانت طائلة في بعض الأحيان ولا تتناسب
في جسامتها مع رأس ماله . كما نلاحظ أنه كان لديه عادة ، احتياط قهدي يكون جزءاً
مهماً من رأس ماله الضخم (٣) . وبنتيجة هذه الثروة الواسعة ، صار لابن الجصاص
نفوذ واسع يمكنه من تهديد الوزير والتأثير عليه . ومع ذلك فقد كان وضعه غير
مستقر ، وثروته عرضة للمصادرة في بعض الحالات .

وكان التجار أكبر رأسمالي هذا القرن . فقد كان عند أحد الباعة في الجانب
الغربي من بغداد ، من البضائع في حانوته ما يبلغ ثمنه ٣٠٠٠٠٠ دينار (٤) . وبلغت
ثروة تاجر بصري عشرون مليون دينار (٥) . وكان لدى أحد التجار البغداديين
ثمانون ألف دينار مدفونة في بئر (٦) .

ويحدثنا أبو الفضل الدمشقي عن ثلاثة أصناف من التجار :

- (١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٨ - ٢٢
- (٢) فوات الوفيات ج ١ ص ١٧٨
- (٣) يحدثنا الصولي (في مسكويه ج ١ ص ٣٥ م ١) انه لما صودرت اموال ابن الجصاص سنة
٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، وجد عنده مليون دينار موضوعة في جرار خفراء مدفونة في داره .
- (٤) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦١
- (٥) زبدان - التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٤٢
- (٦) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٥٧ . انظر الدمشقي - الاشارة الى محاسن التجارة
ص ٤٧ .

١ - الركاض : وهو التاجر الذي يتعامل مع بلدان مختلفة . وينتظر من هذا التاجر أن يستصحب معه رقعة بأسعار جميع البضائع في البلد الذي يريد العود إليه ، ويضيف إلى ذلك نفقات النقل ، والمكوس اللازم دفعها حتى يوصل البضاعة إلى محل بيعها ، ثم يقارن النتيجة بالسعر الموجود في الرقعة الأولى ، ليتأكد بذلك من ربحه . وإذا دخل الركاض بلدة لا يعرفها فعليه أن يفقش عن الوكلاء المأمونين وأن يفهم السوق لئلا يورط نفسه ^(١) .

٢ - الخزان : وطريقة هذا التاجر أن يشتري البضاعة وقت توفرها ، وكثرة البائعين لها ، وقلة الطلب عليها . ثم يحفظها وينتظر أن تنعكس الظروف ، فتصبح البضاعة قليلة اما لا تقطاع توريدها ، أو لصعوبة نقلها لارتفاع تكاليف النقل ، أو لكثرة الطلب .

ويحتاج هذا الصنف من التجار إلى معرفة « أحوال البضائع في أماكنها وبلادها ، وكثرتها فيها أو قلتها ، ورخصها أو غلائها ، وتوفير ريعها وسلامته أو نقصانه وعطبه ، واقطاع الطريق أو أمنها ، وذلك باستطلاع الاخبار والتقصي من الركبان » . وقد لا يحتاج هذا التاجر إلى السفر ، ولكنه يلزمه أن يكون مطلعاً على أحوال الأسواق ^(٢) .

ويروي التنوخي قصة تلقي بعض الضوء على معاملات التاجر الخزان . فيذكر أن تاجراً بغدادياً شاهد رسولاً قادماً من الرقة يحمل كتباً إلى بعض التجار . فاستطاع الحصول على هذه الكتب ووجد أنها مليئة بالتوصيات لتجار الزيت في بغداد بأن يحتفظوا بما عندهم من زيت وأن لا يبيعوا شيئاً لأن الزيت قل وارتفع سعره . فاستدعى التاجر وكلاءه في الحال وطلب إليهم أن يقترضوا كل ما يمكنهم اقتراضه

(١) دمشق - الإشارة إلى معاشن التجارة ص ٥١

(٢) ن . م . ص ٤٨

من النقود من الصرافين ، وأن يشتروا زيتاً بهذه النقود . فما جاء المساء حتى اشترى وكلاؤه زيتاً بثلاثة آلاف دينار . ثم انه أوصاهم بالاستمرار على الاقتراض ، وعلى شراء الزيت . فاشتروا زيتاً بأربعة آلاف دينار أخرى ، فارتفع سعر الزيت ٥ ٪ . نتيجة هذه العملية . ومع ذلك ، فانهم اشتروا كميات جديدة من الزيت بثلاثة آلاف دينار ، ولما جاء مساء اليوم الثاني لم يبق زيت في السوق . وفي تلك الاثناء اطلع التجار الذين أرسلت اليهم السكتب على محتوياتها ، فأتوا إلى هذا التاجر وقدموا له ٢٠ ٪ ربحاً على الثمن الذي دفعه في الزيت ، ولما رفض عرضوا عليه ربحاً قدره ٣٠ ٪ من الثمن ، ولكنه لم يوافق على البيع . وبعد شهر عرضوا عليه فائدة قدرها ٥٠ ٪ ثم ٦٠ ٪ ولكنه أصر على الرفض . وأخيراً ضاعفوا له الثمن ، فرأى انه من الخطأ أن يرفض مثل هذا الربح ، وباع الزيت الذي اشتراه بعشرة آلاف دينار بمبلغ عشرين ألف دينار ^(١) .

ويقترح الدمشقي على الخزان أن يلاحظ حالة البلد الذي يعيش فيه من حيث الأمن ، والعدل ، وقوة الدولة وضعفها ، وان يوجه سياسته التجارية بضوء الأحوال العامة ^(٢) .

٣ - المحبز : وهذا التاجر لا يسافر من بلد إلى آخر ، بل يكون له وكلاء مأمونون ، يرسل اليهم البضائع لبيعها . ثم أن الوكلاء ، بدورهم ، يشترون له البضائع ويرسلونها اليه . ويشترط في الوكلاء أن تكون لهم خبرة خاصة في البضائع التي يبيعونها وفي البضائع التي يشترونها ^(٣) . وتدل الاشارات الكثيرة إلى الوكلاء

(١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٣

(٢) الدمشقي - الاشارة الى محاسن التجارة ص ٥٠ - ٥١

(٣) ن . م . ص ٥٢ ، الشيباني - المحارج والحيل ص ١١

على أهميتهم في الحياة التجارية ، إذ أنهم كانوا يقومون بما تقوم به فروع الشركات التجارية ، في الوقت الحاضر (١) .

وهناك صنف من الوسطاء في التجارة ، وهم السامسة ، وهؤلاء يفوضون بشراء وبيع البضائع (٢) . وكانت أجور السامسة جيدة . فيروى عن أحد السامسة في بغداد ، أنه كان يحصل على آلاف الدنانير من تاجر خراساني كان يكلفه ببيع بضائع في موسم الحج (٣) .

وكان التجار أحياناً يشكلون شركات ، وقد وردت الإشارة إلى ثلاثة أنواع منها ، وهي :

١ - شركة الضمان : وفيها يساهم التجار برؤوس أموالهم ، ويتعاونون في العمل ، ويشتركون في الربح ، ويتحملون الخسارة ، كل بنسبة رأس ماله .

٢ - شركة المفاوضة : وفيها يتفق المساهمون على إقتسام الربح ، وتحمل الخسارة ، مع أن رؤوس أموالهم تبقى منفصلة .

٣ - شركة الوجوه : وفيها يساهم أحد المتنفذين أو الوجهاء باعطاء اسمه للشركة ، في حين أن الثاني يقوم بالعمل (٤) .

ثالثاً - الاعتماد :

كان التجار يلجأون إلى الاعتماد بكثرة في معاملاتهم . وهناك ، حسب قول الدمشقي ، ثلاثة أنواع من الاعتماد :

(١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٣ ، التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢

ص ٥ ، الجهمشاري - الوزراء والكتاب ص ٣٢٠ ، الشيباني - المحارج والحيل ص ١٤

(٢) الشيباني - المحارج والحيل ص ١١

(٣) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١

(٤) الغزالي - احياء علوم الدين ج ٢ ص ٦٥ - ٦٠ . ويرى الغزالي ان النوع الأول من الشركة هو النوع الوحيد المشروع .

أ - المضاربة أو المقارضة : وهي أن يشتغل شخص برأس مال شخص آخر ، لقاء حصة من الربح ، تعين بالاتفاق بين الاثنين ، والظاهر أن الاتفاق يحدد شروط العمل ، والمحلات التي يذهب اليها التاجر المقارض . ولا يكون المقارض مسؤولاً عن تعويض أية خسارة تمس رأس المال ما دام لم يتجاوز المحلات والشروط التي يعينها الاتفاق . وينتظر من المقارض أن يدفع من جيبه نفقات سكنائه وإقامته ، في حين أن أجور النقل تدفع من صافي الأرباح^(١) .

ب - السلف المؤجل ، أو اقراض رأس مال ، ثم دفعه فيما بعد ، حسب الاتفاق .
ج - الاستلاف المنجم ، أو اقراض مال على أن يدفع بأقساط معينة يحدد معها زمن الدفع^(٢) .

وكان التجار يقترضون الأموال من الصرافين ، بربح معين^(٣) . فيحدثنا التنوخي عن تاجر بغدادي اقترض عشرة آلاف دينار من الصرافين^(٤) . وكان لبعض التجار (ناقد) خاص ينظم لهم معاملات الاعتماد . يروى عن تاجر من أهل الابلية انه احتاج إلى خمسمائة دينار ، فأرسل (ناقله) إلى البصرة فاقترض له هذا المال^(٥) .

وكان التجار يقرض بعضهم ايضاً . فيذكر عن أحد تجار الأقمشة أنه كان مديناً بأربعة آلاف دينار لعدد من تجار بغداد ، ولما كان ما بيده يبلغ أربعمائة دينار فقط ، فقد قبل دائنوه اقتراحه بأن يفتح حانوته ويمهلوه ليدفع دينه بأقساط ، بمعدل أربعمائة دينار سنوياً ، وبذلك يستطيع أن يسدد ديونه في نهاية عشرة سنوات . وهذا الخبر

(١) الدمشقي - الإشارة ص ٤٠ ، الشيباني - الخارج ص ٢٧-٢٨ ، الغزالي - احياء ج ٢ ص ٦٥

(٢) الدمشقي - الإشارة ص ٤٠ ، Ritter - Handelswissenschaft. p. 58

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٠٤ ، الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ٢٣١

(٤) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٣

(٥) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦١٢

يدل على أن الاقتراض كان شائعاً بين التجار ، لأن هذا التاجر اقترض العشرة آلاف دينار من عدة نجار . كما أنه يدل على تقدير لأهمية وضرورة الاعتماد في التجارة ، لأن التجار وافقوا على أن ينتظروا عشرة سنوات ليحصلوا على ديونهم كاملة ^(١) .

وكان التجار يبيعون عملاتهم أحياناً بالدين ، فيعطوهم البضائع على أن يستلموا أثمانها فيما بعد ^(٢) . فقد توفي رجل في البصرة ، وكان مديناً بمبلغ ثمانين ألف درهم لتاجر طحين ^(٣) . وكانوا يقرضون الناس الدراهم أحياناً . ويشكو ابن الرومي من تاجر « يرهق الناس باقتضاء ديونه » ^(٤) . ويتحدث التنوخي عن رجل أصابه ضيق لأن التجار لم يقرضوه ما يحتاج من النقود ^(٥) . وكانت القروض تتراوح بين آلاف الدنانير وبين جزء من الدينار ^(٦) .

ويظهر أن المرابين كانوا يشكلون حلقات في بعض المدن . فيخبرنا الجاحظ عن وجود حلقة لـ « أصحاب العينة » في البصرة ، وأن هؤلاء كانوا يقرضون الأموال ويأخذون الفاض عليها ^(٧) .

وكانت معاملات الاعتماد من استدانة ، أو إفاء دين تنظم في صكوك (ح . صك) . ويحضر عادة شاهدان يوقعان الصك ^(٨) ، ثم يحتم بنوع خاص من الطين ^(٩) .

(١) ن . م . ج ٢ ص ٢٩ و ص ١٤٩ - ١٥٠

(٢) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ١ ص ٢٥٦

(٣) الجاحظ - البخلاء ص ٢٤٠

(٤) المقدسي - البواقيت ص ٣١

(٥) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٥

(٦) الجاحظ - البخلاء ص ٢٢١ و ص ٢٢٤

(٧) ن . م . ج ٢ ص ٢١٨

(٨) ابن قتيبة - عيون الأخبار (١٩٢٥) ج ١ ص ٢٢٥ ، ويعطي الشيباني - الخارج والحبيل

ص ٢٠ صورة صك استدانة وصك استلام . انظر أيضاً فصل (جبهة الصيرفة) .

(٩) الجاحظ - البخلاء ص ٢٣٦

وتوجد معاملات أكثر تعقيداً مما ذكر . فكان الدائن أحياناً يشترط وجود كفيل يتعهد بدفع الدين متى عجز المدين عن دفع دينه ^(١) . وكان الذين يُحوّل أحياناً من شخص إلى آخر ، وتستخدم هذه الطريقة لتصفية الديون . فمثلاً : أمين مدين لباسم بعشرة دنانير ورياض مدين لأمين بعشرة دنانير ، فيستطيع أمين أن يحول باسمه على رياض ، وبذلك يصبح رياض مدينًا لباسم بعشرة دنانير ^(٢) . ويسهل هذا التحويل إذا كانت أمين ورياض ساكنين في نفس المدينة ، ولكنه يكون صعباً عندما يسكن الثلاثة في مدن مختلفة . ولأجل تصفية الحساب في الحالة الثانية ، أتبع نظام (السفتجة) ، وأصبح من الممكن تصفية الحساب بين مدن وأقطار مختلفة بواسطة السفتجة دون الحاجة إلى نقل النقود أو البضائع ^(٣) .

ويخبرنا أبو شجاع أن أمر التجار نافذ في المشارق والمغارب « لأنهم يكتبون (سفتج) بالأموال الجمة على معاملاتهم فيكون أسرع في الرواج من مال الجباية والخراج » ، وينوه بأن سفتج التجار كانت تقبل في بلاد الأعداء ، إضافة إلى رواجها في البلاد الإسلامية المستقلة ^(٤) .

وكانت معاملات الاعتماد تحصل بين الدولة والتجار . ففي أوقات الأزمات ، وعند تأخر جباية الضرائب ، كانت الدولة تقترض من التجار . وقد نصح عبيد الله بن سليمان (توفي سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م) ، وزير المعتضد ، ابنه ونائبه أن يقترض من التجار عند الضرورة ^(٥) . واعتاد علي بن عيسى أن يقترض من التجار ^(٦) . أما تأسيس علي بن عيسى لمصرف رسمي فلا يناقض فكرة الاقتراض من التجار ، لأن الجهابذ

(١) الشيباني - الخارج والحيل ص ١٧ - ١٨

(٢) ن ٢٠ ص ١٨

(٣) انظر فصل (الجبهة والصيرفة)

(٤) مسكويه ج ٣ ص ١٣٨ - ١٣٩

(٥) الصابي - تاريخ الوزراء ص ١٨٨

(٦) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٦

الذين كونا ذلك المصرف كائناً تجاراً ، ولأن المصرف المذكور كان لحد ما وسيطاً بين الدولة والتجار ^(١) . وقد شكى الخليفة الراضي ، حين حصلت له أزمة مالية (سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م) ، بأنه لا يجد في عصره تجاراً أغنياء مثل ابن الجصاص « يحمل بمثلهم الملك ، ويلجأ اليهم » ^(٢) . ولا يعني هذا القول ان الخليفة لم يعد يتعامل مع التجار ، وإنما يدل على أن هذه المعاملات لم تعد ميسورة كما كانت من قبل . ومتى اقترض الوزير من التجار ، قدم لهم ضماناً بالدين . فكان علي بن عيسى يعطي التجار سفائح على الواردات ، مؤجلة ، تصرف حينما يحل موعدها ^(٣) . ويعطي التاجر أحياناً وارد منطقة ما ، أو يخول جباية بعض الضرائب ليستحصل دينه ^(٤) . وإذا شك التجار من معاملة الدولة ، فلمهم يتوقفون عن إقراضها . وهذا ما حصل للوزير ابن شيرزاد (٣٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٩٤٣ - ٩٤٥ م) إذ أن التجار رفضوا تسليفه لأنه ظلم بعضهم وصادر أموالهم ^(٥) .

وكان التجار يأخذون فائدة على ما يقرضونه للدولة ، وعلى السفائح التي يصرفونها ^(٦) . فكان علي بن عيسى يدفع فائدة قدرها درهما في كل دينار من الدين أو ١ / ١٥ ^(٧) . وقد اقترض العامل السكواذاني مائتي ألف دينار ، سنة ٩٣١ هـ / ٩٣١ م ودفع نفس النسبة من الفائض ^(٨) .

(١) ن . م . ج ٨ ص ٢٦ - ٧

(٢) الصولي - اخبار الراضي والمتقي بالله ص ١٦

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٦

(٤) الصابي - الوزراء ص ١١ ، مسكويه ج ٢ ص ٣٢٩ ، التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٦

(٥) انظر ابن الأثير ص ٨٣٦ - ٧ ، الصولي - اخبار الراضي والمتقي بالله ص ٢٥٠ - ٢٥١

و ص ٢٦٤ (٦) الصابي - الوزراء ص ١٨٨ (٧) ن . م . ج ٨ ص ٨٥

(٨) مسكويه ج ١ ص ٢١٣ . وما يجب الانتباه ان الفائض تحدد نسبته فقط دون الإشارة الى

المدة اللازمة لتسديده . وهكذا نجد علي بن عيسى يدفع الفائض الموعود ، كل شهر (التنوخي

ج ٨ ص ٢٦ ، الصابي ص ٨٥) ولا يمكننا لا نجد تحديداً زمنياً لفرض السكواذاني .

الأسواق

١ - إن وصف أسواق العراق في هذا العصر يحقق غايتين : إذ يبين أهمية التجارة في حياة البلاد الاقتصادية من جهة ، ويعطي فكرة عن التوزيع الجغرافي للأمم المجتمعات التجارية من جهة أخرى .

لقد كانت الأسواق تكون جزءاً حيوياً هاماً من المدن ^(١) . فعندما وضعت خطط بغداد في القرن الثامن ، وخطط سامراء في القرن التاسع ، وجهت عناية خاصة للأسواق ^(٢) . ولما خصص المعتصم قطعة في سامراء لقائده الافشين لينبئ عليها الدور ، « أمره أن يبنى فيما هناك سوقاً فيها حوانيت للتجار فيما لا بد منه » ^(٣) . ولما بنى المتوكل (٨٤٦ - ٨٦١ م) مدينة الجعفرية شمال سامراء « جعل في كل مربعة وناحية سوقاً » ^(٤) .

ولنصف الآن أسواق بعض المدن ، مبتدئين ببغداد :
بغداد كانت ملتقى تجار في العصر الساساني ^(٥) . وصارت الآن المركز التجاري العظيم للإمبراطورية العباسية . وقد جعلها موقعها الجغرافي ، السوق الطبيعية للتجارة الداخلية . فدجلة والفرات تصل بينها وبين الطرق البحرية في الجنوب ، وبينها وبين أرمينية والشام في الشمال والغرب ، في حين أن طريق بغداد - خراسان الكبير جعلها مركزاً لتجارة إيران وأواسط آسيا ^(٦) . وهذا الدور التجاري المهم لبغداد يوضح لنا كثرة أسواقها .

(١) انظر Massignon = Enquête p. 142

(٢) انظر التفصيل في كتاب البلدان لليعقوبي

(٣) اليعقوبي - البلدان ص ٢٥٩

(٤) ن . م . ص ٢٦٧

(٥) ابن الجوزي - منابغ بغداد ص ٧ - ٨

(٦) انظر اليعقوبي ص ٢٣٧ - ٢٣٨

و « السوق العظمى » في بغداد هي السكرخ^(١) ، وهي معدن التجار^(٢) .
وقد بلغ طولها فرسخان وعرضها فرسخ واحد^(٣) . وعلى جانبي درب « باب السكرخ »
تمتد أسواق مهمة . وهناك أسواق واسعة لكل أنواع التجارات في محلة باب البصرة^(٤) ،
وأسواق أخرى في درب باب المحول حيث كانت السفن القادمة من الفرات تليق
بحمولتها^(٥) . وكان « لكل تجار ونجارة (في السكرخ) شوارع معلومة ، وصفوف
في تلك الشوارع وحوانيت وعراص ، وليس يختلط قوم بقوم ، ولا تجارة بتجارة ،
ولا يباع صنف مع غير صنفه ، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم ،
وكل سوق مفردة ، وكل أهل مفردون بتجاراتهم »^(٦) . ومن أسواق السكرخ
المنفردة ، « سوق البطيخ » للفواكه^(٧) ، و « سوق البزازين » لبيع الأقمشة ،
وسوق الطعام^(٨) ، وسوق العطارين^(٩) ، وسوق الصرافين^(١٠) ، وسوق أو
دار القطن^(١١) ، وسوق الوراقين ، التي كانت تحوي (حوالي سنة ١٨٩٢ م) ماينوف
على مائة مكتبة^(١٢) .

(١) ن . م . ص ٢٤٦

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٥٥ ، انظر الاصطخري ص ٨٤ ، ابن حوقل (B. G. A.) ص ٢٤٢

(٣) اليعقوبي - البلدان ص ٢٤٦

(٤) ن . م . ص ٢٤٥

(٥) الخطيب البغدادي ص ٦٥ وما بعدها

(٦) اليعقوبي ص ٢٤١ و ص ٢٤٦

(٧) الخطيب البغدادي ص ٦٨ ، الثعالبي - نهار القلوب ص ٤١١ . ولأجل معرفة تاريخ هذه

السوق ، انظر الخطيب ص ٢٢ . ولمعرفة المواقع على خاطة المدينة انظر بغداد بقلم لسترنيج

(٨) الخطيب البغدادي ص ٦٧

(٩) ابن الجوزي - مناقب بغداد ص ٢٧ - ٢٨ ، اليعقوبي ص ٢٤٥ - ٢٤٦

(١٠) طيفور - تاريخ بغداد ص ١٧٩

(١١) الخطيب البغدادي ص ٣٦

(١٢) اليعقوبي - البلدان ص ٢٤٥

وكانت محلة الحرية مركز التجار الأجانب . وفيها سوق باب الشام ، وهي « سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات » . وتمتد في شارع عظيم ، تتفرع منه إلى الجوانب دروب طوال ، وفي كل درب أهل بلد من البلدان يطلق اسمهم عليه . ومن تجار هذه السوق ، أهل بلخ ، وأهل مرو ، وأهل الختل ، وأهل بخارى ، وأهل كابل شاه ، وأهل خوارزم . و « لسكل أهل بلد قائد ورئيس » ^(١) .

أما الحى التجاري الرئيسي في الجانب الشرقي من بغداد فهو « باب الطاق » ، في طرف الجسر المركزي ^(٢) . ومن ساحة هذا الجسر يتفرع سوقان : « سوق الأسماكفة » و « سوق الطيب » حيث تباع العطور والزهور ^(٣) . ووراء هذين السوقين تمتد « سوق الطعام » وفيها حوانيت للخبازين وللقصايين . وكان سوق الصاغة في بناية فخمة . وهناك سوق المراقين ^(٤) .

وكانت سوق الغنم قرب باب المحرم ، على ضفة نهر بيطاطيا ^(٥) . وفي سوق خضير كانت تباع طرائف الصين ، وتقع هذه السوق قرب الجسر الأعلى ^(٦) .

وأخيراً نذكر أن جميع أصناف البضائع كانت تباع في سوق الرصافة ^(٧) .

والخلاصة ، فإن تجار كل بضاعة افردوا بسوق خاصة ، وأن القسم الغربي من بغداد كان أهم في التجارة من القسم الشرقي ، وأن بغداد كانت عاصمة العراق التجاري والبها تجلب البضائع من أنحاء العالم .

وبلي بغداد في الأهمية التجارية مدينة البصرة . وكانت تمتاز بموقع جغرافي

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٤٦ و ص ٢٤٨

(٢) انظر Le Strange = Baghdad p. 178 , p. 181 , p. 218 , p. 320

(٣) ibid, p. 271 - 273

(٤) ابن الجوزي - مناقب بغداد ص ٢٦ ، اليعقوبي ص ٢٥٣

(٥) الخطيب البغدادي ص ٦٩ (٦) اليعقوبي ص ٢٥٤ (٧) ن . م . م ص ٢٥٣

مناسب ، هو ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء ^(١) . وكانت البصرة باب العراق ، ومحط التجارة الشرقية ، وملتقى القوافل الآتية من الصحراء ^(٢) .

وقد أثنى الجاحظ على همة البصريين وحجهم المغامرة ، فقال : « يقال إنه ليس في الأرض بلدة واسطة ، ولا بادية شاسعة ، ولا طرف من الأطراف ، إلا وأنت واجد بها المدني والبصري والحيري » ^(٣) . وقد اتفقت كلمة أصحاب الرحلات على علو همة البصريين ، وبعدهم في التجارة ، حتى قال ابن الفقيه : « وأبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحيري ، ومن دخل فرغانة القصوى ، والسوس الأقصى ، فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً » ^(٤) .

وبلغت شهرة البصرة في التجارة حداً جعل ابن حوقل لا يرى ضرورة للتحدث في الموضوع ^(٥) . وكانت البضائع تحمل إلى البصرة من مختلف بلدان الشرق حتى وصفت بأنها « قبة الاسلام » ^(٦) . وليس من باب المصادفة أن يكون مؤلف أول كتاب في التجارة ، وهو الجاحظ (توفي سنة ٨٦٩ م) ، من أهل البصرة ^(٧) .

كان المرید مرکز تجارة البصرة مع الصحراء . وكان المرید عند باب البصرة

(١) Baladhuri - Origins , II p. 60 والمقدسي ص ١١٧ ، وياقوت - معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٦ . ويصف الجاحظ مدينة البصرة بقوله : « ومن أتى وادي القفر بالبصرة رأى أرضاً كالسكاور ، ورأى ضباباً تحترق ، وغزلاً وأحصياتاً ، ومع غناء ملاح في سفينة ، وحذاء جمال خلف بعيره » الاغتاني - اسواق العرب ص ٣٥٣ ، وثمار القلوب لآلماحي ص ٤١٩ .
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٢ ، ص ٣٢١ . وقيل بحق « العراق عين الدنيا » والبصرة عين العراق » . التتالي - لطائف المعارف ص ١٠٢ ، والجاحظ - البخله ص ٢٩٨ .

(٣) الجاحظ - البخله ص ٢٩٨

(٤) ابن الفقيه - كتاب البلدان ص ٥١

(٥) ابن حوقل ، طبعة كرامرز ج ١ ص ٢٣٨

(٦) انظر الاغتاني - اسواق العرب ص ٣٥٣

(٧) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٢ ص ٣٢٢ - ٣

الغربي على طرف الصحراء^(١) . وكان في أول أمره سوقا للجهال^(٢) ، ثم نما وتطور بسرعة حتى مر بأربع مراحل :

(١) ففي نهاية عصر الراشدين (٤٠ هـ / ٦٦٠ م) أصبح المربد سوقا للبدو تباع فيه التمور والجمال والأسلحة وغنائم الحرب .

(٢) ثم توسع في العصر الأموي (حتى سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م) وصار ملتقى البدو والحضر للتجارة . وأصبح المربد في نفس الوقت مركزاً أدبياً يلتقي فيه الشعراء كالفرزدق وجربير ويلقون قصائدهم ، وترسل القبائل وفودها اليه لحضور المنافرات الأدبية .

(٣) وما جاءت نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، حتى أصبح المربد مركزاً نشيطاً للأعمال التجارية ، وموطن أنس ومرح ، ومسرحاً للفعاليات الأدبية ، يقصده اللغويون والنحاة للاجتماع بالأعراب الفصحاء وللتحدث معهم في بعض مشاكل اللغة . وقد وصل المربد درجة من الازدهار جعلته يسمى « عين البصرة » .

(٤) ثم بدأ الانحلال في المربد في القرن الرابع الهجري^(٣) . وما جاء زمن ياقوت (١٢٢٨ م) حتى أفحى بلدة صغيرة منعزلة على حافة الصحراء غرب البصرة وعلى بعد ثلاثة أميال منها^(٤) .

وكانت الابل مرفأ البصرة ومركز تجارتها البحرية ، وكانت تقع على نهر الابل^(٥) .

(١) ابن حوقل (ك) ص ٢٣٦ ، ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٤٨٤

(٢) الافغاني - اسواق العرب ص ٣٥٧ ، ياقوت - معجم البلدان ص ٤٨٤

(٣) المقدسي ص ١١٨ ، ابن حوقل (ك) ص ٢٣٧

(٤) انظر التفاصيل في الافغاني ص ٣٢٦ - ٣٢٧ و ص ٣٥٦ - ٣٦٠ ، وياقوت - معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٤ ، مقامات بديع الزمات الهمداني (طبعة بيروت باعتناء محمد عبده ١٨٨٩) ص ٥٩ - ٦٠

(٥) انظر التفاصيل عن رعاء الابل في ابن حوقل ص ٢٣٦

وكان في الابله حد كبير من الأسواق والخانات ^(١) . وكان نهر الابله مرصوفا بالسفن بصورة مستمرة . وقد صرفت مبالغ كبيرة لإنشاء ادراج صخرية على ضفاف نهر الابله ، ليتمكن النزول إلى مستوى النهر الواطيء وقت الجزر ، تسهلا لشحن السفن بالبضائع أو لتفريغها ^(٢) .

وكانت الفعالية التجارية في البصرة تستمر طيلة النهار ، وحتى في المساء . فيقول ناصر خسر (١٠٥١ هـ / ١٠٥١ م) : « وينصب السوق في البصرة في ثلاث جهات كل يوم . ففي الصباح يجري التبادل في سوق خرازة ، وفي الظهر في سوق عثمان ، وفي المغرب في سوق القداحين » ^(٣) . وكان في البصرة سوق هامة للغنم ^(٤) .

الموصل : وكانت الموصل مركزاً مهماً للتجارة . ففيها كانت تلتقي طرق التجارة من أذربيجان ، ومن الشام ، ومن أرمينية ، ومن جنوب العراق ^(٥) . ويعتبرها ياقوت باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ورأس طريق أذربيجان ^(٦) . وكانت الموصل تمون العراق بالحبوب في أوقات الشدة ^(٧) .

ويقول ابن حوقل الذي زار الموصل (سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) : « أسواقها واسعة . . . وكان بها لكل جنس من الأسواق الاثنان والأربعة والثلاثة مما يكون في السوق المائة حانوت وزائداً » ^(٨) . وأثنى المقدسي على أسواقها التي كان أكثرها

(١) ناصر خسر - سفرنامه من ٩٩ ، المقدسي من ١١٧

(٢) انظر ناصر خسر - سفرنامه ، الترجمة الفرنسية ، ملاحظة على صحيفة ٢٤٥

(٣) ناصر خسر - سفرنامه من ٩٦

(٤) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27

(٥) ابن حوقل (ك) من ٢١٥

(٦) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ من ٦٨٣

(٧) المقدسي من ١٣٨ ، مسكويه ج ٢ من ٩١

(٨) ابن حوقل (ك) من ٢١٥

مسقوفاً ، كما أُنْتِى على فنادقها البديعة ^(١) . ومن بين أسواق الموصل ، سوق الطعام ، وسوق الأساكفة ^(٢) ، وسوق الغنم ^(٣) . وكان يعقد في الساحة الفسيحة في داخل قلعتها سوق في أيام الأربعاء ، ويدعى « سوق الأربعاء » ، وكان الفلاحون يأتون إليه ^(٤) .

وتقع الكوفة على طرف الوادي الخصيب ، قرب الصحراء . وكانت محطة مهمة في طريق الحج ، وملتقى القوافل القادمة من الصحراء ^(٥) . ولا نجد في المقدسي إلا الشاء على أسواقها ^(٦) . وكان فيها مركزان تجاريان : « دار الرزق » و « الكناسة » . أما دار الرزق ، فكانت على الضفة اليمنى للفرات ، وقد كانت في البدء مركزاً لجمع غنائم الحرب وبيعها ، ثم تطورت بالتدريج إلى مركز تجاري . وكانت أسواقها مغطاة ، وتمتد من جسر الكوفة إلى مركز المدينة .

أما الكناسة ، فكانت عند الباب الغربي للمدينة ، وكانت مركزاً للتجارة مع الجزيرة العربية . وكانت البغال والمواشي تباع في أحد أسواقها وهو « سوق البراذين » ^(٧) . ولعل سوق الغنم كان في الكناسة أيضاً ^(٨) . وقد تدهورت الكناسة في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري ^(٩) .

وبلغت سامراء أوجها من الازدهار خلال القرن الثالث الهجري ، حين كانت

(١) المقدسي ص ١٣٨

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٩

(٣) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27

(٤) المقدسي ص ١٣٨ . وكانت القلعة على رافد يدعى نهر زبيدة . وفيها فندق في كل زاوية . انظر ابن جبير ص ٢٣٥ حيث نجد وصفاً للسوق المذكورة سنة ١١٨٤ م .

(٥) ابن رسته ص ١٧٤ وما بعدها ، قدامة بن جعفر ص ١٨٥

(٦) المقدسي ص ١١٧

(٧) انظر ماسنيون - خطط الكوفة [تعريب المصبي - صيدا ١٩٤٦] ص ٢٣ وما بعدها ومن ٣٤

(٨) Von Kremer , o. c. p. 27

(٩) المقدسي ص ١١٧

عاصمة الدولة العباسية . إلا أن عامة تجارها كانوا عراقيين ، وكانت تجارتها داخلية ^(١) . ولما جاء القرن الرابع الهجري قلت أهميتها التجارية ، ولذا فإن وصف اليعقوبي لأسواقها لا يفيدنا في هذه الفترة لأنه سابق لها ^(٢) .

وكانت للندن بصورة عامة أسواقا لما يحيط بها من قرى وأرياف ، فهي مخازن لانتاجها ومراكز تباع لها ما تحتاج اليه من مواد . وكان القرويون يأتون إلى الأسواق الاعتيادية ، أو يحضرون إلى أسواق تعقد في أيام خاصة من الاسبوع ^(٣) . فمثلا كان يعقد في ضاحية من ضواحي الموصل ، وهي سوق الأحد ، سوق في أوقات معينة ، حيث كان يجتمع التجار والفلاحون والاكراد الرحل للبيع والشراء ^(٤) .

خامساً - الصادرات والواردات :

أ - الصادرات : يعطي مؤلف حدود العالم (٩٨٢ م) خلاصة معلومات من تقدمه من الجغرافيين عن صادرات العراق ، حين يقول : « يأتي من العراق القمح التي ترسل إلى كل جهة ، وكذلك مختلف أنواع النسيج ، وأكثر الأدوات التي تليق بالملوك » ^(٥) .

وللتفصيل ، نذكر صادرات كل مدينة على انفراد :

من (بغداد) : الأقمشة القطنية ، والمنسوجات الحريرية وخاصة المناديل والأزر والعائم ، والخزف ، والأدوات الزجاجية ، والدهون ، والمعاجين ، والأدوية ^(٦) .

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٣

(٢) اليعقوبي - البلدان ص ٢٥٨ - ٢٦٣

(٣) انظر المقدسي ص ١٣٨

(٤) ابن حوقل ص ٢١٧ . انظر وصف سوق في ابن جبير ص ٢٤١ - ٢

(٥) H. A. folio 31 a . لا يميز الجغرافيون أحيانا بين الصادرات والواردات

(٦) H. A. folio 31 a ، المقدسي ص ١٢٨

ومن (البصرة): التمر بكيات كبيرة ، والحز ، وماء الورد ، والبنفسج ،
والحناء^(١) .

ومن (الابلّة) : المناديل البنية والعام^(٢) .

ومن (الموصل) : الستور ، والمسوح ، والدراج ، والسّاني^(٣) ، والحنطة ،
والشعير^(٤) ، والعسل^(٥) ، والملح^(٦) .

ومن (الكوفة) : مناديل الحز الكوفية ، والوشي ، والتمر ، ودهن البنفسج^(٧) .
ومن (واسط) : البسط ، والستور ، والتكك^(٨) .

ومن (ميسان) : الانماط ، والوسائد ، والستور ، والبسط^(٩) .

ومن (آمد) : الطيالة من الصوف ، والثياب الموشية ، والمناديل ، والمقارم
(شراف الفرش والكلل) ، وثياب الكتان والصوف^(١٠) .

ومن (حران) : القطن ، والعسل ، والموازين^(١١) .

ومن (نصيبين) : الرصاص ، والموازين ، والدوايات ، والفواكه المقدودة ،
والشاه بلوط ، وحجر الزجاج الفاخر^(١٢) .

(١) المقدسي ص ١٢٨ و ص ١٤٥ .

(٢) H A, folio 31 a

(٣) الجاحظ - التبرع بالتجارة ص ٣٤٧

(٤) المقدسي ص ١٤٥

(٥) الثعالي - ثمار القلوب ص ٤٢٧

(٦) الملح من سواد الموصل . قدامة ص ٢٤٥ ، الجاحظ - التبرع بالتجارة ص ٣٤٧

(٧) ابن الفقيه ص ٢٥٣ ، المقدسي ص ١٢٨

(٨) المقدسي ص ١٢٩

(٩) الجاحظ - التبرع بالتجارة ص ٣٤٦ ، الثعالي - لطائف المعارف ص ١١١

(١٠) المقدسي ص ١٤٥ ، الجاحظ - التبرع بالتجارة ص ٣٤٤

(١١) المقدسي ص ١٤٥

(١٢) الجاحظ - التبرع بالتجارة ص ٣٤٦

ومن (الجزيرة) : الفواكه المجففة ، والحلil الأصلية .

ومن (الرقة) : الصابون ، والزيت ، والأقلام ^(١) .

ومن (عبادان) : الحصر ^(٢) .

ومن (حلوان) : الرمان ، والتين ، والكافور ^(٣) .

ب - الواردات : يعطينا الجاحظ قائمة مفصلة بما يستورده العراق ^(٤) . واليك

ما ذكره في هذا الصدد ، مضافا اليه ما نجده في المصادر الأخرى .

كان العراق يستورد :

من (إيران) : البسط ، والطنافس ، والسجاد ، وثياب الكتان ، والثياب

الرقاق ، والطيلالسة من الصوف ، والثياب الموشية ، والابرسم الجيد ، والقلائس ،

والفواكه من تفاح وخوخ وزبيب وسفرجل وكثيرى ، والشراب ، وماء الورد ،

والمعاجن ، ودهن الياسمين ، والكحل ، والزعفران ، والزمرّد ، والسكر ^(٥) .

ومن (بلاد ما وراء النهر) : القطن ، والمنسوجات الحريرية ، والملابس

الصوفية ، وفرو السمرور والسنجاب والفنك ، والريق التركي ، والأسلحة كالسيوف

(١) المقدسي ص ١٤٥

(٢) H. A. folio 31 b

(٣) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٧

(٤) كتاب التبصر بالتجارة . نشر في مجلّة التّجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٢ سنة ١٩٣٢ ص ٣٢٦ وما بعدها . والى هذا المجلد ترد الاشارات هنا .

(٥) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٤ - ٣٤٦ ، المقدسي ص ٣٦٧ و ص ٤٤٢ - ٣ ،

التمالي - تمار القلوب ص ٤٢٦ - ٤٢٨ و ص ٤٣٠ - ٤٣١ ، لطائف المعارف ص ١٠٩ -

١١١ ، الاصطخري ص ١٥٢ و ص ١٩٠ و ص ٢١٣ ، ابن رسته ص ١٥٣ ، قارت

الجهشياري ص ١٨٢ - ١٨٦ . وكانت الأهواز تّمون العراق بأكثر من حاجته من السكر ،

وترسل للخليفة ٣٠٠٠ رطل سنوياً في الخراج . التّمالي - تمار القلوب ص ٤٢٦ ،

ابن الفقيه ص ٢٥٣ - ٢٥٥

والأقواس ، وقبل كل شي السكاغد ^(١) .

ومن (الهند) : التوابل ، والاحجار الكريمة وخاصة الياقوت ، والعقاقير ، والكافور ، والعنب ، والعود الهندي ، وجلود النمر ، والصندل الابيض ، والآبنوس ، وجوز الهند ، والفيلة ، والرماح ، والقطيفة ^(٢) .

ومن (التبت) : أجود أنواع المسك وأعطرها رائحة ^(٣) .

ومن (ملقا) : الرصاص القلعي (التنك) ^(٤) .

ومن (الصين) : الحرير والنياب الحريرية ، والدبياج ، والغضائر ، والجواري ، والخصيان ، واللبود ، والعقاقير ، والدارصيني ، والمسك ، والطواويس ، والاققال ، وأواني الذهب والفضة ، والسروج ، والسكاغد والمداد ^(٥) .

ومن (الشام) : المنسوجات الحريرية ، والقطن ، والمنسوجات القطنية ، والميازير ، وزيت الزيتون ، والسكر ، والزجاج والادوات الزجاجية ، والفواكه من تفاح وزيتون وتين ^(٦) .

ومن (الجزيرة العربية) : الخيل العرب ، ونجائب الابل ، والادم ، والاحذية والنعام ، والقنا (لعمل الرماح) ^(٧) .

(١) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٢ ، المقدسي ص ٣٢٤ - ٦ ، الثعالب - اطائف المعارف

ص ١٢٦ وما بعدها ، المروزي ص ١٨ ، ٦ - 326 : Barthold

(٢) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٠ و ص ٣٣٤ ، ابن خرداذبه ص ٧٠ - ٧١ ، الثعالب -

ثمار القلوب ص ٤٢٣ ، البيروني - الجاهر ص ٤٥ و ص ٤٧ ، اليعقوبي ص ٣٤٦ - ٧ ،

H. A. folio 5 b ، ابن الفقيه ص ٢٥١

(٣) المروزي ص ٢٨ - ٩ ، ابن الفقيه ص ٢٥٥ ، ابو القاسم البغدادي ص ٣٥

(٤) ابن خرداذبه ص ٧٠ - ٧١

(٥) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤١ ، اليعقوبي ص ٣٦٧ ، ابن خرداذبه ص ٧٠ و ص ١٣٥ ،

ابن الفقيه ص ٢٥١

(٦) المقدسي ص ١٨٠ - ١٨١

(٧) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤١ ، H. A. p. 145

ومن (الين) : البرود ، والادم ، والعصائب ، والعنبر الثمين ، والديباج ،
والزغفران ، والورس ، والبخور ، والمر ، والدروع ، والسيوف ، والبغال ، والحمير ،
والسبح (١) .

ومن (مصر) : الفسيح القطني المشهور بالدوق ، والثياب من مختلف الأنواع ،
والمنسوجات الصوفية ، والزبرجد الفائق ، ودهن البلسان ، والبغال ، والقراطيس ،
والحمير (٢) .

ومن (شمال إفريقيا) : اللبود (قماش للسر ج H. A. p. 417) ، والأكسية ،
وثياب الصوف ، والقرظ (وهو ورق السلم تدبغ به الجلود) ، والقمور ، والفرو ،
والسمور ، والسنباب ، والريق ، والجواري ، والسيوف ، والبراة السود (٣) .
ومن (الاندلس) : أجود النحاس ، والزئبق ، والبرز ، والأقمشة القطنية ،
والجواري (٤) .

ومن (أرمينية) : البسط الرقاق ، والسجاد ، والفرش ، والستائر ، والصوف ،
والثياب الصوفية ، والتكك ، والبراذع (٥) .

(١) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٢ ، التعالي - ثمار القلوب ص ٤٢٥ ، لطائف المعارف
ص ١٠٢ ، ابن الفقيه ص ٢٥٢ ، المقدسي ص ٩٧ ، ابن خرداذبه ص ٧١ ، انظر دائرة
المعارف الاسلامية ، مادة « ديباج » و Dozy : Vêtements p. 311

(٢) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٢ ، التعالي - لطائف المعارف ص ٩٧ ، ثمار القلوب
ص ٤٢٠ - ٤٢١ ، المقدسي ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن الفقيه ص ٢٥٢ ، H. A. p. 251 ،
وبيّن التعالي ان الخلفاء كانوا يفضلون الحمير والبغال المصرية على غيرها .

(٣) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٣٨ و ص ٣٤١ ، ابن الفقيه ص ٢٥٢ ، المقدسي ص ٢٣٩ ،
ابن خرداذبه ص ١٥٣ ، H. A. p. 153 , p. 417

(٤) الدمشقي - الاشارة الى محاسن التجارة ص ٢٩ ، ابن الفقيه ص ٢٥٢ ، المقدسي ص ٢٣٩

(٥) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٣٤٨ ، التعالي - ثمار القلوب ص ٤٢٨ ، انظر الخطيب
البغدادي ص ٥٢ ، ابو القاسم البغدادي ص ٣٥ . يخبرنا ابن حوقل ان سمر التكة يتراوح
بين دينار وعشرة دنانير . ابن حوقل (B. G. A.) ص ٢٤٦

ومن الروم (آسيا الصغرى) : الديباج الرومي المشهور ، والثياب الصكتانية ، والأزر ، والبزبون ، والبسط ، والتحكك (١) .

خامساً - المواصلات الداخلية :

كانت المواصلات النهرية أنسب من المواصلات البرية ، وأسرع في أكثر الأحيان (٢) . وكانت دجلة والفرات أهم ممزين في البلاد ، فيصلان الأقسام العليا من العراق بالخليج الفارسي ، ويربطان بين المدن المختلفة (٣) .

وتتكرر الاشارات الى طريق دجلة أكثر من طريق الفرات . وكان دجلة صالحاً للملاحة في أقسامه العليا ، كما هو الحال بين (تل فافان) والموصل (٤) ، كما كان النقل فيه بين الموصل وبغداد اعتيادياً (٥) . وكان السير فيه من بغداد الى خليج البصرة أسهل منه في بقية أجزائه ، لأن النهر يتسع في هذا الجزء ، وتقل فيه الموانع ، كما تقل سرعة تياره . فلما هدد القرامطة بغداد سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، رصف كثير من الأهلين ضفاف النهر بالقوارب ونقلوا اليها أمتعتهم وتجهيزاً للنزول بها إلى واسط (٦) .

وكان دجلة يستعمل للمواصلات العسكرية . ففي سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ، نقل الوزير خواشاذه جيشه من الموصل إلى بغداد بالقوارب (٧) . وكان البريديون ينقلون جيوشهم نهراً في كثير من الأحيان (٨) . وأرسل أمير البطيعة جيشه

(١) ابن حوقل (B. G. A.) ص ٢٤٦ ، الثعالبي - نهار القلوب ص ٤٢٥ ، H. A. p. 156 ،

ابن الفقيه ص ٢٥٢

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٥

(٣) البقوني - البلدان ص ٢٣٤ ، ابن الجوزي - مناقب بغداد ص ٨ ، المقدسي ص ١٢٠

(٤) التنوخي ج ٢ ص ٢٠٥

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ١٥ ، مسكويه ج ٣ ص ١٧٦

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٦

(٧) مسكويه ج ٣ ص ١٧٦

(٨) انظر ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٥

سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م ، في السفن لضرب أحد الثوار (١) .

وكان دجلة يستخدم للنقل شمالاً ، في اتجاه معاكس لتيار النهر ، حتى مدينة الموصل . وكان تيار النهر قوياً شمال تكريت ، ومع ذلك كانت القوارب تسير فيه بمعدل فرسخين في اليوم (٢) .

وكان استعمال القوارب في بغداد شائعاً رغم وجود ثلاثة جسور . يقول المقدسي : « والناس ببغداد يذهبون ويحيثون ويعبرون في السفن ولهم جلبة وضوضاء . وثلاثا طيب بغداد في ذلك الشط » (٣) .

وبلغ عدد القوارب في بغداد في أوائل القرن الرابع الهجري ثلاثون ألفاً ، تغل تسعة آلاف درهم يومياً (٤) .

وقد وصف ابن رسته الطريق النهري بين بغداد والبصرة . فتشتر السفن أشرعها في بغداد وتسير بمحاذاة الضفة الشرقية لنهر دجلة فتمر بالمداين ، ودير العاقول ، وجرجايا ، وجبل ، وفم الصلح إلى واسط . وهناك يتشعب النهر إلى ثلاث شعب ، ولذلك تنقل البضائع من السفن إلى قوارب صغيرة . ثم تدخل هذه القوارب في البطيعة ، وتسير في ممرات ضيقة بين القصب حتى تصل إلى فسحة من الماء الصافي ، الخالي من القصب ، تسمى الهول . ومن هنا تسير إلى باذورد ، ثم تسير في نهراي الأسد إلى دجلة العوراء حتى تصل صدر نهر معقل ، ثم تتبع مجراه في مسيرها حتى تصل البصرة (٥) . وبين المقدسي أن مجرى دجلة بعد واسط ضحل ولذلك تستعمل فيه

(١) ابن الأنبرج ٩ من ١٢٨

(٢) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله من ١٢٢ - ١٢٣

(٣) المقدسي من ١٢٤ ، انظر مناقب بغداد - لابن الجوزي من ٢٤

(٤) المقدسي من ١٢٤

(٥) ابن رسته - الأعلاق النفسية من ١٢٢ - ٣

قوارب صغيرة ومسطحة^(١) ، تدفع بالمرادي^(٢) . ويظهر أن هذه القوارب كانت على غرار المشاحيف التي لا تزال تستعمل الآن في الأهوار .
أما في الفرات ، فكانت القوارب تصعد شمالاً حتى الرقة^(٣) . ولكن السير في الفرات في الجزء الأكبر من مجراه كان ، كما يظهر ، يأخذ اتجاه مجرى النهر^(٤) . وكانت بعض القنوات تستعمل للمواصلات . فكانت القوارب ، حتى الكبيرة منها ، تسير في النهروان^(٥) . وكانت السفن القادمة في الفرات ، تسير في نهر عيسى حتى المحوّل (التي تقع غرب بغداد على فرسخ منها) ، حيث تنقل أحمالها إلى قوارب صغيرة تتمكن من المسير في نهر الصراة (وهو فرع من نهر عيسى) إلى بغداد^(٦) . وهذا هو الطريق الذي كان يسلكه التجار العالميون الذين يسميهم ابن خرداذبه « الرادانية »^(٧) . وفي سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م أرسل علي بن عيسى ثلثمائة قارب من دجلة إلى الفرات في هذا الطريق . وكان نهر النيل ، يصل كذلك بين الفرات ودجلة في العراق الجنوبي^(٨) .

وتوجد محطات على الطرق النهرية الهامة ، يحرسها حراس ، وتجي فيها الضرائب ، كما كان الحال في (الحوائت)^(٩) . وتوجد في المحلات اليابسة الموجودة بين

(١) المقدسي ص ١٢٤

(٢) الاصلطخري ص ٨١ - ٤٢ ابن حوقل ص ٢٣٨

(٣) المقدسي ص ١٢٤

(٤) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ٢ ص ٢٠٥ ابن الجوزي - مناقب بغداد ص ٨

(٥) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٩

(٦) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ٤٣٢ ، ابن حوقل (B. G. A.) ص ١٦٦ ،

J. R. A. S. 1895 p. 14 and p. 71 ، اليعقوبي - البلدان ص ٢٥٠

(٧) ابن خرداذبه ص ١٥٤

(٨) اليعقوبي - البلدان ص ٣٢٤

(٩) ابن رسته ص ١٨٤ - ١٨٥

الممرات المائية في البطيعة بيوت من القصب فيها حراس لضمان سلامة المواصلات^(١).
٢- وكانت المواصلات بطريق البر سهلة ، نظراً لاستواء سطح البلاد .
وكانت بغداد مركزاً تلتقي فيه خمسة طرق رئيسية تؤدي إلى مختلف أنحاء البلاد .
وهذه الطرق هي :

- (أ) طريق شرقي ، إلى حلوان ومنها إلى إيران وأواسط آسيا .
- (ب) طريق شمالي ، إلى الموصل والجزيرة .
- (ج) طريق جنوبي ، إلى واسط ثم البصرة .
- (د) طريق جنوبي غربي ، إلى الكوفة ، ومنها إلى الجزيرة العربية حتى ينتهي بالحجاز .

(هـ) طريق غربي ، إلى الرقة ، ومنها إلى سورية فصر .
وكانت كل من البصرة والموصل ملتقى لطرق مواصلات هامة^(٢) .
وتقوم الحكومة بإنشاء الطرق وصيانتها وحمايتها . فإذا كانت الحكومة حازمة ، كانت المواصلات آمنة ، ولم يطالب التجار بدفع المكوس داخل المملكة . جاء في عهد من الخليفة المطيع إلى أبي تغلب الحمداني بتاريخ ٣٢٦هـ / ٩٧٦م ما يلي :
« وأمره بأن يوكل بالطرقات من الخيل والرجال من يتقصاها ليلاً ونهاراً ، ويستقرها سهلاً وجبلاً ، ويسير في برها وبحرها .. ويقلد عليهم أهل النجدة والبسالة ، وذوي الشدة والجزالة . ويوعز إلى من بوليه بأن يتبعوا مظان أهل الزب فيشرّدهم عنها ، ومكامن أهل العيث فيبعدوهم منها .. وأن يسيروا مع السابلة ، ويصحبوا من يسلك الطرق من المارة ويحموا النفوس والأموال ، ويحوطوا الدراري والتجارات ، ويقفوا على من تخلف ، ويسيروا بمسير من ضعف ، حتى لا يلحق أحداً من السالكين

(١) ابن رسته ص ١٨٥

(٢) هذا ملخص عن ابن خردادبه .

عيب ، ولا يفوله دون مقصده غول . ولا يلزموا أحداً من المجتازين مؤونة ، ولا يحملوه ثقلاً ولا كلفة ، لتؤمن السبل وتحمى المسالك وتدر للرعية المتاجر وتستقيم لها أسباب العيش ، وتكون الطرق مضبوطة والامال محوطة » (١) .

وكانت الطرق تحت إشراف صاحب ديوان البريد ، ويفترض فيه معرفتها بصورة جيدة (٢) . وتقسم الطرق لغرض البريد ، إلى محطات تدعى سكك ، تبلغ المسافة بين كل اثنين منها فرسخان ، وفي كل محطة بدالة من الدواب والراكين (٣) . وكان البريد لخدمة الخلفاء العباسيين (٤) ، ويقوم بنقل المراسلات والأخبار الرسمية ، إضافة إلى مهمة خاصة وهي التجسس (٥) . كما كان البريد ينقل البضائع أحياناً . فقد اعتاد المأمون أن يجلب البطيخ الممتاز من خوارزم إلى بغداد في البريد (٦) . وفي الحالات الملحة ، كان البعض يسافر على دواب البريد (٧) . ويندكر عن رسول لعضد الدولة أنه استأجر جملاً في قافلة البريد من الموصل إلى بغداد (٨) . وكانت الخيل والبغال ، وبصورة خاصة الجمل تستعمل في البريد (٩) . وكانت الرغبة قوية في استخدام الجمازات لسرعتها (١٠) . وكانت قافلة البريد ما بين راكب واحد واربعين راكباً (١١) .

(١) رسائل أبي اسحاق الصابي ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) قدامة - الخراج ص ١٨٤ - ٥ .

(٣) المقدمي ص ٦٦ ، الخوارزمي (طبعة فان لوتن) مفاتيح العلوم ص ٦٣ .

(٤) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ٢٦٣ .

(٥) انظر زبدان - النخبة الاسلامي ج ١ ص ١٨٠ - ١٨٣ ، دائرة المعارف الاسلامية - مادة (بريد) .

(٦) النعماني - لطائف المعارف ص ١٢٩ .

(٧) البيهقي - الحسن والمساوي ص ٢٢٩ ، طيفور ص ٣٤٣ .

(٨) مسكويه ج ٣ ص ٦٣ .

(٩) قدامة - الخراج ص ١٨٤ - ١٨٥ ، التنوخي - نشوار الحضرة ج ٨ ص ٦٥ .

(١٠) انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٤٨٠ .

(١١) زبدان - النخبة الاسلامي ج ١ ص ١٨٢ .

وادخل مع الدولة ، أول أمراء البويهيين ، رسلاً سريعي الجري يدعون « السعاة » ، امتاز منها اثنان بسرعتها العظيمة ، فكان كل منهما يقطع أكثر من ثلاثين فرسحاً ما بين شروق الشمس وغروبها ^(١) . وقد كان الحمام الزاجل أسرع وسيلة لنقل الأخبار . فاستعملته الحكومة ، كما استفاد منه التجار أحياناً ^(٢) .

سادساً - العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية :

أ - التجارة البحرية : كانت ملاحة العرب الهامة في البحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندي . وقد استعملوا المراكب الصغيرة للملاحة الساحلية ، بينما استعملوا مراكب كبيرة لعرض البحار ^(٣) . وكانت ألواح مراكب البحر الأبيض تربط بعضها بالمساير ، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فاتبعوا طريقة أخرى في بنائها ، إذ كانت الألواح تحاط بحبال من الليف . وقد وصف لنا ابن جبير طريقة ذلك فيقول : « هي مخططة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطنون بها المراكب ويخللونها بدرس من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصفة ، سقوها بالسمن ، أو بدهن الخروع ، أو بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر » ^(٤) . وكانت مراكب البصرة يضاء لأنها « مشحمة بالشحم والنورة » ^(٥) .

(١) Mez p. 502 ، ابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥

(٢) انظر التفاضيل في 4-503 Mez و p. 207 De Goeje : Memoirs sur les Carmathes

والصباغ - الحمام الزاجل - باريس ١٨٠٥ (٣) ابن رسته ص ١٩٦

(٤) هناك روايات في سبب عدم استعمال المساير ، منها الخوف من أن يأكلها البحر ، أو من أن تجذبها جبال المغناطيس . أما الدهن فيستعمل لتليين عود السفن لغمان سير السلم حين تعترض السفن شهاب في البحر . انظر ابن جبير ص ٦٧ - ٦٨ و ص ٧٠ - ٧١ و ص ٣١٢ و ص ٣١٦ . المسعودي ج ١ ص ٣٦٥ ، القزويني - عجائب المخلوقات ص ١٧٢ ، مطهر بن طاهر المقدسي - البده والتاريخ ج ١ ص ٨٩

(٥) ابن رسته ص ١٩٦ ، المسعودي ج ٨ ص ١٢٨

وكانت المراكب التي تذهب إلى الصين كبيرة جداً « إذ يبلغ ارتفاعها عن سطح الماء حداً يضطر الناس إلى استعمال سلام يبلغ ارتفاعها نحو العشرة أقدام ليصعدوا إلى سطحها » ^(١) . وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت هذه السفن تحمل بضع مئات من الرجال ، « ويخزن فيها من الحبوب ما يكفي لمؤنة سنة » ^(٢) . ويقوم بأعمال الإصلاح في السفينة ملاحون زنوج يستطيعون الغوص في الماء وعيونهم مفتوحة ^(٣) .

وكان الكثير من ملاحي المحيط الهندي من العراقيين ، ولكن أكثرهم كانوا من سيراف وعمان ^(٤) . ويظهر أنهم كانوا يسترشدون بخرائط في رحلاتهم . فيذكر المقدسي : « ورأيت معهم (التجار) دفاتر . . يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها » ^(٥) .

ويرى الأستاذ هادي حسن أن كتب الملاحة هذه كانت فارسية في الاصل . ولا يوجد ما يثبت ذلك ، وكل ما نستطيع قوله هو أن كتب الملاحة العربية تحتوي على عدد لا بأس به من الكلمات الفارسية ^(٦) .

ولم تكن البوصلة معروفة في القرن الرابع الهجري . فكان التجار يوجهون سفنهم مستعينين بالشمس والقمر والنجوم . كما استعملوا الحمام الزاجل ^(٧) ، وبعض أنواع الطيور للتأكد من الطريق الذي يسلكونه ولإرسال الرسائل ، واعتمدوا في ملاحظتهم على انتظام الرياح الموسمية ^(٨) . وكان المحيط الهندي يصلح لملاحظتهم

(١) Chau Ju - Kua p. 9 ، انظر H. Hasan p. 97

(٢) Chau Ju - Kua p. 35 (١٣) ibid p. 31 - 2

(٤) المقدسي ص ٢١٨ و ص ٧٩ و ص ٩٢ و ص ٩٦ ، السعودي ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨٢

و ج ٣ ص ٦ (٥) المقدسي ص ١٠ (٦) H. Hasan pp. 127-129

وانظر Ferrand , J. A. 1923 pp. 357 off : 1924 pp. 193 off

(٧) ويظهر ان استعمال الحمام الزاجل من قبل التجار يعود الى زمن قديم . انظر الصباغ ص ٣٥-٦

(٨) Chau Ju - Kua p. 28 , H. Hasan p. 111

في الشتاء فقط ^(١) . وتستغرق الرحلة إلى الصين سنتين ^(٢) .

وكانت البصرة مبدأ الطرق البحرية ، فيذهب أولها إلى الهند والصين ، بينما يدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية إلى البحر الأحمر وإلى شرقي أفريقيا . ولما كان الخليج ضحلاً عند مصب دجلة العوراء ، فقد أنشئ منار في البحر تسترشد به السفن القادمة إلى البصرة ^(٣) .

وكانت التجارة البحرية مع الهند نشيطة لقربها من العراق . وكان بعض الأمراء الهنود - مثل البلورة (فلبهاراجا) أمير الساحل الغربي ^(٤) ، وراجا كانوج ^(٥) ، يشجعون التجارة مع العرب . وأهم مراكز التجارة العربية في الهند هي الديبل - وهي ميناء تبعد أربعاً وعشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة (Tatta) الحالية - ^(٦) ، والمنصورة على نهر للسند ، ومدينة المولتان ^(٧) . وفي الديبل ، كان العرب يتبادلون البضائع مع التجار الهنود الذين يجلبون بضائعهم من داخل الهند أو من المدن المجاورة ^(٨) . وكانت المولتان مركزاً مهماً للتجارة مع الأقسام الداخلية من الهند ، لأن فيها معبداً تقصده جماهير الحجاج الهنود من داخل البلاد ^(٩) .

(١) ابن رسته ص ٨٦ - ٨٧

(٢) المروزي ص ٥٣

(٣) وكان هذا المنار بهيئة بيوت انشئت فوق جذوع نخل منصوبة في البحر ، يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدماً فوق سطح الماء . ورتب في البيوت قوم يوقدون بالليل حتى تنبأعد المراكب عن الأماكن الضحلة . الاصطخري ص ٧٩ ، المسعودي ج ١ ص ٢٨٠ ، المقدسي ص ١٢ ، ناصرخسرو (الترجمة الفرنسية) ص ٩٠

(٤) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ٣٨٢ ، و H. A. p. 238

(٥) المروزي ص ٤٧ ، H. A. p. 299 . انظر Suleyman p 48

(٦) Camb. hist. of india , vol. III p 2 Heyd p. 34

(٧) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ٣٧٨ . وتقع المنصورة على بضعة أميال إلى الشمال الغربي من بيمن آباد ، III p. 8 Camb. hist. of india

(٨) المسعودي ج ١ ص ٢٠٧ و ص ٢٣٩ ، الاصطخري ص ٢٠

(٩) المسعودي ج ١ ص ٣٧٥ ، ابن حوقل ص ٣٢٢ ، ابن رسته ص ١٣٥ ، المروزي ص ٤٨

وكان التجار يتاجرون مع جزيرة سيلان ، فيشترون منها الأحجار الكريمة وخاصة العقيق ، ثم التوابل ، يأخذون اليها البضائع ومنها النبيذ العراقي ^(١) . وكان للعرب تجارة فعالة مع بعض البلاد الواقعة على الطريق إلى الصين مثل سومطرة ، وخاصة مع مواني لامبري (Lambri) ، وباروس (Barus) ^(٢) . ولكن هذه التجارة كانت معرضة لخطر القرصنة الهندية ^(٣) .

وكانت السفن الخارجة من البصرة ^(٤) ، والتي تقصد الصين ، تمر في طريقها بمسقط ، ثم الديبل ، ثم كولم ملي (Quilon) ، ثم حول الهند إلى خليج البنغال إلى لنجبالوس (وهي جزيرة من جزر النيكوبار) ، ثم كلهبار (Keda في ملقا) ، ومنها إلى جزيرة تيومه (سومطرة) ، ثم كندرانج (في دلتا نهر ميكونج) ، ثم إلى الصنف (Cambodia) ، ثم إلى صندر فولات (Poulo Condore) ، ثم في بحر الصين إلى (Lung - Pien في Tong King) ، وأخيراً إلى خاتكو (كاتون) ، ميناء الصين العظيم ^(٥) .

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، كانت السفن العربية تذهب إلى الصين ^(٦) ، والسفن الصينية تأتي إلى البصرة ^(٧) . إلا أن الحرب الأهلية التي اضطرت في الصين بين ٨٧٤ هـ / ٨٨٩ م ، لم تشل التجارة الصينية فحسب ، بل

(١) ابن خرداذبه ص ٦٧

(٢) H. Hasan, p. 101

(٣) Suleyman p. 37

(٤) انظر ابن الفقيه ص ١١ ، والمروزي ص ٢١ - ٢٢

(٥) انظر Suleyman 'p. 18 وابن خرداذبه ص ٦٧ - ٦٨ ، و H. Hasan p. 115 - 118

(٦) اليعقوبي - البلدان ص ٣٦٥ - ٦ ، ولمعرفة معاملة الصينيين لهؤلاء التجار انظر المروزي

٢٢ - ٢٣ ٩٢٣ ، Chau Ju - Kua p. 15 - 16 ، وعن العلاقات الأولى بين العرب والصينيين انظر

H Hasan p. 97 - 9 ، Yule - Cathay, I p. 89 - 92

(٧) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٧

أنها أخرجت التجار الأجانب من كانتون وزيتون (Ts'uan - Chou) ، وجعلتهم يلجأون إلى كله بار على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملقا^(١) .

وفي زمن المسمودي (حوالي ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م) كان التجار المسلمون والتجار الصينيون يلتقون في كله بار لتبادل البضائع^(٢) . وهكذا صارت كله بار نهاية خط الملاحة الإسلامية في الشرق^(٣) . ويؤيد هذا كتاب « عجائب الهند » الذي يعكس الحال في القرن الرابع الهجري بالدرجة الأولى^(٤) . إلا أن بعض الأفراد كانوا يتخللون إلى الصين حتى في هذه الفترة^(٥) .

ولكن الصلات المباشرة مع كانتون وزيتون استؤنفت قبل نهاية القرن الرابع الهجري . فقد بذلت الحكومة الصينية جهدها لتنشيط التجارة الخارجية ، وأرسلت وفداً إلى الخارج ليقنع « التجار الأجانب من الجنوب » بالهجرة إلى الصين ، ومنحت التجار الأجانب اجازات خاصة لاستيراد البضائع . ثم اتخذت بعد ذلك التدابير لتنظيم التجارة الخارجية . ففي سنة ٩٧١ م أعيد تنظيم دائرة الملاحة في كانتون ، وجعلت التجارة الخارجية بين ٩٧٦ - ٩٨٣ م بيد الدولة . وفي سنة ٩٩٩ م ، أنشأت الحكومة دوائر للتجارة البحرية في هانج شو (Hang - Chou) ، وفي منج شو (ming - Chou) - وهي نينج بو Ning po الحالية - ، « بناء على طلب التجار الأجانب وتسيلا لمعاملتهم »^(٦) .

(١) Chau Ju - Kua p. 18 ، المسمودي ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٧ ، H. Hasan p. 105

(٢) المسمودي ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

(٣) يافوت - معجم البلدان ج ٣ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ (لسنة ٣٣١ هـ / ٩٤٠ م) H. A. p. 225

(٤) Mez p. 515

(٥) انظر المسمودي ج ١ ص ٣٠٤ : الروزي ص ١٥٥

(٦) Chau Ju - Kua pp. 19-20

وقد لعب العرب الدور الرئيسي بين التجار الأجانب الذين كانوا يتاجرون مع الصين^(١) ، كما كانوا يعاملون معاملة طيبة من قبل الحكومة الصينية^(٢) . وكان التجار العرب يأخذون إلى الصين البضائع الآتية : العاج ، والكهرب ، الفصوصي الصقلي ، والكنندر (وهو عطر) ، والكافور ، والياقوت ، ودرق السلاحف (Tortoise - Shells) ، والختو الذي هو قرن الكركدن « وهو أعز محمول إلى الصين لأنهم يتخذون منه المناطق ، وتبلغ قيمة المنطقة منه مبلغاً عظيماً عندهم »^(٣) . وتبلغ المكوس التي يدفعونها عادة ٣٠ ٪ من قيمة البضاعة ، ولكنها تهبط أحياناً^(٤) .

ويشير الجغرافيون العرب إلى بعض التجار الذين يذهبون إلى كوريا (سيلا أو شيللا)^(٥) ، ولكن المسعودي يبين أنه لم يدخلها أحد من التجار العراقيين^(٦) . وكان الطريق البحري من البصرة إلى البحر الأحمر صالحاً للملاحة في جميع الفصول^(٧) . ولكن هذا الطريق كان مهدداً بالقرصان ، ولذلك كان « لا بد في كل مركب من مقاتلة وتقطين » لحمايته^(٨) . وأخطر نقطة في هذا الطريق هي سقطرى ، عش القرصان الهنود^(٩) . وكان التجار يذهبون إلى سواحل شرقي

(١) Chau Ju - Kua p. 32 و Hasan p. 106 off

(٢) Mez p. 515 - 516

(٣) المروزي ص ١٧ و ص ٥ (من القسم العربي) Chau Ju - Kua p. 15-6

(٤) يحمل Chau Ju - kua الحد الأدنى ١٠ ٪ والحد الأعلى ٤٤ ٪ . ص ٢١ - ٢٢ من الكتاب

(٥) ابن خردادبه ص ٧٠ وابن رسته ص ٩٢ - ٣ ، Biruni : India, I p. 210 - 211

والمسعودي - التنبيه ص ١٢٦ ، المروزي ص ٢٧

(٦) المسعودي ج ١ ص ٣٤٦

(٧) ابن رسته ص ٨٦ - ٨٧

(٨) المقدسي ص ١٢

(٩) المسعودي ج ٣ ص ٣٧ ، المقدسي ص ١٤

أفريقية حتى سُفالة (موزامبيق) وهي حد أسفارهم التجارية^(١). وكانوا يبحثون عن الذهب والرقيق^(٢). وبوضح لنا البيروني طريقة تعامل التجار مع الزنج فيقول: «إن من رسم تجار البحر في مبيعات.. الزنج أن لا يأمنوهم في العقود وإنما تجيء رؤسائهم وكبارهم ويرهنون أنفسهم حتى يستوثق منهم بالقيود، ويدفع إلى قومهم ما أرادوا من الأمتعة ليحملوها إلى أرضهم ويقتسموها فيما بينهم. ثم أنهم يخرجون إلى الصحارى في طلب ائمانها، ولا يجد كل واحد من الذهب في تلك الجبال إلا بمقدار ما خصه من السلع. زعموا - ويكون الموجود على مثال النوى، فيجيشون به إلى المراكب ويسلمونه إلى مراكبهم ورهائنهم حتى يؤدوه ويرفعون الوثائق عنهم»^(٣). وعني التجار العرب بتوسيع صلاتهم التجارية وبتقويتها وذلك بإنشاء مراكز تجارية لهم يجعلون لهم فيها الوكلاء ويؤسسون المخازن. وكانت هذه المراكز مأهولة في العادة بمسلمين لاجئين من اضطهاد سياسي أو ديني، وبمسلمين من أهل البلاد، وتكون إدارتها إلى قاضي يدير شؤونهم حسب الشريعة الإسلامية^(٤). وكانت للعرب مراكز مهمة في الهند. وقد شاهد المسعودي سنة ٩١٦ م مستعمرة عربية تجارية في منطقة صيمور (Chaul الحالية) فيها حوالي عشرة آلاف، تتألف من قادمين جدد من البصرة وبغداد وغيرها، ومن أفراد من نسب عربي ولكنهم ولدوا في البلاد. وفي المستعمرة تجار كبار^(٥). وتوجد مراكز تجارية أخرى في بعض المدن شمال صيمور^(٦).

(١) المسعودي ج ٣ ص ٦٤، المروزي ص ٥٤. وفي سنة ٩٣٠/٩١٦ م أنجز المسعودي من زنجبار - التي كان امرأؤها مسلمون آنثد - إلى عمان. المسعودي ج ٣ ص ٣١

(٢) H. A. p. 165

(٣) البيروني - الجواهر في معرفة الجواهر ص ٢٣٩

(٤) انظر المروزي ص ١٧، المسعودي ج ٢ ص ٨٥ وما بعدها، و

Chau Ju - kua p. 16 و Suleyman p. 38 - 9 و Hasan p. 99

(٥) المسعودي ج ٢ ص ٨٥ وما بعدها

(٦) المسعودي ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٣ و Heyd p. 33 و Suleyman p. 38.

وكانت كانتون مركزاً مهماً للتجار العرب . ويوجد بين هؤلاء تجار عراقيون كان لهم دور هام^(١) . وتشير رواية عربية - لعلها من القرن الثالث الهجري - إلى بعض العلويين الذين هربوا من مطاردة الأمويين إلى أقصى الشرق ، واستقروا في كانتون . وقد تعلموا اللغة الصينية وصاروا وسطاء بين الحكومة الصينية وبين التجار الأجانب^(٢) . وتوجد مستعمرات عربية تجارية أخرى في الصين في زيتون وهانج شو (Hang - Chou)^(٣) . وتوجد مستعمرات عربية على طريق الصين في كله بار وشمالي سومطرة وفي جزر النيكوبار^(٤) .

ب - التجارة البرية :-

كانت التجارة البرية في الطريق الشرقي مع إيران ، وما وراء النهر ، وشرقي أوربا . وفي الطريق الجنوبي والطريق الغربي مع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمالي أفريقيا . وكانت الجمال أهم وسائل النقل ، وتستعمل الجمالزات أو الجمال السريعة للسفر السريع^(٥) . وكان التجار والمسافرون يستفيدون من « كتب المسالك » في سفرهم ، إلا أنهم كانوا يستعينون في الغالب بالأدلاء وخاصة في الطرق الخطرة كما هو الحال في بادية الشام وفي أواسط آسيا^(٦) .

كانت التجارة مع خراسان وبلاد ما وراء النهر تسلك الطريق التاريخي المشهور وهو « طريق خراسان » الذي يمر ببغداد إلى همدان ، وقزوين ، والري ، ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، حيث يتشعب إلى فرعين : يذهب الشمالي منها إلى

(١) Suleyman p. 38 - 39 p. 104 و Chau ju - kua p. 16 , p. 17 . ولمعرفة

تاريخ هذه المستعمرة عند نشوئها انظر Chau Ju - kua p. 15 و Hasan p. 99

(٢) المروزي ص ١٧ و ص ٦٦ - ٧

(٣) Chau Ju - kua p. 16

(٤) ibid p. 18 و Hasan p. 101

(٥) مسكويه ج ٣ ص ٦٢ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٤ ومسكويه ج ٢ ص ٣٥٠

(٦) ابن خرداذبه ص ١٧٨ مسكويه ج ٣ ص ٦٤

خوارزم ، والشرقي الى الصين . وكانت التجارة قوية جداً مع ايران ، حتى كانت القواكه تستورد منها بكميات كبيرة ^(١) . ومن الناحية الاخرى كان العراق مركزاً مهماً في الترانسيت للتجارة الايرانية ^(٢) .

وكانت خوارزم محطة مهمة للتجار الذين يتاجرون مع الترك واواسط آسيا وأوروبا الشرقية . فأكثر الرقيق التركي والصقلي ، وكذا الفرو الصقلي والخزري كان يأتي بطريق خوارزم ^(٣) . وكانت قوافل التجارة متصلة من خوارزم الى بلغار ، ومن بلغار الى خوارزم ^(٤) .

وكان بعض التجار يذهب الى مدينة بلغار ^(٥) ، بطريق إتل اما براً أو في القوارب بصعود الفولكا . وكانوا يدفعون ضريبة قدرها ١٠/١ في بلغار ، ويعاملون معاملة طيبة لأن البلغار كانوا قد دخلوا الاسلام حديثاً ^(٦) . ولتقرير ابن فضلان ، عن سفارته الى بلغار (سنة ٩٢١ م) ، أهمية خاصة لأنه يظهر بوضوح كيف أن الدعوة الى الاسلام كانت وثيقة الصلة بالفعالية التجارية في هذه الفترة . وكانت البضائع الروسية والبلغارية تأتي من بلغار ^(٧) . ومن هذه البضائع أنواع الفرو كالسمور ، والسنجاب ، والفنك ، وفرو الثعالب ، والنشاب ، والقلائس ، وغراء السمك ، والسيوف ، والدروع ، والرقيق من الصقالية ، والعسل ، والشمع ^(٨) .

(١) النظر قسم الواردات .

(٢) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١

(٣) ابن حوقل ص ٤٦٥ و ص ٤٨١ - ٤٨٢

(٤) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ - ١٦

(٥) وهي عاصمة البلغار . والبلغار قوم لا يعرف اصلهم تماماً ، وقد تخطل بعضهم الى اواسط حوض

الفولكا . انظر : E. I. vol I. p. 786 off

(٦) ابن رسته ص ١٤٠ - ١٤١

(٧) Heyd p. 61

(٨) المقدسي ص ٣٢٤ - ٣٢٥

وكان الخزر - بين القوقاس والفولسكا - وسطاء مهمين في التجارة ، بين البلاد الاسلامية وبين شرقي أوروبا . وكان طريقهم التجاري نهر الفولسكا وبضاعتهم الوحيدة غراء السمك ، أما البضائع الاخرى فكانت تحمل اليهم ^(١) .

ويوجد شعب فنلندي كان يسكن الاراضي الواقعة بين الخزر والبلغار ويسمى برطاس (Mordva) ، وكان يصدر الفرو ، وخاصة فرو الثعالب السود ، الذي كان ممتازاً وثميناً جداً . وكانت تجارتهم تحمل بطريق خراسان ^(٢) .

وتوجد إشارات كثيرة الى التجارة مع الروس ^(٣) . فيتحدث ابن خرداذبه عن التجار الروس - الذين يعتبرهم صنفاً من الصقالبة - وبين أنهم كانوا يأتون بطريق نهر الدون ، ثم يعبرون الى الفولسكا وينزلون فيه الى بحر قزوين . وبعد أن يصلوا الى الساحل الجنوبي لبحر قزوين ، يحملون بضائعهم على الجمال الى بغداد ، وهناك يتظاهرون بأنهم مسيحيون ويدفعون الجزية . وكانوا يتاجرون بفرو الخزر ، وفرو الثعالب السود ، وبالسيوف ، ويستعينون بخدام من الصقالبة ليرجعوا لهم ^(٤) . ويؤكد ابن رسته - الذي يتحدث عن الروس الذين كانوا يسكنون حول نوفوكرود (Novograd) - أنهم كانوا يتاجرون بفرو الخزر والسنجاب والريق ^(٥) .

ويضيف ابن حوقل الى ذلك أن التجارة الروسية كانت تحمل دائماً عبر الاراضي الخزرية ^(٦) ، وأن التجار المسلمين كانوا يتاجرون مع كويابه (كييف Kiev)

(١) ابن حوقل ص ٣٩٤ ، الاصطخرى ص ٢١٨ و ص ٢٢١

(٢) المسعودي - التنبية ص ٦٢ - ٦٣ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٤

(٣) كانت كلمة (روس) تعني في البدء اهل الشمال . ثم صارت تشير الى مؤسسي اماره (كييف) .
E. I. Art. « Rus » vol. IV p. 1182

(٤) Heyd p. 61 - 2 ، ابن خرداذبه ص ١٥٤

(٥) ابن رسته ص ١٤٥

(٦) لاقى ابن فضلان بعض التجار الروس قرب بلغار ، وكانوا يحملون الرقيق والفرو في طريقهم الى بحر قزوين . E. I. Art. « Rus » , 1 - 90 , Seippel

مباشرة^(١) . ويتحدث المروزي عن السكرب الصقلي المحمول من منطقة البلطيق والذي يأخذه التجار المسلمون إلى الصين^(٢) .

وقد وجدت كميات كبيرة من النقود العباسية في روسيا وفي حوض بحر البلطيق . وقد وجدت أكبر مجموعات النقود الفضية في منطقة البحيرات الروسية الكبرى (قرب نوفو كروود وبساكوف Pskov) ، في روسيا الوسطي ، وفي حوض الفولكا (قرب Jaroslave جاروسلافه و Vladimir فلاديمير و Kazan قازان) ، وعلى القسم الشمالي للدينير (فيتبسك Vitebsk) ، وفي مناطق البلطيق وخليج فنلندة ، وأخيراً في جزيرة جتلند (فسي Visby على البلطيق)^(٣) . وأقدم هذه النقود يعود إلى بدء القرن الثامن للميلاد (الثاني للهجرة) ، ولكن أكثرها يعود للفترة التي بين نهاية القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وأواسط القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) . وأكثرها نقود سامانية ، وفيها كمية كبيرة من النقود البغدادية^(٤) .

ويمكننا أن نستنتج ، مما وجد من النقود ، عدة أمور : منها أن شعوب شرقي أوروبا قبلت النقود العباسية بكل رغبة في معاملاتها التجارية ، وإنها أن النصف الأول للقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان زمن عز التجارة مع شرقي أوروبا ، وأخيراً أن أكثر هذه التجارة كان يحمل بطريق ما وراء النهر ، وأن التجارة العراقية كانت تكون جزءاً هاماً منها .

أما التجارة البرية مع الصين فكانت ضئيلة ، إن لم تكن معدومة . إذ أن الرحلة كانت طويلة ، وكثيراً ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق المؤدية إلى الصين كوسيلة

(١) ابن حوقل ص ٣٩٢ و ص ٣٩٧ ، الاصطخرى ص ٢٢٥ - ٦ . ويضيف ابن حوقل

الرصاص والرئبق الى صادرات الروس . E. I. art « rus »

(٢) المروزي ص ١٦ - ١٧ ، انظر المسعودي ج ٢ ص ١٥ - ١٨ .

(٣) Heyd p. 63 off . انظر ابن حوقل ص ٣٩٧ والاصطخرى ص ٢٢٦

(٤) انظر التفاصيل في 32 - 43 Vasner p. و Heyd; p 58 off

للتحفظ من التخلل الأجنبي^(١). فالطريق البحري كان أسهل بكثير لدرجة أن بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند إلى البصرة ، ومن هناك يسلكون الطريق البحري إلى الصين^(٢).

وليس لدينا أية إشارة إلى وجود مراكز تجارية للمسلمين على الطريق البري إلى الصين ، ومن المحتمل أن كل تجارة إسلامية سلكت ذلك الطريق ، كانت تحمل بواسطة الصفد في آسيا الوسطى (وهم شعب إيراني الأصل) ، وهؤلاء كانت مراكزهم ومستعمراتهم التجارية تمتد بين سمرقند والصين^(٣).

أما الطريق البري إلى الهند فكان طويلاً وشاقاً. وفي القرن الثالث الهجري ، كان اليهود « الرذائيون » يذهبون من البصرة إلى الأهواز ، إلى كرمان ، إلى السند ، ثم الهند^(٤). وهناك طريق آخر ، كثيراً ما سلكه التجار ، وهو من خراسان إلى السند^(٥). ولكن يحتمل أن الظروف السياسية كانت لا تسمح بوجود تجارة تستحق الذكر مع داخل الهند^(٦).

وكانت التجارة بين العراق والشام قوية ومنظمة لدرجة أن الحضرات كانت تجلب أحياناً من الشام إلى العراق^(٧). ويخبرنا اليعقوبي أن السفن كانت تأتي باستمرار - محملة بالبضائع السورية وبالذقيق - في الفرات ، ثم تسلك نهر عيسى إلى

(١) المروزي ص ١٩١

(٢) المسعودي ج ١ ص ٣٤٧ - ٩ ويذكر المسعودي حادثة يراها فريدة وهي انه رأى شيخاً في بلخ ، سلك الطريق البري الى الصين .

(٣) انظر H. A. p 225, p. 229; p. 363 المروزي ص ١٨ و ص ٧٠ - ٧١ ، وابن خردادبة ص ١٧٨ .

(٤) ابن خردادبة ص ١٥٤

(٥) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٧ و ص ٣٤٩

(٦) Biruni-India, I. p. 206 . ويبين البيروني أن السفر الى السند يكون بطريق سبستان .

أما الى الهند (ويقصد بقية الهند) فيكون البدء من جهة كابل .

(٧) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٥ .

بغداد^(١) . وكانت حركة النقل في هيت - حيث يعبر طريق الشام نهر الفرات - قوية لدرجة أن وارد العبارة هناك لسنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م بلغ ٨٠٢٥٠ ديناراً^(٢) . وكانت التجارة مع الجزيرة العربية نشيطة في موسم الحج بصورة خاصة^(٣) . وكان للتجار العراقيين علاقات تجارية مربحة مع البربر في شمالي افريقية ، وأهم ما يطلبونه منهم الذهب^(٤) .

وكانت للعرب محطات تجارية مهمة على طرق التجارة البرية . ففي الشرق ، كانت توجد في سمرقند جالية عراقية تجارية^(٥) . وكانت في (إتل) عاصمة الخزر ، جماعة من المسلمين يبلغ عددها عشرة آلاف ، فيها مسلمون من الخزر ، وتجار وصناع مسلمون من البلاد الاسلامية^(٦) . وكان في بلغار جماعة من التجار المسلمين ، بل وحتى بعض الصناع العراقيين^(٧) .

وفي الغرب ، كانت في سبلماسة (في مراکش) جالية ناجحة من التجار العراقيين من أهل البصرة والكوفة وبغداد^(٨) . وكانت في مصر جالية من اليهود العراقيين ، يشتغل بعض أفرادها وكلاء للتجار العراقيين . ومن أمثلة ذلك يعقوب بن كلس - الذي صار وزيراً للخليفة الفاطمي العزيز - فقد كان يهودياً

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٥٠

(٢) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27

(٣) المقدسي ص ١٣٣ - ٤

(٤) البيروني - الجواهر ص ٢٣٧ - ٤٨ ، ابن حوقل ص ٦١ . يذكر ابن حوقل ان العراقيين كانوا يتاجرون مع زنوج وسط افريقيا فيحملون اليهم الثياب البصرية البراقة ويستقبلونهم بالذهب .

(٥) ابن حوقل ص ٤٩٨

(٦) المسعودي ج ٢ ص ١١ - ١٢ ، ابن حوقل ص ٣٨٨ ، ص ٣٩٠ ، ابن رسته ص ١٤٠ ، الاصطخري ص ٢٢٨

(٧) انظر E. I. Art. Bulghar, I. p. 788

(٨) ابن حوقل ص ٦٠

بغدادياً ، بدأ حياته في القاهرة وكيلاً للتجار ^(١) .

يقي علينا أن نذكر مشكلة العملة في التجارة الدولية . ويظهر أنه كانت هناك ثلاث طرق في المعاملات التجارية :

الطريقة الأولى : هي طريقة المقايضة ، وكانت تتبع في التعامل مع زنوج شرقي أفريقيا ووسطها ^(٢) ، ومع جزر المحيط الهندي ^(٣) ، ومع الصين في بعض الأحيان . فيذكر المروزي أن أكثر أعمال التجار المسلمين في الصين كانت تتم عن طريق الوسطاء الذين « يخرجون اليهم ويطلبون البضائع والأمتعة ويحملونها إلى صاحب الصين ، ويأتون بالعوض إذا قرر » ^(٤) .

والطريقة الثانية : هي طريقة التعامل المزدوج ، وهي أن يأخذ التجار العملة المحلية لقاء بضائعهم ، ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلك البلاد . وكانت هذه الطريقة تتبع أحياناً في الصين ^(٥) ، وفي بعض جهات الهند مثل مملكة كنجوج (Kanoj) ^(٦) . وقد وصلت هذه الطريقة حد الكمال في البصرة حيث كانت العملية بوجهها تتم عن طريق الصرافين ، دون الحاجة إلى استعمال النقود فعلاً ^(٧) .

(١) انظر :

Mann, J. Q. R. , N. S. X p. 39 and p. 325 Fischel : Jews in Med. Isalm p. 30 - 6 ; p. 46 - 47

(٢) البيروني - الجاهز من ٢٣٧ - ٩

(٣) ابن خردادبه من ٦٥ Suleyman p. 40-1

(٤) المروزي من ١٧ .

(٥) انظر المقرئزي - اغانة الامة من ٦٨ حيث يتحدث عن ورقة نقدية عند تاجر عراقي في القرن الرابع الهجري ، « فيها خطوط بقلم الخطا (Cathay) . من ورق التوت » ، وان قيمتها تساوي خمسة دراهم في عاصمة الصين و « ان ملكها يحتم لهم هذه الأوراق » . انظر

Suleyman p. 53-4

(٦) المروزي من ٤٧

(٧) انظر الفصل عن « الجهبنة والصيرفة » .

ثالثاً : كانت النقود العباسية ، من دراهم ودنانير ، تقبل أحياناً ثمناً للبضائع
المشتراة ، كما كانت الحال في التجارة مع شرقي أوروبا ^(١) . فكان الروم يأخذون
النقود الفضية والذهبية لقاء ما يبيعونه للمسلمين من بضائع ^(٢) .

(١) ابن رسته من ١٤٢ .

(٢) ن . م . من ١٤٥ .

الفصل الخامس

الجهيزة والصيرفة

فصل الفصل :

تمهيد : ملاحظات عامة :

أولاً - الجهيز :

عدم دقة التعاريف المختلفة للكلمة . الاشتباه بين الجهيز بمعنى الكتاب المالي ، والجهيز بمعنى صاحب بيت مالي .

أ - الجهيز - الكتاب المالي : (١) أصله (٢) وأحياته (٣) ديوان الجهيزة

ب - الجيز - صاحب بيت المال : (١) الجهيز قبل القرن الرابع (٢) عدم وجود مصرف رسمي قبل

سنة ٥٣٠١ هـ . (٣) علي بن عيسى ينشيء أول مصرف رسمي سنة ٥٣٠١ هـ بالاتفاق مع

« الجهيزين اليهوديين » (٤) ماملات « الجهيزين اليهوديين » الخاصة مع ابن الفرات .

(٥) نهاية بيت جهيزة . (٦) جهيزة مختصون بوزراء وامراء . (٧) مصادر رأس مال

الجهيز : التجارة - الودائع - ضمان الضرائب (٨) خلاصة .

ثانياً - الصراف :

(أ) الصرافون قبل القرن الرابع الهجري . (ب) أعمال الصراف في القرن الرابع الهجري :

تسليف النقود ، التبديل ، الوساطة بين الناس ودار الضرب . (ج) أعمال الصراف المالية .

خدماته للتجارة خاصة في البصرة . (د) ماملات الصرافين مع الموظفين ، وبصورة خاصة مع

الناس . (هـ) مصادر رأس مال الصراف - الودائع ، التبديل . (و) المسلمون والمسيحيون

واليهود يشتغلون بالصيرفة . الخلاصة .

ثالثاً - السفطة :

(أ) تعريفها وبدا استعمالها . (ب) طبيعتها وانتشار استعمالها في القرن الرابع .

(ج) الساحب والمحبوب منه . موعد الدفع . الخصم . (د) السفطة تنوب عن صكوك

الساقرين الآن .

رابعاً - الصك :

(أ) تعريفه واستعماله الاول (ب) استعماله في القرن الرابع : (١) من قبل الحكومة لدفع

رواتب الموظفين (٢) من قبل الأفراد . (ج) تكتب الصكوك عادة على الجهايزة ، وأحياناً على

أفراد . (د) الصك ورقة دين .

خامساً - الجهيزة والصيرفة وأهميتها للمجتمع .

اتخذت المصارف في القرن الرابع الهجري شكل بيوت مالية ، نشأت عن ضرورات التجارة من جهة ، وحاجة الدولة الى النقود من جهة أخرى . وكانت لا تزال في طور النمو . أما أصولها فترجع الى مصدرين :

الأول : نجار أخذوا يشتغلون بالصيرفة والائتمان . وهؤلاء هم الجهابذة .

الثاني : صيارفة يشتغلون بصرف النقود ، ثم وسعوا معاملاتهم إلى قبول الودائع وتسليف النقود .

ولأجل الاحاطة بالموضوع يلزم النظر في :

١ - مركز وشغل : (أ) الجهيد (ب) الصراف .

٢ - تعريف واستعمال : (أ) السفتجة (ب) الصك .

١ - (أ) اما كلمة « جهيد » فليست حديثة ، ولكن مدلولها تغير بمرور الزمن

حسب تطور وظائف من تطلق عليه ، ولذا فلا يصح تخصيص معنى واحد ثابت لها .

ولعل نظرة على تعاريف مختلف الباحثين تبين أنها تشير إلى عمل من أعمال الجهبنة

فقط . فتاج العروس يعرف الجهيد بـ « النقاد الخبير بغوامض الأمور ، العارف

بطرق النقد » ^(١) . والفيروز آبادي يعرفه بـ « الناقد الخبير » ^(٢) . ويترجم (مترز)

كلمة « جهيد » بـ « صاحب مصرف - Banker » ^(٣) ، ويعطيها (ماسنيون) نفس

المعنى « Banquier » ^(٤) . أما (دوزي) فيفسرها بـ « ناقد Verificateur »

أو صراف « Changeur » ^(٥) . بينما يترجمها (فون كريمر) بـ « محاسب -

Regierungskassierer » ^(٦) . ويخصص (آمدروز) معناها بـ « كاتب

(١) تاج العروس ج ٢ ص ٥٥٨ .

(٢) الفيروز آبادي - القاموس المحيط (طبعة ثالثة ١٩٣٣) ج ١ ص ٣٥٢

(٣) Mez = Renaissance of Islam. p. 477.

(٤) Massignou = L'influence de l'islam au Moyen Age sur la fondation et

l'essor des Banques Juives. B. I. F. D. 1935 p. 5.

(٥) Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes Vol. 1. p. 226.

(٦) Von Kremer : Ali b. Isa. p. 8 n. 2.

مالي Treasury receiver أو Receiving clerk ^(١) . ويفسرهما (مرجليوث) بـ «جاني ضرائب» Collector ^(٢) . وأخيراً نرى (فيشل) يؤيد تعريف الجهيد بـ «صاحب مصرف» ، لأنه يعتقد «ان وظائف الجهيد تؤيد ذلك» ^(٣) .

وفي هذه التعاريف شيء من الصحة ولكنها غير كاملة . وعدم الدقة فيها ناتج عن اضطراب الباحثين في أمرين ، وهما :

- ١ - عدم التمييز بين الجهيد كصاحب مصرف ، وبين الجهيد ككاتب خراج ^(٤) .
- ٢ - الاعتقاد بأن الجهيد والصراف اسمان لمسمى واحد ^(٥) .

أما ظهور الجهيد ، ككاتب خراج ، فإنه يرجع إلى زمن الساسانيين ، ويروى أن المنصب أحدث زمن جمشيد ^(٦) . ويذكر عن آل أبي دلف أنهم كانوا من

(١) Amedroz : Remains of Sabi, Gloss. p. 58 : J. R. A. S. 1908 p. 432.

(٢) مرجليوث - ترجمة التنوخي الى الانكليزية .

(٣) Fischel = jews in the Economic & Polit. Life of Medieval Islam. London, 1937. p. 3.

(٤) قارن : الجهتياري : الوزراء ، والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٨ ، و ص ١١٤ ، والتنوخي نشرار المحاضرة . الجزء الأول ص ٥٧ . نلاحظ هذا الارتباك في فيشل ص ٤ ، انظر يوسف غنيمة : « الجبهدة والجهابذة زمن العباسيين » ، مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤٢ ص ٢٤٣ .

(٥) انظر (متن) (الترجمة الانكليزية) ص ٤٧٦ و ص ٤٧٧ . واخطأ (فيشل) باعتقاده ان الجهابذة كانوا صرافين وسعوا عمالهم من صرف النقود الى اقراضها ص ٣ ، م ٤ ، و ص ٤ ، وكذا حبيب زيات في مقاله « الصبارة في الاسلام » (المشرق سنة ١٩٣٧) ص ٤٩١ اذ يقول : ان معنى الجهيد « في عهد الخلافة العباسية الناقد والصيرفي » . وكذا الأستاذ يوسف غنيمة حين عرف الجهيد — « الذي يفحص قطم المسكوكات ليفصل الصالحة من الرديئة ، اي ممتحن نقاد صيرفي » ، مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤٢ ص ٢٤٣ . وكذلك فؤاد افرام البستاني اذ يقول في مقال « تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين » (المشرق سنة ١٩٣٤ ص ٤٤٩ - ٤٣٣) « الجهيد يراد به الصيرفي الرسمي » ولكن الأخير اقرب الى الصحة من غيره .

(٦) ابن رسته - الأعلام النفيسة ص ١٩٦

جهازة الخيرة ^(١) . وكان هذا الجهد معروفا عند المسلمين في أوائل العصر الأموي منذ زمن معاوية ^(٢) . فلما جاء العباسيون وسعوا عمل الجهد إلى المقاطعات ، واستعان بعض الولاة بالجهازة لجباية الضرائب في بعض المقاطعات ^(٣) . وقد اعترف أحد هؤلاء الجهازة بأنه كان فقيراً عندما عين جهداً ^(٤) . ويروي الجهشاري أنه كان لعمر بن مهران ، عامل الرشيد على مصر ، جهد يقوم بوظيفة محاسب لدى العامل ^(٥) .

وقد حفظ لنا القمي (المتوفي عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) عهداً من المقتدر لجهد (قُم) خصص فيه واجبات هذا الجهد ، نستخلص منه أن على الجهد أن يستلم الوارد من الخراج والموارد الأخرى ، ويساعده في عمله كاتب خاص ، وأن عليه أن يقدم قائمة خاصة بالدخل اليومي ، ثم تقابل قوائمه بقوائم كاتبه كما تقابل « البراءات » (الوصولات) التي يصدرها بسجل الوارد . وكان الجهد يعمل حساباً شهرياً بالدخل يدعى « الحتمة » ، وحساباً سنوياً يسمى « الحتمة الجامعة » . والخلاصة فإن أهم واجباته التأكد من وصول الواردات بكاملها إلى الديوان . وكان يستلم بدل خدماته أجوراً من الضرائب المحبأة ، تدعى « حق الجبهة » ويحدد مقدارها حين تعيين الجهد ^(٦) .

(١) ن . م . ص ٢٠٣ .

(٢) انظر الجهشاري ص ٢٨ .

(٣) ن . م . ص ١١٤ ، القمي : تاريخ قم . طهران ١٣٥٣ هـ ص ١٤٩ .

(٤) مسكويه : تجارب الامم (باعثناء آمدروز في ٧ مجلدات) ١٩٢٠ - ج ١ ص ١٥٨ ،

الجهشاري ص ٣٦-٧ .

(٥) الجهشاري ص ٢٢٠-١ .

(٦) القمي : ص ١٤٩-١٥١ ، انظر الخوارزمي : مفاتيح العلوم (القاهرة ١٩٣٠) ص ٤٦-٧ .

ولمعرفة وظائف الجهد في عهد المالك في مصر انظر : الفلقشندي - صبيح الاعشى (القاهرة

١٩١٩-٢٢) ج ٥ ص ٤٦٦ ، وابن مماتي . قوانين الدواوين (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ص ٩١ .

وكان في بغداد ديوان خاص يسمى ديوان الجهبنة^(١) ، ومن واجبات رئيسه أن يعد في نهاية كل شهر وكل سنة حساباً بالدخل والخرج وأن يقدمه لبيت المال^(٢) . ولما كان بعض هؤلاء الجهابذة مسلمين ، يمكننا أن نقرض أن أعمالهم لم تسكن من باب الصيرفة^(٣) .

وكانت مرحلة انتقال الجهابذة من كتاب خراج إلى أصحاب بيوت مالية ، عند تعيين بعض التجار للجهبنة بعض المناطق . وكمثل لهذا تعيين يوسف بن فنحاس جهبذاً للاهواز في وزارة ابن الفرات الأولى (٢٩٦ هـ - ٩٠٨ م / ٩١١ م) . ولما احتاج ابن الفرات إلى النقود لدفع رواتب بعض الكتاب « أحضر يوسف بن فنحاس اليهودي فقال له : إن هذه الحال وافت ولم يتأهب أصحابنا لها ، وقد سببت أرزاقهم على مال الأهواز ، ولا بد أن تقدم لهم مال شهرين فذكر كثرة الأموال التي ألزم تعجيلها من معاملة الأهواز وأنه لا يتمكن من غير ذلك . فلم يزل معه في مناظرة حتى استجاب إلى إطلاق جاري شهر معجل في ذلك اليوم »^(٤) . ومن هذا نلاحظ أن الغاية من تعيين هذا التاجر جهبذاً ، هي حاجة الدولة إلى المال قبل موعد الجباية ، فيقوم الجهبذ بالتسليف ثم يستوفي أمواله بعدئذ من ضرائب الأهواز . وتوجد إشارات إلى الجهابذة أصحاب البيوت المالية في عصر المنصور ، فقد أنهم

(١) يفهم من قصة برويه التتوخي (الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٩ - ٤٠) أنه كان للجهبنة في زمن (الرشيد) دائرة خاصة ، لها شعبة من بيت المال ، إذ يقول عن شخص أنه « ابن داية أمير المؤمنين (الرشيد) وهو الآن جهبذة وصاحب بيت ماله » . (٣٩) ثم يصف محل عمل الجهبذ « دخلت الدار . فرأيت .. في صدره وجل شاب بين يديه كتاب وجهابذة وحساب يستوفيه عليهم ، وفي صغاف الدار ومجالسها جهابذة بين أيديهم الأموال والتخوت والشواهي ، يقبضون ويقبضون » (ص ٤٠) . سكن عريب - صلة الطبري (ليدن ١٨٩٧ ص ١٣٥) هوال أول من يشير إلى ديوان مستقل للجهبنة سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٥ م .

(٢) الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٣٦ - ٧ .

(٣) ابن الأثير - طبعة تورنبرغ ، ليدن ١٨٥١ - ٧٦ ج ٩ ص ١٤٧ .

(٤) الصابي : الوزراء ص ١٧٨ .

خالد البرمكي بأنه أودع مالا عند جهيز نصراني^(١). وكان لأحد عمال الرشيد جهيز يودع عنده أمواله^(٢).

ويروي التنوخي ما يؤيد أن الجهابذة - أصحاب البيوت المالية - كانوا تجاراً في الأصل ، إذ يذكر أنه كان لسليمان بن وهب (وزير المعتمد) وابنه عبيد الله جهيز خاص يدعى ليث ، فكانا يودعان النقود عنده ويكتبان الصكوك عليه . ولما صرف سليمان من الوزارة قبض خلفه على ليث ليأخذ ما أودع آل وهب عنده من النقود ، واكتشف في داره بئراً فيها ثمانون ألف دينار . فلما سأل الجهيز « هذه البئر مالك أو مال أصحابك ؟ » أجاب : « بل مالي ، أنا رجل تاجر »^(٣).

وحتى زمن المعتمد (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م) لم تكن الدولة تقترض حين الحاجة من الجهابذة بل كانت تلجأ إلى وسائل أخرى للحصول على المال . فمثلاً عندما بوع المعتمد (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) شكى إلى وزيره إفلاس الخزينة وأنه يحتاج إلى ٧٠٠٠ دينار يومياً على الأقل . فحل الوزير هذه المشكلة باعطاء ضرائب بعض المقاطعات بالضمان إلى شخص يدعى الطائي على أن يدفع هذا ٧٠٠٠ دينار يومياً و ٦٠٠٠ دينار شهرياً^(٤). وعلى العموم كان الوزراء يقترضون من التجار^(٥).

ولم يبدأ نظام تعيين جهابذة رسميين ، لتسليف الدولة ما تحتاجه من النقود ، حتى سنة ٣٠١ هـ / ٩١٢ م . نعم كانت لابن الفرات - أثناء وزارته الأولى - معاملات مع الجهبذين اليهوديين هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس ، ولكنها كانت شخصية . فيذكر التنوخي والصابي أن ابن الفرات « نصب » (سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

(١) الجهبذاري - الوزراء من ١٠٠

(٢) ن . م . م . ٢٢٠ - ٢٢٩

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٥٧ .

(٤) الصابي : الوزراء من ١٠ - ١١ .

(٥) التنوخي - نشوار ج ٨ ص ٢٤ .

يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران الجبهذين»^(١)، وأسند اليها حفظ كل الأموال المصادرة من أنصار ابن المعتز «دون يد صاحبي بيت المال العامة والخاصة»^(٢). ولكنه أفرد ابن فرجون كاتبه بمحاسبتهما والاستيفاء عليهما فكان يحاسبهما ولا يرفع إلى الدواوين شيئاً من حسابهما»^(٣). ويؤيد الصفة الشخصية لهذه المعاملات ما يرويه التنوخي من أن ابن الفرات، عندما سجن بعد وزارته الأولى، اعترف لمؤنس الحاجب بأنه بقي قبل يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران ١٠٤٦/٥٤٦ درهما «فقبض مؤنس منهما تلك البقية ومضى الأصل كله لا يعرف في أي شيء صرف، وكان مبلغه فيما ظنه الكتاب نحو ألف ألف دينار، وفاز ابن الفرات بجميعها ولم يقيم بها حاجة عليه»^(٤). ولكن هذا لم يرض الوزير الجديد علي بن عيسى (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ / ٩١٢ - ٩١٦ م) فأمر باحضار «الجبهذين» ومالبهما بما أودع ابن الفرات وبعد ضغط شديد اعترفا «أنه بقي عندهما (١٠٠.٠٠٠ دينار) لحساب ابن الفرات. ولكن علياً ألح حتى ألزمها ٢٠٠.٠٠٠ درهم»^(٥). وهذا يبين أن «الجبهذين اليهوديين» لم يكونا جبهذين رسميين، بل مختصين بابن الفرات.

ويرجع الفضل في انشاء مصرف رسمي إلى الوزير العظيم علي بن عيسى، الذي اضطرته حالة الخزينة الحرجة في وزارته الأولى (٣٠٠ - ٣٠٤ هـ / ٩١٢ - ٩١٦ م) أن يدفع الجبهذين اليهوديين إلى تأسيس مصرف للدولة. إذ استدعاهما إلى حضرته وقال لهما «إني احتاج في كل هلال إلى مال ادفعه في ستة أيام من ذلك الشهر إلى الرجالة ومبلغه ثلاثون ألف دينار، وربما لم يتجه في أول يوم من الشهر ولا الثاني،

(١) وهذا أول ذكر عثرت عليه لاشتراك هذين الجبهذين في معاملتهما.

(٢) التنوخي - نشوار ج ٨ ص ٢٣-٢٤.

(٣) الصابي : الوزراء ص ٧٩.

(٤) الصابي : الوزراء ص ٧٩، التنوخي : نشوار ج ٨ ص ٢٤.

(٥) التنوخي : نشوار ج ٨ ص ٢٤-٥٥.

وأريد أن تسلفاني في أول كل شهر مائة وخمسين ألف درهم ، وترثجعتها من مال الأهواز في مدة الشهر ، فان جبهة الأهواز اليكما فيكون هذا المال سلفاً لكما واقفاً أبداً. ثم يستطرد التنوخي ويقول : « فلم يزل هذا الرسم يجري على يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران ومن قام مقامها مدة ست عشرة سنة وبعد وفاتها ، لأنها ما صرفا إلى أن ماتا . وكان السلطان لا يرى صرفها (ليبقى جاه الجبهة مع التجار فيقرض التجار بالجهد) ^(١) إذا دفعت الضرورة ، ومتى صرف الجهد وقلد غيره لم يعامله التجار ووقف أمر الخليفة » ^(٢) . تدلنا هذه الوثيقة على تطور جديد فلاحظ : أولاً أن الجبهين اشتركا لإنشاء مصرف ، بدل اشتغال كل على اقتراد كالمعتاد . ثانياً : ان هذا المصرف بقي المصرف الرسمي حتى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ، وأن الخليفة كان حريصاً على حفظ الثقة به . ثالثاً : ان مهمة المصرف الرئيسية كانت تسليف الدولة ما تحتاج من النقود مع الاعتماد على واردات الأهواز كصمان رابعاً : أراد الخليفة أن يسفيد من « اعتماد » (Credit) أصحاب هذا المصرف للاقتراض من التجار . وأخيراً يتضح لنا الدور الفعال الذي لعبته الدولة في تطور الجبهة . ومما يؤيد رواية التنوخي أن المصادر لا تذكر أن « الجبهين اليهوديين » صودرا بعد تلك السنة . ولكن يستبعد احتفاظها بجبهة الأهواز لمدة ١٦ سنة لأننا نجد أن عاملي الأهواز سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م كان لهما جهندان خاصان ^(٣) . كما أن أبا عبدالله البريدي ضمن ضرائب الاهواز سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ^(٤) . وفي نفس الوقت استمر الجبهندان اليهوديان في معاملاتها الخاصة مع ابن الفرات

(١) معنى العبارة () : لبقى ثقة التجار قوية بالجها بدة فاذا احتاج الخليفة استطاع ان يقترض من التجار بواسطة الجها بدة .

(٢) التنوخي : نشوار ج ٨ ص ٢٥-٦ ، منقول حرفياً في الصابي ص ٨٠-١ .

(٣) مسكويه : ج ١ ص ١٨٧ .

(٤) ن ٢٠٠ ج ١ ص ١٨٧ .

على الأقل . فبعد عزل علي بن عيسى من الوزارة سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، كتب ابن الفرات رقعة إلى هارون بن عمران باعطاء علي بن عيسى ٢٠٠٠ دينار ليستعين بها ^(١) . ومما يؤيد وجود هذه المعاملات الخاصة ، ما أتهم به ابن الفرات في وزارته الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦ هـ / ٩١٦ - ٩١٨ م) من أنه كتب إلى العمال « بحمل المرافق (الرشوات) إلى هارون بن عمران وإفراذه إياه بذلك وبقبض أموال المصالحين والمصادرين وعدله بها عن بيت المال ، وأن المقتدر بالله طلب من ابن الفرات مالا لبعض مهمة ففعله منه واعتل فيه عليه » ^(٢) . ثم تسكت المصادر عن ذكر « الجبهدين » بعد سنة ٣٠٦ هـ لعدة سنين .

وفي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، دعي ابن الفرات للوزارة للمرة الثالثة ، فورد ذكر « الجبهدين اليهوديين » من جديد . ففي تلك السنة كتب ابن الفرات رقعة إلى هارون بن عمران بدفع ٢٠٠٠ دينار إلى علي بن عيسى من وارد ضيعته الخاصة ^(٣) . وبعد سقوطه الوزاري الثالث ، أخبر ابن الفرات خلفه في الوزارة ، وهو الخاقاني ، « أني قد خلقت في يد هارون الجبهذ وابنه مائة ونيف وستين ألف دينار حاصلة قبلهما من مال المصادرين » ^(٤) . وبقتل ابن الفرات سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، ينطمس

(١) الصابي ص ٣٣ .

(٢) شرحه ص ٣٣ . نلاحظ هنا ان هارون ويوسف لم يشتركا في هذه المعاملة ويظهر ان شركتهما كانت اجابة حاجة الدولة وانهما استمرا على معاملتهما الخاصة منفردين . وفي سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م طلب المقتدر من ابن الفرات ٢٠٠٠ دينار من « أموال التواحي » فاستشار الوزير اصحابه فقال له احدم « مايعنر هذا القدر عليك ، اما تقدمه لك من مائك ، او آخذنا له من جهابذتك ومعامليك » الصابي ص ٢٤١ .

(٣) الصابي ص ٣٠٦ - ٧ ، مسكويه ج ١ ص ١١٢ .

(٤) مسكويه ج ١ ص ١٢٨ . أخبر ابن الفرات ، الوزير الجديد عن النفوذ ليخرجه عن اكتشافها بطرق أخرى ولينمعه من استعمالها وبالنتيجة ليخرجه مالياً لأن الخليفة اعتاد اخذ أموال المصادرة الى بيت مال الخاصة . مسكويه ج ١ ص ١٢٨ .

ذكر الجبهذين اليهوديين . لكن عائلة هارون استمرت على أعمالها الصيرفية .
 يروي الصولي أن أمير الأمراء (بحكم) قبض على علي بن هارون سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م
 وعذبه وأخذ منه ١١٠.٠٠٠ دينار ثم أمر بقتله ^(١) ، وسبب ذلك أن علياً كان
 جبهذا الوزير ابن شيرزاد (٣٢٧ - ٣٩٠هـ / ٩٣٨ - ٩٤٠م) ^(٢) . ولابد من أن ابن
 هارون كان مترباً إذ كان يعيش في قصر فخم على نهر الصراة ^(٣) .

وكان لأكثر الوزراء جهابذة خاصون ، مثل إبراهيم بن يوحنا ، جبهذا حامد
 بن العباس . وقد عذب هذا الجبهذا سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م ، حتى اعترف بودائع
 حامد عنده ، ثم صودر على ١٠٠.٠٠٠ دينار ^(٤) . وكان لعلي بن عيسى معاملات
 مع ناقد ^(٥) . كما كان للوزير الخصبي (٣١٣ - ٣٤٠هـ / ٩٢٥ - ٩٦٠م) جبهذه
 الخاص ^(٦) . وكان لبعض الولاة جهابذة أيضاً ، فكان لابن أبي السلاسل ، أحد
 عاملي الاهواز سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م جبهذاً ^(٧) . واستخدم أبو عبدالله البريدي
 جبهذين ، اسرائيل بن صالح وصالح بن نظير ^(٨) ، وكان أولهما موضع قته ^(٩) .

وتعددت مصادر أموال الجهابذة ، فكانوا تجاراً قبل كل شيء ، وكانوا يربحون
 أرباحاً طائلة من تجارتهم . ادعى جبهذا سليمان بن وهب ملكية رأسمال تجاري

(١) الصولي - اخبار الرازي والمتقي ص ١٢٧ - ٨ .

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٨ م ١ . ولكنه يدعوه خطأ : هارون الجبهذا اليهودي .

(٣) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ١٩٨ . يشير اليه الصولي ص ٤٠ باسم ابن علان
 الجبهذا اليهودي وهذا تحريف ابن عمران .

(٤) الصابي - الوزراء ص ٢٢٦ ، مسكويه ج ١ ص ٩٥ .

(٥) الصابي - الوزراء ص ٢٢٤ و ص ٢٩١ .

(٦) مسكويه ج ١ ص ١٥٥ .

(٧) ن . م . ج ١ ص ١٥٨ .

(٨) ن . م . ج ١ ص ٣٤٩ .

(٩) ن . م . ج ٢ ص ٥٢ .

قبره ٨٠٠٠٠ دينار^(١) . وكان هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس تجاراً أيضاً^(٢) . ولكن أكبر جزء من رؤوس أموال الجهادية كان من ودائع الوزراء والموظفين الكبار . فمثلاً اعترف ابن الفرات بعد وزارته الأولى أنه بقي لدى هارون بن عمران ويوسف بن فنحاس ١٤٧٠٥٤٦ درهما ، بينما اعتقد الكتاب أن ما أودعه ابن الفرات بلغ نحو مليون دينار لم تسجل^(٣) . وبلغ ما أودعه من أموال المصادرات في وزارته الثالثة ، لدى هارون بن عمران ، ثمانية ملايين وأربعين ألف دينار . وكان ابن الفرات يودع عند الجبهدين اليهوديين كل أموال المصادرات^(٤) ، والمرافق (الرشوات)^(٥) . واعترف الجبهدي إبراهيم بن يوحنا ، لابن الفرات ، سنة ٣١١ هـ أنه كان عنده آنئذ ١٠٠٠٠٠ دينار لحامد بن العباس^(٦) . ولعل هذه الأرقام تعطي فكرة عن المبالغ الكبيرة التي كانت تودع لدى الجهادية .

ويحسن هنا ذكر بعض العوامل المشجعة على ايداع الأموال لدى الجهادية : (أولاً) ففي زمن عدمت فيه الثقة ، للعادة الشائعة بمصادرة الوزراء وكتائبهم ، كانت الأموال المودعة لدى الجهادية مصونة نسبياً . فيذكر مسكويه أن ابن الفرات أودع - قبل صرفه من وزارته الأولى - مبالغ كبيرة من النقود مع بعض « التجار »^(٧) الذين لم يعرفهم خلفه في الوزارة ، فحفظت تلك النقود حتى وزارته الثانية فاسترجع ما كان أودعه « من غير أن يذهب له شيء »^(٨) . ولكن تفتيش الجهادية بعد

(١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٥٧ .

(٢) انظر عريب ص ٧٢ ، مسكويه ج ١ ص ٦٦ .

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٤ .

(٤) الصابي - الوزراء ص ٢٢٧ .

(٥) الصابي - الوزراء ص ٣٣ .

(٦) مسكويه ج ١ ص ٩٥ ، انظر الصابي ص ٢٩٠ ، والتنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٠٣-٤ .

(٧) لعل المقصود بالتجار هنا جهاديين ، لأن مسكويه يسمي هؤلاء تجاراً . انظر

مسكويه ج ١ ص ٦٦ .

(٨) مسكويه ج ١ ص ٤٤ .

صرف معاملتهم من الوظائف دفع بعض الموظفين الى ابداع تقودهم دون تسجيلها في سجلات الجبذ^(١). (ثانياً) يظهر أن الجهابذة كانوا يشرفون على واردات الموظفين وضياعهم، فكان هارون بن عمران يشرف على ضياع ابن الفرات الخاصة^(٢). ولا بد ان كان ذلك من واجبات جهابذة العمال^(٣).

وكان المصدر الثالث لأموال الجهابذة تفويض جباية ضرائب بعض المقاطعات اليهم، وبهذه الوسطة استفاد الجبهذان اليهوديان من ضرائب الأهواز^(٤). ويذكر الصابي مثلاً لهذه الموارد وهو أن مقدار «مال الجبهذة» لمنطقة الموصل والزابن بلغ في أوائل القرن الرابع الهجري ١٠.٠٠٠ دينار سنوياً^(٥). واستفاد أحد جهابذة الأهواز ٣٠.٠٠٠ درهم^(٦).

والخلاصة، أن الجبذ كان قبل كل شيء تاجراً، ثم صار صاحب بيت ماليّ وسع أعماله فصار يشتغل بالتسليف أيضاً. ثم كان يشتغل منفرداً ولكن الطلبات الزائدة عليه جعلته يتشارك أحياناً مع غيره من الجهابذة. وخير خدمة يقدمها الجبذ لمعاملته هي حفظ أموالهم. وقد كان لاختفاق مؤسسات الدولة المالية في سد حاجاتها النقدية أثر كبير في توسيع أعمال الجبذ، وسبب مباشر في إنشاء أول مصرف رسمي سنة ٩١٣ م.

(ب) الصيرفة: يرجع بدؤها إلى الدور البابلي. وقد اشتهر آل ايجيبي بأعمالهم الصيرفية التي بدأت عام ٦٨٥ ق. ب. واستمرت حوالي اربعائة سنة. وكانوا

(١) اودع احد الموظفين عند جبذ ١٠٠.٠٠٠ دينار دون ذكرها في السجل. التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٠٣ - ٤.

(٢) الصابي - الوزراء ص ٣٠٦ - ٧.

(٣) مسكويه ج ١ ص ٣٩.

(٤) الصابي - الوزراء ص ٨٠ - ١، التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٦.

(٥) الصابي - الوزراء ص ٢٥٥.

(٦) الجهمياري ص ١١٤.

يقومون بالفروض والعقود التجارية والمالية ، والبيع بالسيئة ، والتحويل من مدينة إلى أخرى ^(١) . وكان في المدائن في العهد الساساني أقلية مسيحية برعت في الصيرفة حتى صارت الواسطة الوحيدة بين فضة الفرس وذهب الرومان ، واشتغلت بعقد القروض لتسهيل التجارة . ثم نقل هؤلاء المسيحيون مركزهم إلى الكوفة في العهد الاسلامي ^(٢) . واشتغل الصيارفة في الكوفة بتحويل الدنانير إلى دراهم وبالعكس ، وبحل مشكلة تنوع جودة النقود من العملة الواحدة واختلاف أوزانها بصرف هذه الأنواع بعضها ببعض حسب حاجات أصحابها ^(٣) . وكان لصيارفة الكوفة فضل كبير على تقدم فن الصيرفة في العراق ^(٤) .

ثم أدى توسع التجارة في العصر العباسي الثاني إلى توسع أعمال الصرافين . فأخذوا يشتغلون بالتسليف ويقبلون الودائع ، ويتوسطون بين الناس و « دار الضرب » بأخذ الفضة والذهب من الناس لصكهما ، دافعين لأصحابهما نقوداً تعادلها في القيمة الاسمية ، وبهذا كانوا يستفيدون من الفرق بين القيمتين ^(٥) .

تنضح أعمال الصراف من قصة يرونها التنوخي . اسلم رجل « رقعة » إلى صراف ، فلما أوصلها إليه قال له الصراف : « ياسيدي أنت الرجل المسمى في التوقيع ؟ فقلت : نعم . قال : أنت تعلم أن أمثالنا يعاملون للغائدة ، وربحنا أن نعطي في مثل هذا ما يكسر في كل دينار درهما » ^(٦) . تبين هذه القصة أن الأمر النقدي

(١) يوسف غنيمه - « تجارة العراق » (بغداد ١٩٢٢) ص ١٩ - ٢١ و « يهود العراق » (بغداد ١٩٢٤) ص ٥٤ - ٧ .

(٢) ماسنيون - خطط الكوفة ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) لسان العرب ج ١١ ص ٩١ - ٩٢ ، اقرب الموارد (بيروت ١٨٨٩) ج ١ ص ٦٤٤ .

(٤) ماسنيون - خطط الكوفة ص ٢٤ .

(٥) ابن الاخوة - معالم القرية ص ٦٨ - ٦٩ .

(٦) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ١ ص ٢٠١ ، وكان زمن القصة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ، ونسبة التبديل ١٣ درهماً في الدينار .

على الصراف كان يدعى رفعة ، وأن سعر الخصم كان درهماً في كل دينار ، وأنها شخصية غير قابلة للتظهير ، وغير محدودة بزمان (١) .

وقد قام الصيارفة في القرن الرابع الهجري بخدمات جلى للتجارة ، فكانوا يسلفون الأموال للتجار ويتسلمون منهم الودائع ويسهلون تجارة الائتمان Commerce du crédit ، وكان هذا بصورة خاصة في ميناء البصرة العظيم . يقول ناصر خسرو (٢) : « إن المعاملات التجارية في البصرة تجري كما يلي : كل من كانت له تهاؤس يودعها عند صراف ، يأخذ منه وصلاً بها . وعند ما يشتري التاجر شيئاً يعطي حوالة على الصراف وهذا يصرفها . فكان التجار طيلة إقامتهم بالبصرة يتعاملون بالحوالات على الصيارفة » (٣) . ويضيف حافظ آبرو أن تجار الأقمشة والصيارفة وتجار الجملة كانوا يجتمعون في سوق خاصة من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى المساء للمفاوضة في القضايا التجارية ولتصفية الحسابات بينهم (٤) . وهكذا كان الصيارفة يسيطرون على السوق المالية ويسهلون الأعمال التجارية بقيامهم بعمل « غرف المقاصة » في زماننا (٥) ، ويخففون من مشكلة شح العملة المتداولة بحوالاتهم .

وكان الصيارفة يتعاملون مع الحكومة أيضاً ولكن بدرجة أقل من معاملاتهم مع الشعب . فمثلاً حاول أهل الأهواز رشوة أحد العمال لثلا يزيد الضرائب فرضي بذلك ، « فسألت اليه رقاع الصيارفة بالمال » (٦) . لكن المصادر لا تذكر أنه كان

(١) انظر مسكويه ج ٢ ص ٢٣٩ م ١ .

(٢) كان ناصر خسرو في البصرة في شعبان ٥٤٤٣ هـ - كانون الأول ١٠٥١ م . انظر : Browne : A Literary Hist. of persia vol II p. 200

(٣) ناصر خسرو - سفر نامه (الترجمة الفرنسية) باعثناء (شفر) باريس ١٨٨١ ص ٢٣٦ .

(٤) ن . م . ص ٢٣٧ ، الهامش . كتب حافظ في القرن الخامس عشر الميلادي .

(٥) انظر : الدكتور الرفاعي - الاقتصاد السياسي . الجزء الاول (القاهرة ١٩٣٨) ص ٥٦٩ .

(٦) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٦١ - ٢ .

للموظفين صيارفة خاصون ، بل كانوا يتعاملون مع الصرافين كباقي الناس . يروي مسكويه أن سيف الدولة كان يتجول في بغداد سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ، فأضافه بعض الشبان من بني خاقان دون أن يعرفوه ، فكتب لهم عند خروجه رقعة بـ ١٠٠ دينار على صراف ، فدفعت النقود عند تقديم الرقعة ^(١) . وأطرب أحد المغنين ناصر الدولة في بغداد سنة ٣٣١ هـ ، فكتب له رقعة بـ ٥٠٠ دينار على أحد الصرافين ^(٢) . وهكذا كان الصراف يسد الفراغ الذي يتركه الجبذ .

أما مصدر أموال الصرافين فكان بالدرجة الأولى من الودائع ^(٣) . أودع أبو علي الخازن ٥٠٠.٠٠٠ دينار مع صراف ^(٤) ، وأودع علي بن عيسى ١٧٠.٠٠٠ دينار مع صراف آخر ^(٥) . ثم إن معاملاتهم النقدية ، (الاقراض والصرف) كانت تجلب لهم أرباحاً كبيرة لكثرة الفائض الذي يأخذونه ^(٦) . فعندما كان ناصر الدولة الحمداني أمير الأمراء في بغداد (٣٣٠ - ٣٤١ هـ / ٩٤١ - ٩٥٢ م) « بلغه .. أن الصيارفة يربون ربا ظاهراً ، فأحضرهم وحذرهم وأحلفهم فتحسن .. أمرهم قليلاً » ^(٧) . فلا غرابة أن كان عند الصرافين رؤوس أموال طائلة . ذكر الرشيد ليحيى البرمكي أن والي خراسان أرسل إليه عشرة ملايين درهم ، وأن الفضل بن يحيى لم يرسل مثلاً في ولايته ، فأجاب يحيى أن النقود أخذت ظلماً وأضاف : « ولو قصدت لدرب من دروب الصيارفة بالكرخ لوجدت فيه أضعاف هذه » ^(٨) .

(١) مسكويه ج ٢ ص ٢٣٩ م ١ .

(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣) ناصر خسرو - سفرنامه ص ٢٣٦ .

(٤) مسكويه ج ٢ ص ١٨٨ .

(٥) الصابي - الوزراء ص ٢٩١ .

(٦) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٠٤ .

(٧) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ٢٣١ .

(٨) الجبهتاري ص ٢٢٨ .

كان أغلب الصيارفة في أواخر القرن الثالث الهجري مسيحيين ^(١) ، ولكن اليهود بدؤوا يزاحونهم في هذه المهنة ^(٢) ، كما كان بعض الصيارفة من المسلمين ^(٣) . وكان للصيارفة محلة خاصة في الكرخ تدعى « درب عون » ^(٤) . والخلاصة أن الصيرفة قامت بدور مهم في الحياة الاقتصادية في القرن الرابع الهجري ، إذ كان الصيارفة يشتغلون بالتسليف والقرض ، ويتوسطون بين الناس و « دار الضرب » ، ويقبلون الودائع بالإضافة إلى صرف النقود . وقد شجعوا التجارة بأشغالهم بما تقوم به « غرف المقاصة » الآن ، وبتسهيلهم معاملات الائتمان ، وكانوا من أصحاب المهن الحرة يتعاملون مع الشعب على الأكثر .

وأخيراً إذا كان تعريف البنوك بأنها « محلات تجارية مهمتها الاتجار في المعادن النفيسة والنقود واسندات المثلة للنقود » وهي صلة بين أصحاب رؤوس الأموال ، وبين من تعوزهم تلك الأموال ، وبعبارة أخرى تقوم البنوك بتجارة الائتمان ^(٥) ، وجدنا أن الصرافين كانوا يقومون بكل هذه الخدمات ، ويصح أن نسمي بيوتهم المالية بنوكا .

٢ - (أ) السفتجة : وهي أهم أداة للعاملات المستندة إلى الائتمان ^(٦) .

- (١) قال الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٧٠ م) في « الرد على النصارى » ص ١٧ « مما عظم النصارى في قلوب العوام .. ان منهم كتاب السلاطين .. واطباء الاشراف . والصيارفة » .
- (٢) قال المقدسي (احسن التقاسيم ، ايدن ١٨٧٧) عن الشام « واكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والديباغين بهذا الاقليم يهود » ص ٢٨٣ .
- (٣) ابن الاخوة - معالم القرية ص ٦٨ - ٩ .
- (٤) مسكويه ج ١ ص ٢٤٧ ج ٢ ص ١٨٨ و ص ٢٣٩ م ١ ، التنوخي - نشوار الحضارة ج ١ ص ٢٠٤ ، وج ٢ قصة رقم ٧٢ ص ١٨٦ .
- (٥) الدكتور الرفاعي - الاقتصاد السياسي ج ١ ص ٧٢٢ .
- (٦) لعل استعمال السفتجة بدأ بـ « ان يأخذ الرجل الدراهم والدنانير فيعطياها صاحبه ويقول : احملها لي معك لأمن طريقك أو لمنعتك الى بلد كذا فادفعها الي ثم » الشريشي - شرح مقامات الحريري (القاهرة ١٣١٤ هـ) ج ٢ ص ٢٩٣ .

ويقصد بها « أن يعطى (رجل) مالا لآخر وللاخذ مال في بلد المعطي ، فيوفيه إياه ثم (أي هناك) فيستفيد أمن الطريق » ^(١) . أي أنها أوجدت كوسيلة لتجنب أخطار المواصلات ، وكانت تجري باتفاق فردي ^(٢) .

ثم لوحظت أهمية السفنجة في التحويل فشاع استعمالها في القرن الرابع الهجري حتى صارت عاملا مهما في الحياة الاقتصادية . فأخذ الولاة يرسلون ما زاد من دخل ولاياتهم إلى بغداد بسفانج ^(٣) . ففي سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، أرسل والي مصر والشام سفانج بـ ١٤٧٠٠٠ دينار ^(٤) ، وأرسل آخر سفانج بـ ٨٠٠٠٠ دينار ، وثالث بـ ٤٠٠٠٠٠ دينار بنفس الطريقة ^(٥) . ولم تكن السفنجة أقل شيوعا بين أفراد الشعب . يروي التنوخي أن امرأة استلمت من زوجها - بعد غياب طويل - سفنجة بـ ٢٠٠ دينار ^(٦) . وتوفي رجل بالدينور تاركا ثلثي ثروته إلى ابن عم له في بغداد ، فباع صديق المتوفي بعض الارث وأرسل للوارث « سفنجة بالثلثين من ذلك مبلغها ٧٠٠ دينار » ^(٧) .

أما أهم فائدة للسفنجة فهي استعمالها من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين الأقطار المختلفة بكتابة السفانج على وكلائهم ^(٨) . فكانوا أحيانا يرسلون رسلا

(١) لسان العرب ج ٣ ص ١٢٣ ، تاج العروس ج ٢ ص ٥٨ ، القاموس المحيط ج ١ ص ١٩٤ ،

معجم البحرين ص ١٥٥ ، ويذكر تاج العروس أن أصل الكلمة فارسي وهو (سفته) .

انظر شفاء الغليل للنفاجي ص ١٢٨ - ٩ .

(٢) توجد اشارة للسفانج زمن المنصور . الجهمشياري ص ٨٩ ، و ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) مسكويه ج ٩ ص ٤٣ و ص ١٤٦ ، الصابي ص ٨١ .

(٤) مسكويه ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) مسكويه ج ١ ص ١٥٠ .

(٦) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٣ .

(٧) شرح ج ٢ ص ٣٠ .

(٨) انظر : شفاء الغليل للنفاجي ص ٩٣٨ - ٩٩ ، تاج العروس ج ١ ص ٥٩ .

خاصين لحل السفائح . قال رجل قادم بكتب من الدينور إلى بغداد ، أن لديه خطاب لشخص « فيه سفتجة بمال ، وبسبب هذا الكتاب من دون جميع ما معي استؤجرت وخرجت من الدينور » ^(١) .

واستعملت السفتجة أيضاً لتسوية الديون في المعاملات التجارية في تقس القطر ، فمثلاً أرسل رجل من الأهواز إلى العامل سفتجة بألف دينار مع أنها كانت في الأهواز ^(٢) . وأصبح بالامكان إرسال أية كمية من النقود في أي وقت بسفائح . يحدثنا التنوخي على لسان رجل وجد في بركة ٧٠٠٠ دينار ، أنه قال : « خرجت فأخذت بالمال سفائح . . . وأتقت الغلام بالسفائح إلى بغداد » ^(٣) .

وكانت السفائح تسحب عادة على التجار والباعة . قال ابن الفرات للمادرائي عامل مصر في مناظرة له : « أما أن يكون حملك المال (أي باقي الخراج) مع رسل أو بسفائح تجار على تجار » ^(٤) . واستلم بغدادى سفتجة « على تاجر في دار القطن بالكرخ » ^(٥) .

وكان لكل سفتجة موعد لاستحقاقها . فكانت السفائح الواردة من الولاية إلى الوزير تحفظ حتى يحين موعد صرفها ^(٦) . واستلم بغدادى سفتجة « بأجل أربعين يوماً على تاجر » ^(٧) . ويروي التنوخي على لسان دقاق بصري « أورد عليّ رجل غريب سفتجة بأجل » ^(٨) . فان صرفت السفتجة حين استحقاقها دفعت

(١) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٠ .

(٤) الصابي - الوزراء ص ٩٣ .

(٥) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٠ .

(٦) الصابي - الوزراء ص ٨١ .

(٧) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٠ .

(٨) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٣١ .

قيمتها كاملة^(١)، وإن صرفت قبل حلول الموعد خصمت منها نسبة معينة . فكان علي بن عيسى يدفع (سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م) داقا ونصف داق في كل دينار أو ماساوي^(٢) . ويمكن لصاحب السفتجة أخذ النقود دفعة واحدة أو بأقساط^(٣) .

ثم استعملت السفتجة كاستعمال Travellers' cheques في الوقت الحاضر . يروي التنوخي عن شخص قال : « وخرجت أنا تحت الليل بمرقعة راكباً حماراً ومعني غلامان من غلماني ودليل ، وليس معي شيء من الدنيا إلا سفتج بخمسة آلاف دينار »^(٤) . ويحدثنا على لسان دقاق بالبصرة « أورد على رجل غريب سفتجة بأجل ، فكان يتردد إلى أن حلت ثم قال : أدعها عندك وأخذها متفرقة . فكان يجيء في كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن تهدت »^(٥) .

وتبين هذه القصص بصورة عامة ضمان السفتجة الذي شجع الناس على تحويل الدراهم ، حتى صار يضرب بذلك المثل^(٦) .

وأخيراً نقول إن السفتجة هي السكبيالة La Lettre de change في مبنائها واستعمالها^(٧) .

(ب) الصك : هو الوسيلة الثانية من وسائل الائتمان . وهو أمر خطي يدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه . وهي كلمة فارسية معربة والأصل

(١) ن ٢٠٠ .

(٢) الصابي - الوزراء ص ٨١ . كان كل درم = ٦ دوانيق وكل دينار = ١٥ درهماً آنشد .

(٣) انظر التنوخي - نشوار الحاضرة ج ٨ ص ١٣١ .

(٤) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ١ ص ١٠٤ .

(٥) ن ٢٠٠ ج ٨ ص ١٣١ .

(٦) انظر شرح مقامات الحريري للشريشي ج ٢ ص ٢٩٣ ، اقرب الموارد ج ١ ص ٥١٩ .

(٧) انظر الدكتور الرفاعي - الاقتصاد السياسي ج ١ ص ٥٦١ .

(چك) ولا يزال أثره حتى عصرنا هذا في كلمة *Cheque* ^(١) .

توجد اشارات قليلة إلى استعمال الصك في أوائل الاسلام إذ كانت الأرزاق والرواتب تدفع أحياناً بصكوك ^(٢) . يقول اليعقوبي ^(٣) « إن عمر بن الخطاب (ر) كان أول من « صك » وختم أسفل الصكك » . واشترى يزيد بن المهلب مؤناً ، وكتب صكاً للبائع بالثمن ^(٤) . وتوسل الفضل بن يحيى البركي إلى الرشيد أن يعطي محمد بن ابراهيم الامام ١٠٠.٠٠٠ درهم ، فلما وافق الرشيد شكره الفضل وسأله « أن يصك بها صكاً بخطه » ^(٥) . واشترى الفضل بن يحيى ضيعة بـ ٢٠٠.٠٠٠ درهم وأرسل إلى صاحبها صكاً بالثمن ^(٦) .

ثم تسكنا الإشارة إلى استعمال الصك في القرن الرابع الهجري ، فكان يستعمل في الدوائر الحكومية ، لدفع رواتب الجيش بصورة خاصة ^(٧) . يذكر الصابي أن أبا الحسن بن الفرات ، كاتب ديوان الخراج في زمن المصطفى ، انتقد محمد بن داود « وهو يتولى عطاء الجيش فيما يطلقه بغير صك » فأمر الوزير « صاحب بيت المال بأن لا يطلق شيئاً في اعطاء واتفاق إلا ما عرفه أبو الحسن وأثبت علامته على على الصكك » ^(٨) . وكانت الصكوك تستعمل أيضاً لدفع الرواتب الأخرى ، ولذا يعرف الخوارزمي (الصك) بأنه « عمل يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامي المستحقين

(١) لسان العرب ج ١٢ ص ٣٣٤ ، دائرة المعارف العربية للبستاني ج ١٠ ص ٧٤٥ ، شفاء الغليل ص ١٤١ ، المغرب للجوالقي (القاهرة ١٣٦١) ص ٣١٢ .

(٢) لسان العرب ج ١٢ ص ٣٣٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٢٢ - ٣ (طبعة النجف) .

(٤) العيون والحدائق (طبعة دي خويه) ص ٢٠ .

(٥) الجهمياري ص ١٩٦ .

(٦) ن . م . ص ٢١٤ - ٥ .

(٧) مسكويه ج ٣ ص ٤٦ ، الصابي - الوزراء ص ٢٣٥ .

(٨) الصابي - الوزراء ص ٢٣٥ - ٦ .

وعدتهم ومبلغ ما لهم ويوقع السلطان في آخره باطلاق الرزق لهم» (١).
ثم اتسع استعمال الصك وتعدى دوائر الحكومة إلى الشعب. أراد ابن الفرات
مساعدة ابن أبي البقل فكتب له صكا بـ ٣٠٠٠ درهم على شخص معين (٢).
و «صك» سليمان بن الحسن بن مخلد كاتب بيت المال على «متولي نفقته» صكوكا
بـ ١٦٠٠ دينار في يوم واحد (٣).
كانت الصكوك تكتب أحيانا على بيت المال (٤). ولكن أكثرها كان يكتب
على الجهازة. يروي التنوخي على لسان شخص، بصف الطريقة التي يتبعها عامل الأهواز
لدفع الرواتب والنفقات، أنه بعد جمع الضرائب «يحصل المال عند الجهز، فتخرج
إليه الصكوك من ديوانك وبعلاماتك» (٥). وفي سنة ٣١٥ هـ، وجد البريدي دراهم
كانت لابن أبي السلاسل مع جهزه «فأخذها ووافقه على أن يصك بما كان عند
الجهز بنفقات باطلة» (٦). ويقول مسكويه «وقرأت.. صكلا على الجهز.. الخ» (٧).
واستعملت الصكوك لمختلف المدفوعات حتى الكميات القليلة. يشير مسكويه
(نحت سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م) إلى صك على الجهز «بشمن بوارى وتقط اشترت
بتسعة دراهم» (٨). وكانت الصكوك تكتب وتصرف في نفس المدينة.

وهناك معنى آخر لكلمة صك، إذ كانت تطلق على «سند الدين» وفي هذه
الحالة كان يلزم تصديقه من قبل شهود. يقول ابن حوقل: «ولقد رأيت صكا

(١) الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٣٨.

(٢) الصابي - الوزراء ص ٧٣.

(٣) ن. م. ص ٧٧ - ٨.

(٤) مسكويه ج ٣ ص ٤٦١، الصابي - الوزراء ص ٢٣٥ - ٦.

(٥) التنوخي - نشوار المخاضرة ج ١ ص ١٠٩.

(٦) مسكويه ج ١ ص ١٥٨.

(٧) ن. م. ج ٢ ص ٨٠.

(٨) ن. م.

كتب بدين ، على محمد بن سعدون بأودغشت (مراکش) ، وشهد عليه العدول بأثنين واربعين الف دينار » (١) .

وبعد هذا العرض المجلل للموضوع نقسامل فيما إذا كان نظام الجهبذة والصيرفة يسد حاجات المجتمع الذي نشأ فيه .

لقد خدم نظام الصيرفة طبقتين بصورة خاصة ، وهما : طبقة الموظفين ، وطبقة التجار . فالصرافون كانوا يزودون التجار برؤوس الأموال ، ويسهلون لهم تجارة الائتمان ، كما أن الحوالات عليهم جعلت المعاملات منتظمة وسريعة . بينما كانت السفائح وسيلة لتسوية المعاملات بين مختلف المدن والأقطار .

وكان في ازدياد فعالية الجهبذة عامل مهم في تسديد طلبات الموظفين الكبار من تسليف الى ايداع . وبانشاء مصرف رسمي أنقذت الدولة مؤقتاً من الخراب المالي . كما انتفع الفلاحون بصورة غير مباشرة من الجهبذة ، لأن الحكومة كانت تسلف الزراع المحتاجين . وبصورة عامة سد نظام الصيرفة حاجات كثيرة ، وكان في الحقيقة نتيجة للظروف المالية التي نشأ فيها .

(١) ابن حوقل (ك) ج ١ ص ٦١ و ص ٩٩ ، الجاحظ - البخلاء ص ٢٣٦ ، الشيباني - كتاب الخراج والحبل ص ١٧٨ وفيه نصوص تبين صيغة هذا الصك .

الفصل السادس

الضرائب

خطه الفصل :

اولاً - مقدمة - النظريات والواقع في المالية الاسلامية .
ثانياً - نظام الضرائب في الفقه .
ثالثاً - الضرائب في الواقع :

- (١) الخراج . (٢) العشر . (٣) وارد ضرائب الاراضي في العراق . (٤) الجزية .
(٥) الصدقات . (٦) ضريبة الارث . (٧) المكوس الداخلية . (٨) المكوس على البضائع
المستوردة . (٩) المستغلات . (١٠) ضرائب على مواد مختلفة . (١١) ضريبة دخل .
(١٢) ضريبة المراعي . (١٣) مال الجبذة (١٤) طرق الجباية .

١ - يوجد تباين بين آراء الفقهاء في الضرائب ، وبين نظام الضرائب في الواقع .
ويعود ذلك لأسباب مختلفة . منها أن المصادر الأولى للنظام المالي في الاسلام - وهي
القرآن ، وسنة الرسول والخلفاء الراشدين - أخذت بعين الاعتبار حاجات مجتمع
بسيط ، ولم تضع قواعد نظام مالي في دولة واسعة معقدة . فلم تقرر من موارد الجباية إلا
الزكاة ، والغنائم ، والفيء ، والجزية ، ولم تحدد أيًا منها بصورة واضحة . ثم أن نظريات
الفقهاء جاءت بعد نشوء النظم المالية ، فأخذتها بعين الاعتبار وتأثرت بها وحاولت
تنظيمها ، ووضع قوانين لها . وهذا ما يوضح لنا كثرة اختلاف الفقهاء في الرأي ،
وبين السبب الذي جعل الكتب الأولى - التي تتعلق بالنواحي المالية - مجرد
سجل لتنظيمات فردية قام بها الرسول والخلفاء الراشدون ، خاصة عمر بن الخطاب ،
مع بعض الآراء الشخصية للكتاب .

ولهذا وجب على الباحث في نظام الضرائب في الاسلام أن يعتمد بالدرجة الأولى
على كتب التاريخ دون كتب الفقه . ذلك أن الفقهاء اقتصروا على ذكر الضرائب

بدأها الرسول والخلفاء الراشدون ، وتجاهلوا الضرائب التي وضعت فيما بعد ، لأنهم اعتبروها غير مشروعة . ثم إن الفقهاء ينسبون إلى الخلفاء الراشدين نظاماً للضرائب احتاج إلى أكثر من قرن ليكتمل ويتبلور . فالروايات التاريخية تدل على اختلاف نظم الضرائب خلال الأربعين سنة الأولى للهجرة ، وعلى عدم رسوخها . فعندما احتجت قبيلة تغلب المسيحية (في العراق) على دفع الجزية التي يدفعها أهل الذمة باعتبارها مهينة ، أبدلها عمر بن الخطاب بصدقة مضاعفة ، $\frac{1}{2}$ ، أي الخمس ^(١) . ولما استفسر صاحب اخنا من عمرو بن العاص عن مقدار ما يلزم دفعه من الجزية ، أجابه عمرو : « إنما أنتم خزنة لنا ، إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم » ^(٢) . وقال سعيد بن العاص والي الكوفة في خلافة عثمان : « مال السواد إلا بستان قريش ، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركنا » ^(٣) . ولم تعين أصول ضريبة الخراج ، على أهميتها ، حتى خلافة عمر الثاني (٩٩-١٠١ هـ / ٧١٧-٧٢٠ م) ^(٤) . ثم إن الفقهاء استعملوا في كتابتهم عن الضرائب اصطلاحات غير دقيقة تاريخياً ، وقد اتخذ الباحث في الموضوع . ويصدق هذا بصورة خاصة على كلمتي « خراج » و « جزية » ، إذ أن الفقهاء يفهمون القارى أن معناهما متعيز واضح منذ البدء ، في حين أن استعمالهما في غير كتب الفقه يدل على عدم وجود هذا الوضوح مدة من الزمن . فمثلاً كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رسالة سمي فيها أرض الخراج بـ « أرض الجزية » ^(٥) . واستعمل عبدالله بن عمر كلمة (جزية) بمعنى (خراج) ^(٦) . وكتب بعض زراع السواد إلى عمر بن عبدالعزيز « في أرضين

(١) ابو يعلى - الأحكام السلطانية ص ١٣٩ .

(٢) زيدان - التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٩ .

(٣) الأغاني ج ١١ ص ٣٠ .

(٤) انظر Wellhausen O. C. . p. 270 off .

(٥) يحيى ابن آدم الفرشي - الخراج ص ١٠ ، حميد الله الحيدري آتاني - الوثائق السياسية ص ٢٥٥ .

(٦) يحيى بن آدم - الخراج ص ٣٩ .

في أيديهم أن يرد عنها الجزية ويضع عليها الصدقة » (١) . ويقول الفقيه شريك في أهل السواد : « الجزية التي يدفعونها هي خراج » (٢) . ولعل التمييز بين الكلمتين لم يحصل إلا بعد عصر عمر بن عبدالعزيز ، الذي حدد أسس الجزية والخراج .
ومعها يكن فإن نظام الضرائب واصطلاحاته اتخذت شكلاً ثابتاً في القرن الرابع الهجري (٣) .

٢ - ولعل اعطاء خلاصة مركزة لآراء الفقهاء البارزين ، تعرض وفق الخطة التي وضعها الصولي (المتوفي سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م) ، تمكينا هنا كأساس لدراسة نظام الضرائب الذي طبقه العباسيون . كان الصولي من حاشية الراضي والمتقي بالله ، وقد صنف مصادر الجباية بطريقة سهلة واضحة لفائدة كتاب الدواوين (٤) . ولكتاب الصولي أهمية خاصة ، لأهمية عصره (القرن الرابع الهجري) وموطنه (العراق) ، ولأنه لم يكن كاتباً نظرياً ، بل كان له اطلاع واسع ودقيق على شؤون الدولة .

كانت الدولة ، بنظر الفقهاء ، تستقي مواردها من المصادر الآتية :

— أولاً : (النبي) ، وهو ما يؤخذ من المشاركين دون قتال (٥) . ويشمل النبي ثلاث ضرائب :

(١) ن . م . م . ص ٤٢

(٢) الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢٢٢

(٣) لقد اعتمدنا في كتابة هذه المقدمة على : الماوردي - الاحكام السلطانية ، الجهمشاري -

الوزراء والكتاب ص ٤ - ٥ ، Van Berchem : L' impot Foncier

Aghnides : Muhammadan Theories of Finance ; Caetani, v sect 810 ; Mez ; Von Kremer : Orient Under Caliphs ; E. I, Art. Fai ; Zakat ; Ghanima, ushr ; Sadighi - Mouvements Religieux .

(٤) الصولي - أدب الكتاب ص ١٩٨ - ٢٠٤ . ولم يذكر الصولي الضرائب غير المشروعة ، ولعله رأى أن ذلك ليس من مصلحة الدولة ، أو لأنه اعتبرها بدعاً مالية لا أساس لها في الشرع .

(٥) أبو يعلى - الاحكام السلطانية ص ١٢ ، الماوردي ص ١٢٢ ، يحيى بن آدم ص ٦ .

أ - الخراج : وهو ضريبة تجبى على ثلاثة أصناف من الأراضي : (١) الأراضي التي فتحت عنوة ثم جعلت وفقاً للمسلمين . ويتفق الفقهاء على جعل السواد في هذا الصنف (١) . (٢) أراضي تخلى عنها أصحابها خلال فترة الفتوحات فانتقلت إلى المسلمين . ويبقى هذا الصنف من الأراضي مع الصنف السابق أراضي خراج بصورة أبدية . ويعتبر الخراج المفروض على الأرض إيجاراً لها ، يدفعه الزارع سواء أ كان مسلماً أم غير مسلم (٢) . (٣) الأراضي التي خضعت للمسلمين صلحاً ، أو (أرض الصلح) وهذه إما أن تنتقل ملكيتها — حسب شروط الصلح — إلى المسلمين فتصير وفقاً دائماً لهم ، أو تبقى ملكاً لأصحابها ، وفي الحالة الثانية تعفى من الخراج متى أسلم أصحابها (٣) . وتدخل بعض أراضي السواد ، مثل سواد الخيرة ، في هذا الصنف (٤) .

أما تقدير الخراج ، فيترك إلى رأي الإمام ، بعد أن تؤخذ قابلية الأرض بعين الاعتبار . ويتوقف مقدار الخراج على خصب التربة ونوع الحاصل ، ونوع السقي — طبعياً أو اصطناعياً — ، ويضيف بعضهم إلى ذلك ، البعد عن الأسواق . ويراعى في وضع الضريبة « العدل فيما بين أهلها وأهل النية » ، من غير زيادة تجحف بأهل الخراج ، ولا نقصان يضر بأهل النية » . ويلزم معاملة أهل الخراج باللطف وإرجائهم في حالة عجزهم عن الدفع (٥) .

- (١) أبو يعلى ص ١٣٠ - ١٣١ ، الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢١٨ - ٢٢٢ ، الماوردي ص ١٣٢ ، أبو عبيد - الأموال رقم ١٤١ - ١٧١ ، يحيى بن آدم ص ٦ - ٨ و ص ٣٢ .
 (٢) أبو يعلى ص ١٣٢ ، الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢٢٤ ، الماوردي ص ١٣٣ ، يحيى بن آدم ص ١٠ ، أبو عبيد رقم ٢٣١ - ٢٥٨ .
 (٣) أبو يعلى ص ١٣٢ - ١٣٣ ، يحيى بن آدم ص ٣٣ ، الماوردي ص ١٣٣ .
 (٤) يحيى بن آدم ص ٣٥ و ص ٣٦ .
 (٥) الماوردي ص ١٤٣ - ٤ و ص ١٤٧ ، أبو يعلى ص ١٥١ و ص ١٥٦ ، أبو عبيد رقم ١٤١٠ - ١٤٢١ و رقم ١٨١ ، يحيى بن آدم ص ٥٦ ، الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢٣٢ ، أبو يوسف ص ١٥٠ .

ويجبي الحراج بطريقة من الطرق الثلاثة التالية :

(١) بفرضه على وحدة المساحة من الارض الزراعية ، كما فعل عمر بن الخطاب في السواد . (٢) بفرضه على وحدة المساحة من الارض المزروعة . (٣) بأخذ نسبة معينة من الحاصل ، أي بالمقاسمة (١) .

ب - الجزية : وتؤخذ من أهل الكتاب ، أي اليهود والنصارى ، و « ممن له شبهة كتاب » كالحجوس (٢) . وتجي مرة واحدة في السنة من العقلاء ، الاحرار ، البالغين من الذكور (٣) .

ويختلف الفقهاء في تقدير الجزية ، فيجعلها أبو حنيفة ثلاث درجات : ٤٨ درهماً على الموسرين ، و ٢٤ درهماً على المتوسطي الحال ، و ١٢ درهماً على الفقراء . ويترك مالك تقدير الجزية الى الامام دون تحديد . أما الشافعي فيجعل الحد الأدنى اثني عشر درهماً ، ويترك ما فوق ذلك الى الامام . ويتفق مالك والشافعي على أنه متى عين مقدار الجزية ، فلا يمكن تبديله . وتجب معاملة أهل الجزية باللطف ، وأن لا يحملوا فوق طاقتهم (٤) .

وتوجد حالة خاصة من الجزية ، وهي « الصدقة المضاعفة » التي فرضت على قبيلة تغلب المسيحية في العراق (٥) .

(١) الماوردي ص ١٤٤ - ٥٥ ، أبو يعلى ص ١٥٢ ، الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢٢٣ .

(٢) الماوردي ص ١٣٩ ، الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ، أبو يعلى ص ١٣٧ - ١٣٨ و ص ١٤٤ .

(٣) ويرى الطبري ان تكون حالتهم المالية حسنة ، ويستثنى أبو يعلى الفقراء والشيوخ . انظر أبو عبيد رقم ١٢٢ - ٧ .

(٤) الماوردي ص ١٣٩ ، أبو يعلى ص ١٣٩ ، ص ٩١١ - ٩١٢ ، يحيى بن آدم ص ٢٧ ، ص ٥٣ وما بعدها ، أبو يوسف ص ١٢٢ - ٤ ، الطبري - اختلاف الفقهاء ص ٢٠٩ - ٢١١ ، أبو عبيد رقم ١٠٠ - ١٠٩ .

(٥) يحيى بن آدم ص ٤٧ ، أبو يعلى ص ١٣٩ ، انظر الماوردي ص ١٣٨ ، وأبو عبيد ص ٥٤٠ وما بعدها .

ج - الضرائب على تجار المشركين وهي على نوعين :

(١) الضريبة التي تفرض على تجار أهل الذمة وتبلغ $\frac{1}{4}$ من قيمة بضائعهم .

وتجبي مرة في السنة ، متى تجاوزت قيمة البضائع مائتي درهم ^(١) .

(٢) الضريبة التي تفرض على التجار المشركين القادمين من خارج البلاد

الاسلامية ، وتبلغ عشر قيمة بضائعهم ، إن زادت القيمة على

مائتي درهم ^(٢) .

ثانياً - (الخس) : ويؤخذ من :

أ - الزكاة : « وهو كل مال وجد مدفوناً من ضرب الجاهلية » ^(٣) .

ب - المعادن : وقد اختلف الفقهاء في مقدار الضريبة على المعادن وهل تكون

الخمس أو العشر ، ولكن العراقيين اتفقوا على أن تكون الخمس ^(٤) .

واختلف الفقهاء أيضاً في أنواع المعادن التي تفرض عليها هذه الضريبة .

ففي مذهب الشافعي « تجب (الضريبة) في معادن الذهب والفضة خاصة » ،

بينما أوجبها أبو حنيفة « في كل ما ينطبع من ذهب وصفر .. وأسقطها

عما لا ينطبع من مائع وحجر » . ويرى ابن حنبل أنها تجب « في جميع

الخارج منها ، سواء كان مما ينطبع .. أو مما لا ينطبع » ^(٥) .

ج - الغنائم : وتشمل الأسرى ، وهم المقاتلون من الكفار الذين أسروا

واسترقوا ، والسبي من النساء والأطفال ، والأموال المنقولة ^(٦) .

(١) يحيى بن آدم ص ١٠ - ١١ و ص ١٢٦ ، الماوردي ص ١٢٢ .

(٢) يحيى بن آدم ص ١١ و ص ١٢٦ .

(٣) أبو يعلى ص ١١١ - ١١٢ ، الماوردي ص ١٢٦ .

(٤) الصولي - أدب الكتاب ص ١٩٩ .

(٥) أبو يعلى ص ١١١ ، الماوردي ص ١١٦ .

(٦) الماوردي ص ١٢٣ - ١٢٤ ، أبو يعلى ص ١٢٥ - ١٢٧ و ص ١٣٤ - ٦ .

ثالثاً - (الزكاة) : أو الصدقة ، وتجب « في الأموال الرصدة للنماء ، أما بنفسها وأما بالعمل فيها » . ويقوم عمال الحكومة بمجاية زكاة الأموال الظاهرة كالمواشي والمنتجات الزراعية . أما زكاة الأموال كالذهب والفضة فتترك إلى الفرد ^(١) .
وتصنف الأموال التي تجب فيها الزكاة إلى الأصناف التالية :

أ - المواشي : وهي الابل والغنم والبقر . وتؤخذ زكاتها متى ما وصلت النصاب ، وكانت في ملكية صاحبها سنة واحدة على الأقل ، وكانت سائمة في المراعي .
وتكون الزكاة كما يلي :

في الابل : من ٥ - ٩ : شاة جذعة (سنها ٩ أشهر) أو ثنية من المعز (سنها سنة)

١٠ - ١٤ : شاتان

١٥ - ١٩ : ثلاث شياه

في البقر والجاموس : ٣٠ - ٣٩ وفيها تبيع (عمره ستة أشهر) ذكر .

٤٠ - ٥٠ وفيها مسنة (عمرها سنة) انثى .

٦٠ - وفيها تبيعان .. الخ

ومن الغنم : ٤٠ - ١٢٠ : جذعة أو ثنية من المعز

١٢١ - ١٩٩ : شاتان

٢٠٠ - ٣٩٩ : ثلاث شياه . الخ ^(٢)

ب - الزروع والثمار : وتختلف أنواع الثمار التي يزكيها الفقهاء بين التمر والعنب فقط (على رأي الشافعي) وبين كل أنواع الثمر (في رأي أبي حنيفة) .
ويأخذ بعضهم الزكاة من الخضر والبقول وأنواع الحبوب ، بينما يقصرها البعض الآخر على « ما يكال ويدخر » . ويشترط بعضهم حصول نصاب

(١) الماوردي ص ١٠٩ ، أبو يعلى ص ٩٩

(٢) أبو يعلى ص ١٠١ - ١٠٢ ، الماوردي ص ١١٠ - ١١١ ، أبو يوسف ص ١٣٢ وما بعدها

قدره خمسة أوسق (= ٣٦٠ رطلا عراقياً) ، حين لا يرى آخرون لزوماً لنصاب .

وتبلغ هذه الضريبة ١٠/١ على ما يسقى بصورة طبيعية ، بماء المطر أو بالقنوات ، و ٢٠/١ إن كان السقي اصطناعياً .

وتقدر الضريبة بعد وزن الحاصل ، ويميز بعضهم (كالشافعي وابن حنبل) تقدير ضريبة الفواكه وهي على الأشجار ^(١) .

ج - الذهب والفضة : ويبلغ نصابها مائتا درهم شرعي (الذي وزن كل درهم منه ستة دوانيق ، وكل عشرة منها سبعة مثقال) ، وعشرون مثقالاً من الذهب . ومقدار الضريبة ٤٠/١ ^(٢) .

د - ويفرض على بضاعة التجار المسلمين ، بما فيها الرقيق ، ٤٠/١ من ثمنها ^(٣) .

ثالثاً - الضرائب في الواقع :

لقد ذكرنا الضرائب الشرعية ، إلا أنه كانت توجد بجانب هذه ضرائب أخرى نشأت عن حاجات وظروف جديدة ، ولعبت دوراً مهماً في السياسة المالية . إذ ما جاء القرن الرابع الهجري ، حتى لم يبق أثر لغنائم الحرب ، وتقلصت أراضي الخلافة لحد كبير ، وكاد دفع الزكاة من قبل المتمرين يقتصر على زكاة المواشي والزرع ^(٤) . وهكذا حصل نقص كبير في موارد بيت المال . ومن الجهة الثانية ، بقيت الماكنة الادارية على سعتها وكثرة موظفيها ، وارتفعت الرواتب عما كانت عليه من قبل ،

(١) يحيى بن آدم ص ٨١ و ص ٨٤ ، الماوردي ص ١١٢ - ١١٥ ، أبو يعلى ص ١٠٣ - ١٠٤ و ص ١٠٦ - ١٠٨ .

(٢) أبو يعلى ص ١٠٨ - ١١٠ ، الماوردي ص ١١٥ ، الصولي - أدب الكتاب ص ١٩٩ .

(٣) يحيى بن آدم ص ١٢٦ ، الصولي - أدب الكتاب ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، انظر أبو عبيد ص ٤٦٣ - ٥٣١ و ص ٥٣٣ .

(٤) انظر التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٦ .

ووصلت نفقات البلاط حد البذخ الزائد^(١). وكان من الضروري إيجاد مصادر جديدة للوارد، فظهرت ضرائب جديدة تدعى عامة بـ « المكوس » أو الضرائب غير المشروعة. وهذه المكوس تحتاج إلى توضيح، كما أن الضرائب المشروعة كانت تختلف في التطبيق عن التحليل الذي نجده لها في نظريات الفقهاء، ولذا وجب توضيحها في الواقع لما لذلك من أهمية كبرى في الحياة الاقتصادية. فلنبداً بالضرائب المشروعة، ثم نترج إلى المكوس:

١- الخراج: حدد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) مقدار الخراج في السواد بـ $\frac{2}{3}$ من الحاصل^(٢)، إلا أن هذه النسبة أغفلت في بعض الأحيان. شكى أهالي منطقة بادوريا إلى الوزير حامد بن العباس بأنهم يدفعون ثلاثة دراهم على كل نخلة من نوع الشيزري، مع أن ثمن ثمرها درهمان^(٣). وكتب علي بن عيسى إلى عامل ديار ربيعة (سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م): « وقد ورد الحضرة .. جماعة من وجوه النساء والمزارعين بديار ربيعة متظلمين بما عوملوا به في سني

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤. وتناول زيدان هذا الموضوع بتفصيل في كتابه التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٩. وهو يرى أن قلة الوارد عن الصرف يعود الى: (١) نقص الواردات نتيجة: (أ) نقص الامبراطورية (ب) نقص مقدار ضريبة الخراج (ج) طعم الولاة واخذهم. انقسم من الوارد (د) تكرار الثورات والفتن (هـ) تحويل قسم كبير من الأراضي الى ضياع سلطانية ونقص الضرائب المفروضة عليها وعلى ضياع الرؤساء. (٢) كثرة النفقات نتيجة: (أ) بذخ الخلفاء وكثرة ما يصرف على الحفلات وما يعطى في الهبات. (ب) توسع الماكينة الادارية الحاصلة (ج) زيادة الرواتب (د) طعم الوزراء وتحويل قسم كبير من مال الخزينة الى جيوبهم.

(٢) الفخري ص ١٦٢، الطبري ص ١١١ - ١٠٣٩. ويظهر ان هذا التحديد حصل بعد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م، وان نسبة الخراج كانت حتى آنذ هي النصف. انظر الطبري ص ١١١ ص ٦٠٧، والفخري ص ١٦٢. ولعل هذا التعطيف يفسره لحد ما، الفرق بين وارد السواد كما في قائمة قدامة (سنة ٢٠٤ هـ) وهو ٦٥٠ ر٤٥٧ ر١١٤ درهماً، وقائمة ابن خرداذبه (حوالي ٢٧٢ هـ) ومقدار الوارد فيها ٣٤٠ ر٣١٩ ر٧٨ درهماً.

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٥٠.

٣١١ — ١١٣ هـ من إكراههم على تضمين غلات يادرم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الاعشار في ضياعهم على الترييع ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبدة^(١) (أي معدل) قبل إدراك غلاتهم وثمارهم^(٢) . وأمر الوزير عامله أن يرجع الضرائب إلى نسبتها الاعتيادية . وفي سنة ٣٢١ - ٥٢ / ٩٣٣ - ٤ م ، شكى زراع السكوفة إلى علي بن عيسى ، الذي كانت إليه منطقة واسط ومنطقة « سقي الفرات » ، من ظلم العامل الذي كان يقدر أثمان الفواكه بأكثر من سعر السوق ، ثم يجبي الضريبة تقدماً على أساس هذا التقدير . فكتب علي إلى العامل يأمره بأن يأخذ الخراج بالمقاسمة (أي أخذ نسبة من الحاصل)^(٣) .

واعتنى علي بن عيسى بحماية دافعي الضريبة بصورة عامة . فكتب إلى العمال أن ينظروا في شكاوى المزارعين الذين تلف بعض غلتهم بأفة طبيعية ، ومتى ثبت له حصول التلف فعليه أن يخفف من الضريبة مقداراً يتناسب والضرر . كما أنه أوصى باستيفاء الخراج « من غير محاباة للاقوياء ولا حيف على الضعفاء » . وطلب منهم أن « يكون العدل . . على الرعية كاملاً ، والانصاف لجميعهم شاملاً »^(٤) .

وفي إمارة معز الدولة ، أطلقت أبدي أصحاب الاقطاع وأهل الضمان . فلم تهتم الحكومة بمعرفة الطريقة التي يعامل بها الزراع « من جور أو نصفة » . فنتج عن ذلك ظهور « جبايات تحدث على غير رسم ، ومصادرات ترفع على محض الظلم ، وإضافات إلى الارتفاع ليست بعبدة ، وحسابات في النفقات لا حقيقة لشيء منها »^(٥) .

(١) العبدة تقدير مالي ، يكون بأن يؤخذ معدل الوارد لسنتين عديدة من سني الرخاء والقلة . انظر الخوارزمي ص ٤٠

(٢) الصابي - الوزراء ص ٣٢٦ - ٧

(٣) الصابي - الوزراء ص ٣٥٩ ، وانظر Bowen : Ali b. Isa p. 335 ، ومسكويه ج ١ ص ٣١ .

(٤) مسكويه ج ١ ص ٢٨

(٥) ن. م. ج ٢ ص ٩٩

واستمر هذا الوضع حتى إمارة عضد الدولة ، الذي أصلح الحالة . ففي إمارة عضد الدولة « أمضيت للرعية الرسوم الصحيحة ، وحذفت عنها الزيادات والتأويلات ، ووقف على مظالم المتظلمين وحملوا على التعديل » ^(١) . إلا أن هذا الوضع لم يستمر ، إذ عاد عضد الدولة « فأحدث جبايات لم تكن ، ورسوم ومعاملات لم تعهد » . وزاد في الخراج ، بأن « زاد في المساحة واحداً في عشرة بالقلم وأضافه إلى الأصول وجعله رسمًا جارياً .. في جميع السواد » ^(٢) .

وفي فترة الحمدانيين قاست الجزيرة من كثرة الضرائب . فقد جعل ناصر الدولة نسبة المعاشمة النصف ^(٣) . ثم إنه كان في بعض الأحيان يقدر ثمن الغلة ، ويعطي الزارع ثمن حصته حسب تقديره ، فتكون النتيجة أن نصيب الزارع يكون أقل من خمسي الحاصل ^(٤) .

وكان الخراج يجبي على أساس السنة الشمسية ، ولذا كان التقويم (الهلالي) يعدل بين فترة وأخرى ليحل موعد الجباية عند نضج الغلات ^(٥) . ولكن هذه القاعدة كانت تهمل في الغالب . فمثلاً بدأ البريديون سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م بجباية الخراج في آذار ، والزرع أخضر « فحبط التناؤ حتى تهاربوا » ^(٦) . ولما غلب عضد الدولة على العراق ، وجد أن الخراج كان يجبي قبل نضج الغلات ^(٧) . ومن

(١) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٧

(٢) أبو شجاع (ذيل مسكويه) ص ٧١

(٣) ابن حوقل ص ٢١٣ و ص ٢١٢ و ص ٢١٨ و ص ٢١٩

(٤) ابن حوقل ص ٢١٣ ، وكان هذا يحصل في منطقة نصيبين .

(٥) أصلح التقويم من قبل المعتضد ، ثم من قبل الوزير المهلب ، وأخيراً في زمن عضد الدولة الذي أخر موعد الجباية إلى النوروز المعتضدي (أي ١١ حزيران) ، انظر فصل « الزراعة » - القسم الثاني ، مسكويه ج ٢ ص ٤٠٧ ، رسائل أبي اسحق الصائبي ص ٢١٣ وما بعدها .

(٦) مسكويه ج ٢ ص ٢٥

(٧) ن ٢٠٠ ج ٢ ص ٤٠٧ . انظر رسائل الصائبي ص ١٢٠

جهة ثانية ، كان الوزراء يرون أنه يجوز لهم - في حالة الحاجة الشديدة إلى المال - أن يقوموا بجباية قسم من الخراج قبل أوانه ، دفعة أولى ، ويجمعون الباقي في الموسم ^(١) . وكانت الطريقة المتبعة في جباية الخراج هي بأن يجمع الحاصل ، ويكال أو يحصى ، ثم تؤخذ حصة الحكومة ^(٢) . ويجوز أحياناً - في حالة الأشجار المثمرة - أن تعد الأشجار ويقدر الخراج حسب عددها ^(٣) .

٢ - وكانت الأراضي في سواد البصرة عشرية ^(٤) . ويعتبر المقدسي ^(٥) الأراضي المحيطة بالكوفة عشرية ، إلا أن الاصطخري والصابي ^(٦) يعتبرانها خراجية ، ورأيها أقرب للقبول . ويخبرنا ابن خرداذبه أن أراضي « السيين » و « الوقوف » عشرية ، ويقدر العشر الوارد منها بـ ٥٠٠ كر حنطة ، و ٥٠٠ درهم كرشعير ، و ١٥٠٠٠ درهم ^(٧) .

ومع أنه يفترض شرعاً أن تدفع الأراضي العشرية عشر حاصلها ، إلا أن الواقع كان يختلف أحياناً عن النظريات . ففي سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، شكى بعض زراع ديار ربيعة إلى علي بن عيسى بأنهم أجبروا ، خلال ثلاث سنوات ، على دفع العشر على المساحة ، وبذلك دفعوا أكثر من العشر ^(٨) . وفي البصرة فرض البريديون (حوالي ٣٣٠ - ٣٣٤ هـ / ٩٤١ - ٩٤٥ م) عشرين درهماً على جريب ^(٩) الحنطة والشعير

(١) مسكويه ج ١ ص ٤٢ - ٣

(٢) الصابي - الوزراء ص ٢٠٩ ، التتوخي - نشوار الحضارة ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩

(٣) التتوخي - نشوار الحضارة ج ٨ ص ٥٠

(٤) الاصطخري ص ٨٠

(٥) المقدسي ص ١٣٣ ، انظر يحيى بن آدم القرشي ص ٣٦ - ٧

(٦) الاصطخري ص ٨٠ ، الصابي - الوزراء ص ٣٥٩

(٧) ابن خرداذبه ص ١١

(٨) الصابي - الوزراء ص ٣٣٦ - ٣٣٧

(٩) الجريب = ٣٦٠٠ ذراع مربع ، وحوالي ٢٤٠٠ م ٢ . الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٤٣

على أساس العشر^(١) . ويصف لنا مسكويه ما حصل بعد ذلك قائلا : « وكانت العارة تنقص في كل سنة لأجل جور البريدين وعمالهم ، وهم يطالبون بالعبرة ، فنقص مال العبدة عن جريان العارة ، فزاد ذلك ما يلزم كل جريب في السنة على ما كان يلزمه في السنة التي قبلها . وكان قد فحط أهل البصرة بالمحاصرات التي لحقتهم فآلزموا أن يزرعوا تحت النخل حنطة وشعيرآ . فلما فعلوا ألزموا عن كل جريب أربعين درهماً . فقصروا في العارة ، فجعل ما كان يرتفع عبدة عليهم واستوفي من ملاك أرض العشر ، فتهارب الناس فزاد ذلك على من بقي »^(٢) .

ولما استولى البويهيون على البصرة (سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) ، شكى أهلها إلى الوزير المهلبى من ثقل الضرائب ، فوعدهم خيراً . ثم أمر بردهم إلى رسومهم القديمة وذلك بـ « أخذ العشر حبا بعيته من غير ترييع ولا تسعير . ونظر فيما بين ذلك وبين ما يؤخذ منهم على تقريب ، فأشار على أرباب العشر أن يتناوعوا فضل ما بين المعاملة على الظلم ، والمعاملة على الانصاف بثمن يرغب فيه معز الدولة عاجلا . . . فاستجابوا وتقرر الأمر بينهم على النى الف درهم » . ثم انقص من ذلك مائتي الف درهم ، رفقا منه بالضعفاء من الزراع . « وكتب إلى معز الدولة بأن في ذلك خطا عاجلا ووفورا في ارتفاع الناحية في المستقبل . فحسن موقع فعله من معز الدولة فأمضاه »^(٣) .

وفي سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ، أحسن الثائر (لشكرستان) السيرة في أهل البصرة

(١) مسكويه ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، المقدسي ص ١٣٣ . يذكر المقدسي ان عمر بن الخطاب وضع اربعة دراهم على جريب الحنطة ، ودرهمين على جريب الشعير . انظر الماوردي ص ١٤٣ ، ابو يعلى ص ١٥٠ ، ابو عبيد رقم ١٧٣ ، يحيى بن آدم ص ٥٦ .

(٢) مسكويه ج ٢ ص ١٢٨

(٣) مسكويه ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩

وخفف عنهم ، وفرض عليهم ضريبة قدرها ٢٠/١ « من سائر ما يتبايع ، حتى من
الأنكولات »^(١).

٣ - وعمل علي بن عيسى جريدة مفصلة بواردات الدولة العباسية وخاصة العراق ،
لسنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . وكان وارد مختلف مناطق العراق - من العشر والخراج
بالدرجة الأولى - في هذه الجريدة^(٢) كما يأتي :

أ - (السواد) :

بادوريا وكلواذي ونهر بين	١٦٦٢٨٣ درهما
نهر سير والرومقان وايفار يقطين ، وجازر ، والمدينة العتيقة	٧٥٥٧٦ ديناراً
الانبار وقطر بئ وسد	» ١٩٨٣١٣
كوثن ونهر درقيط	» ٢٥٠٠٠
الزاب الأعلى ونهر كشتاسب	» ٩٥٢٦
الفلوجة العليا والارحاء	» ١٦٧٣٦
الفلوجة السفلى والنهرين وعين النمر	» ١٣٥٨٥
السيب الأعلى ، وسورا ، وبابل ، وخطرنية ، وباروسما الأعلى	» ١٤٠٢٥٩
نهر الملك ، ومورجا ، ونهر جوبر ، والأساسان ، والمالكيات	» ٣٨٣٥٠
باروسما الأسفل	» ٤٦٣٣٦
ملاسجة الكوفة ، والحزن	» ١١٠٩٥٤
نهر بوق ، والدير الأسفل	» ٢٠٥٩٠
بزر جسابور	» ٢٤٣٠٠
الراذانان	» ٣٠٠٣٥

(١) ن ٢٠٠ م . ج ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

(٢) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27 off.

روستقباد	١٣٦٦٦ ر. دينار آ
النهر وان الأعلى وسمنطاي	» ٤٦٤٨٠
النهر وان الأوسط	» ٤٠٣٢٧
النهر وان الأسفل	» ٦٠٥٣٢
الصلح والمنازل	» ١٥٩٠٨٩
بادوريا وباكسيا	» ٤٢٤٩٩
واسط مع (الضياع) الخاصة والعباسية والمستحدثه بعد النفقات الراتبية	» ٣١٠٧٢٠
البصرة وكور دجلة	» ١٢١٠٩٥
ب - (الجزيرة) :	
آمد ، بعد الاحتمسابات	» ١٤٥٠١
ارزن وميافارقين ، بعد الاحتمسابات	» ٥١٧٥٠
ديار مضر	» ٢٥٧٢٢٥
ديار ربيعة بعد الاحتمسابات	» ٢٢٧٩٧
الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبلية ، بعد الاحتمسابات	» ٥١٠١٨٠
طريق الفرات	» ٩٦٥٨٤

ويضاف إلى ما ذكر وارد الضياع السلطانية الواسعة التي كانت تمتد في مختلف الأراضي العباسية ، في العراق وخارجه . وقد بلغ واردها بالاضافة إلى وارد الأوقاف مقدار ١٥٠٦٦٨ ر. دينار آ في السنة ^(١) .

وينبغي هنا ابن حوقل عن وارد العراق سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، واليك نبته :
ضمان العراق من تكريت إلى واسط ، مع أعمال الكوفة ٣٠ مليون درهم ^(٢) .

(١) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27 off

(٢) ابن حوقل ص ٢٤٧

ارتفاع البصرة » من وجوه أموالها كلها وجباياتها من أعشارها
وجماجمها ومصالحها وضمان البحر بلوازم المراكب «

٦ ملايين درهم . ضمان واسط

٦ ملايين درهم^(١) . خراج نصيدين وأعمالها

٥ ملايين درهم^(٢) . الموصل : خراج الخنطة والشعير

٥ ملايين درهم . خراج الحبوب (الأخرى) والقطاني

٢ مليونين درهم . خراج ضياع الحمدانيين

٤ ملايين درهم . باعربايا

مليون درهم . بازبدى (من الخنطة والشعير)

١٥٠٠٠٠٠ درهم . باهدرا

١٥٠٠٠٠٠ درهم^(٣) . جزيرة ابن عمر وجبل بأسورين ونواحيه

ويذكر المقدسي انه قرأ بنفسه كتاباً في خزانة عضد الدولة (٣٣٨ - ٣٧٢ هـ /

٩٤٩ - ٩٨٢ م) ، جاء فيه : « أن أنمان غوال (ج . غلة) السواد ٨٦٧٨٠٠٠٠

درهم ، ومن أبواب المال (الأخرى) بالسواد ٤٠٠٨٠٠٠ درهم ، وخراج دجلة

٨٥٠٠٠٠٠ درهم^(٤) .

٤ - وتختلف الروايات في مقدار الجزية التي فرضها عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ /

٦٣٤ - ٦٤٤ م) على أهل الذمة في العراق . ولتقدير عمر بن الخطاب أهمية خاصة ،

لأنه صار قدوة للخلفاء بعده في هذا الباب . فيذكر أبو عبيد روايتين : الأولى تفيد

أنه فرض ٢٤ درهماً في السنة على كل شخص ، وأعفى من ذلك النساء والصبيان .

(١) ن . م . م . ٢٣٨ - ٩

(٢) ن . م . م . ٢١٤

(٣) ابن حوقل م ٢١٧ - ٢١٩ . كل دينار يساوي أربعاً وخمسة عشر درهماً ، ن . م . م . ٢١٨

(٤) المقدسي م ١٣٣

والرواية الثانية تفيد أنه فرض ٤٨ درهماً على الأغنياء ، و ٢٤ درهماً على المتوسطي الحال ، و ١٢ درهماً على العامة ^(١) . وهذه الرواية هي الشائعة ^(٢) .

وجاء في عهد من الخليفة المطيع بتاريخ ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، أمر إلى عمال الجزية أن يأخذوا « من أهل الذمة البالغين الواجبين جزية رؤوسهم ، على احتمالهم في وجدهم واعدامهم » . ونص على أن « لا يأخذوا شيئاً من النساء ، ولا من الأطفال ، ولا من ذوي العاهات ، ولا من الشيخ الفاني ، ولا من الفقير المعدم » ^(٣) . وكان الرهبان والقسس يعفون من الجزية . ويذكر ابن البطريق أن علي بن عيسى حاول سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، أن يأخذ الجزية من القسيسين والرهبان والأساقفة والفقراء المعدمين في مصر السفلى ، ولكن الخليفة المقنن استمع إلى شكوى الأهلين فألقى تدابير علي بن عيسى ^(٤) .

وتستعمل لفظة « جوالي » أحياناً محل لفظة « جزية » ^(٥) . ونعني كلمة (جوالي) في الأصل ، الجزية التي تدفعها جماعات أهل الذمة التي نزلت (جلت) عن أوطانها الأصلية ، ثم أصبحت مرادفة لكلمة جزية ^(٦) .

وكانت الجزية تنحى في الحرم (الشهر الاول) من كل سنة قمرية ^(٧) . ويقدر

(١) أبو عبيد - الاموال ص ٣٩ - ٤١

(٢) أبو يوسف ص ١٢٢٢ - ١٢٤ . ويظهر لي الآن ان الخليفة تدرج في تقدير الجزية حتى استقر على الطبقات الثلاثة . انظر بحثي في مجلة القضاء بـغداد ، السنة الرابعة ١٩٤٥ ص ٣٠٦

(٣) رسائل الصابي ص ١٤٠

(٤) تاريخ ابن البطريق ص ٥١٧

(٥) وتسمى في عهد الخلفاء مرة جزية (رسائل الصابي ص ٤١٢) ومرة جوالي (ن . م . ص ١٤٠)

(٦) الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٣٩ ، أبو يوسف - هامش ص ١ ، رسائل الصابي - هامش ص ٩٩

(٧) رسائل الصابي ص ١١٢ د ص ١١٤

ابن خردادبه وارد جزية أهل الذمة في بغداد بـ ١٣٠.٠٠٠ درهم^(١) ، في حين أن وارد الجزية عند قدامة يبلغ ٢٠٠.٠٠٠ درهم^(٢) . أما في قائمة علي بن عيسى للسنة ٩١٨/٨٣٠٦ م ، فيبلغ واردها ١٦٠.٠٠٠ دينار (= ٢٤٠.٠٠٠ درهماً)^(٣) . وكانت جزية أهل الذمة في نصيبين ، سنة ٩٣٥٨/٩٦٨ م ، تبلغ ٥٠.٠٠٠ دينار (= ٧٥٠.٠٠٠ درهم)^(٤) . وكانت الجزية تكون قسماً مهماً من وارد الموصل وباعربايا^(٥) .

٥ - وتكثر الاشارات في العهود الصادرة في الفترة البويهية إلى الصدقات . ومنها تقيم أن الزكاة كانت تؤخذ على المواشي (أي الغنم والبقر والجاموس والجمال) فقط ، وأن هناك موظف خاص يقوم بالجباية يدعى عامل الصدقات^(٦) .

٦ - أما الضرائب التي يرد ذكرها في عهود الخلفاء والتي كتبها أبو اسحق الصابي فهي : الخراج ، العشر ، الصدقات ، الجوالي ، مال الجبهة ، الاحداث (وهي الغرامات التي تفرضها الشرطة)^(٧) ، و « سائر وجوه الجبايات »^(٨) . وهكذا نجد الضرائب الاربعة الشرعية مذكورة جنب الضرائب الجديدة أو للكوس .

وتتصف للكوس بصفتين رئيسيتين : الأولى أنها لا حد لها في الكمية ، والثانية أن جبايتها كانت تعتمد على عدل وطيب المسؤولين من جهة ، وعلى الوضع العام من جهة أخرى .

(١) ابن خردادبه من ١٢٥

(٢) قدامة - الخراج من ٢٥١

(٣) Von Kremer , O. G. p. 27

(٤) ابن حوقل من ٢١٤

(٥) ن . م . من ٢١٨

(٦) رسائل الصابي من ٩٨ - ٩٠ و من ١١١ - ١١٢ و من ١٢٧ و من ٢١٤

(٧) See Dozy : Supplement , I p. 158

(٨) رسائل الصابي من ٩٨ - ٩٠ و من ١١١ و من ١٢٧

وقد كانت ضريبة الارث ، بين الضرائب غير المشروعة ، مهمة جداً . يروى أن بدرآ المعتضدي ، رئيس حرم المعتضد ، سأل أحد الفقهاء عن الميراث ، فأخبره أن زيد بن ثابت يرى أن من مات ولم يكن له « من يرثه من عصبه وذوي سهم » ذهب ارثه إلى بيت المال ، كما أنه إذا بقي شيء من الارث ، بعد اعطاء كل ذي سهم من الورثة سهمه ، فإنه يذهب إلى بيت المال . وأخبره أن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود ، يرون اعطاء الارث بكامله إلى الورثة ، فإن لم يوجد وارث ، أعطي الارث إلى ذوي الرحم . وحاول هذا الفقيه - في مناقشة طويلة - أن يؤيد صحة وجهة النظر الثانية ^(١) .

وقد وضعت ضريبة الارث ، كما يظهر ، لأول مرة في خلافة المعتمد (سنة ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م) ^(٢) . وفي سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م ، أصدر المعتضد منشوراً ألغى فيه ضريبة الارث ، وديوان المواريث ، وأمر باعطاء الارث إلى الذرية والاقرباء ^(٣) . ويظهر أن هذا المنشور أهمل لأننا نسمع أن المقتدر أصدر منشوراً جديداً في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، يلغي ضريبة المواريث إلا حين يتوفى الشخص دون وارث ^(٤) . ولم يكن حظ هذا المنشور أفضل من المنشور السابق ، لأننا نسمع أن جباة ضريبة الارث أرادوا أن يفرضوا ضريبة على الاموال الواسعة التي خلفها شخص يدعى أخو أبي صخرة . ولما أخبر ابن الفرات بذلك أنكروه ونقل الخبر إلى المقتدر ، وانتقد هذه الضريبة واقترح الغائما . وبناء على ذلك صدر منشور يعطي تاريخ ضريبة الارث مع المحاولات لغائما . وكان مما جاء فيه : « وأنهى إلى أمير المؤمنين

(١) الصابي ص ٢٤٩ - ٢٥٣

(٢) ن . م . ص ٢٤٨

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ٣٢٤ ، الطبري ص ١١١ ص ٢٩٥٩ ، الذهبي (مختصر تاريخ دول

الاسلام - حيدر آباد الدكن ١٣٣٧ هـ) ج ١ ص ١٣٤

(٤) عريب - صلة الطبري ص ٣٨

أبو الحسن علي بن محمد ، ما يلحق كثير آمن الناس من الاعنات في موارثهم ، وما يتناول
 - على سبيل الظلم - من أموالهم ، ويحكم فيه بخلاف ما جرت به السنة . وأنه قد كان
 عبيد الله بن سليمان (الوزير) أنهى إلى المعتضد بالله . . حال المتقليدين لأعمال
 الموارث ، وما يجري على الرعية من مطالبهم إياهم بأحكام لم ينزل بها كتاب الله
 عز وجل ، ولا جرت بها سنة رسول الله (ص) ، ولا أجمع أئمة الهدى (ر . ع .)
 عليها . فكتب (المعتضد) إلى يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبدالعزيز القاضيين
 - كانا - بمدينة السلام وما يتصل بها من النواحي في أيامه ، بسألها عن الحال عندهما
 في موارث أهل الملة والذمة . فأثبت عبد الحميد آراء عمر بن الخطاب (ر) وعلي
 (ر) وابن عباس (ر) التي مر ذكرها . وكتب يوسف بن يعقوب كتاباً بين فيه
 « ما روي عن رسول الله (ص) من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث
 المسلم ، وأنه لا يتوارث أهل ملتين . ووصف يوسف في كتابه أن السنة جرت بأن
 أهل كل ملة يورثون من هو منهم ، إذا لم يكن له وارث من ذوي رحمه » ^(١) . وبعد
 أن يذكر المنشور الغاء هذه الضريبة من قبل المعتضد ، يقول : « ثم أعاد ذلك الرسم
 الجائر والأثر القبيح السائر ، حامد بن العباس (وزير بين ٣٠٦ - ٣١١هـ / ٩١٨ - ٩٢٣م)
 بظلمه وتعديه وتهوره وتسطيه ، وتأول على الرعية بما لم يرض الله عز وجل فيه . فأمر
 أمير المؤمنين بأن يرد على ذوي الارحام . . الموارث . . وأن يرد تركة من مات
 من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته ، وأن يصرف جميع عمال الموارث في
 سائر النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال الموارث إلى الحكم على ما لم
 يزل يجري عليه قبل أيام المعتمد على الله . . وكتب أبو الحسن يوم الخميس لاجدى
 عشرة ليلة بقيت من رجب سنة احدى عشرة وثلثمائة / ٢٥ تشرين الاول ٩٢٣م » ^(٢) .

(١) الصابي - الوزراء من ٢٤٦ - ٢٤٨

(٢) الصابي - الوزراء من ٢٤٨ - ٩

وهكذا يتضح من المنشور أن ضريبة الارث لم تكن مشروعة ، وأنها كانت بدعة أثقلت كاهل الناس . ولا نعرف مدة استمرار هذا المنشور ، ولكن أخذ المحسن - شريك والده ابن الغرات في الوزارة - لارث أخيه أبي صخرة في نفس السنة التي صدر فيها المنشور يدل على الفائدة القليلة لهذا المنشور في تلك الماكنة الادارية المنحطة ^(١) .

وفي سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢ م ، توفي رجل اسمه دعلج ، تاركا ثلثمائة الف مثقال ذهب ، فاستولى عليها معز الدولة . و كان معز الدولة يحترم حق الارث ، ولكن تركه دعلج أغرته ، فأخذها مع أنه احترم الاوقاف التي أوقفها هذا الشخص ^(٢) . ولا ندرى فيما اذا كانت ضريبة الارث تصاعدية . وفي سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩ م ، مات محمد بن عمر العلوي (نقيب الطالبيين) تاركا ثروة كبيرة . فأخذ الوزير أبو نصر سابور - بمعرفة الأمير البويهى بهاء الدولة - خمسين الف دينار من الارث وأعطى الباقي للورثة ^(٣) . وهكذا استمرت ضريبة الارث طيلة القرن الرابع الهجري ، وكانت مورداً مهماً للخزينة .

٧ - وكانت الضرائب تجبى على البضائع المنقولة من منطقة إلى أخرى برأ ونهراً . وقد النى علي بن عيسى في وزارته الاولى (٣٠٠ - ٣٠٤هـ / ٩١٢ - ٩١٦ م) ، المكوس الثقيلة التي كانت تجبى في حصن مهدي وفي نهر السدرة ^(٤) . وكانت قد أنشئت دور خاصة للمكوس في أماكن مختلفة ، خاصة على ضفاف الانهار . وكان يمد حبل أو سلسلة بين الضفتين عبر النهر ليمنع مرور السفن قبل أن تجبى الضريبة منها ،

(١) عريب - صلة الطبرى ص ١١٦ - ١١٧

(٢) سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ١٢ (خط) ورقة ٦٥ أ

(٣) الصابي - الوزراء ص ٣٧٧ - ٨

(٤) ن . م . ص ٢٨٦

وهذا ما يدعى بالمآصر (الجمع مآصر) ، ويطلق لفظ المآصر على الضريبة نفسها (١) .
وكان ابن رائق (٣٢٤ - ٣٢٦ هـ / ٩٣٥ - ٩٣٧ م) ، أول من وضع المآصر ببغداد
« وما كانت سمعت بالضرائب من قبله » (٢) . وكانت توجد مآصر ، على الطريق
من بغداد إلى واسط - في دير العاقول على دجلة (٣) ، وفي واسط (٤) .

ولما تم الصلح بين معز الدولة البويهى وناصر الدولة الحمداني سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م ،
كان من بنوده أن يرسل ناصر الدولة للبصرة إلى بغداد ، على أن « لا تؤخذ لها
ضريبة » (٥) . وكتب والي البصرة إلى عامل حصن حمدي بأن يسمح للسفن المحملة
تمرّاً ، والآتية من البصرة ، بأن تمر دون ضريبة ، فوافق العامل (٦) .

ومما يجلب الانتباه ، عدم ذكر المآصر في جريدة علي بن عيسى . ثم أن عهد
الخليفة المطيع إلى أبي تغلب الحمداني سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، يعتبر الضرائب الداخلية
على التجارة في البر والنهر غير مشروعة ، فيقول : « ولا يباطلهم (أي الأهليين) بضريبة
ولا يجيبهم عند مآصر (في النهر) ولا رصد (في البر) » (٧) .

وكانت المكوس في بعض الحالات ثقيلة . فقد فرض على سفينة محملة بالحديد
والجرار ، أن تدفع ثمانية آلاف درهم في واسط (٨) . وقد شكى المقدسي (٣٧٥ -
٣٨٧ هـ / ٩٨٥ - ٩٩٧ م) ، من ثقل هذه المكوس ، فكتب : « وأما الضرائب
فثقيلة كثيرة محدثة في النهر والبر . وفي البصرة تغتش صعب وشوكات منكرة ،

(١) ابن رسته ص ١٨٥ ، انظر كلمة (مآصر) في « تاج العروس » و « لسان العرب »

(٢) مسكويه ج ١ ص ٣٨٣ - هامش .

(٣) ابن رسته ص ١٨٦

(٤) التنوخي : نشوار المخاضرة ج ٨ ص ٩٤

(٥) مسكويه ج ٢ ص ١٠٨

(٦) التنوخي - نشوار المخاضرة ج ٨ ص ١٤٠

(٧) رسائل الصائي ص ١٣٨

(٨) التنوخي - نشوار المخاضرة ج ٨ ص ٩٣

وكذلك بالبطائح تقوم الأمتعة وتفقدش . وأما القرامطة فلمهم ديوان على باب البصرة ،
واللدليم ديوان آخر ، حتى أنه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم ، ولا يفتح إلا
ساعة من نهار . وإذا رجع الحاج مكسوا احمال الادم والجمال الاعرابية . وكذلك
بالسكوفة وبغداد . ويؤخذ من الحاج للمحمل ستون ، ومن الكنيسة أو حمل البر
مائة ، ومن العمارية خمسون ومائة بالبصرة والسكوفة ^(١) .

وفي بغداد ، كانت المكوس تفرض على البضائع التي يأخذها الحجاج أو يأتون
بها . وقد افتخر عز الدولة في كتاب أرسله إلى حاجبه الثائر سبكتكين (٣٦٣ هـ /
٩٧٣ م) ، بأنه أحسن إلى أهل بغداد ، إذ يقول : « ورفعنا عنهم ما كان يؤخذ
منهم لك ولنظرائك من ضرائب الغنم المجلوبة ، والأمتعة التي يأخذها الحجيج صادرة
وواردة » ^(٢) . وجاء في بيان أصدره عضد الدولة (سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) ، على
أثر عصيان قام به المماليك الأتراك في بغداد ، ما يأتي : « وقد سمحنا لهم (أهل
بغداد) . . بالضرائب المأخوذة من الأغنام ومن كل ما يحمله تجار الحجيج من
بز وغيره » ^(٣) .

٨ - وكانت تفرض الضرائب ، في البصرة ، على البضائع المحمولة في السفن ،
والمجلوبة بخرأ إليها . وتدعى هذه الضرائب بالمكوس ، وتدعى محلات جبايتها
« المراصد » ^(٤) . وكان المسلمون يدفعون ١ / ٤٠ (أو ٢٥ ٪) من قيمة بضائعهم
ضريبة ^(٥) ، ويدفع التجار الهنود والصينيون ١ / ١٠ (أو ١٠ ٪) ^(٦) . ويخبرنا

(١) المقديسي ص ٣٣ - ١٣٤

(٢) رسائل الصابي ص ٢٣٥

(٣) ن . م . ص ٢٤٥ وما بعدها

(٤) الخوارزمي - مفاتيح العلوم ص ٣٩

(٥) زيدان - التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢١٨

(٦) تاريخ اليعقوبي ص ٥٩٠

ابن خرداذبه أن التجار الروس كانوا يدعون بأنهم مسيحيون ، ويدفعون الجزية (١) .
وجاء في جريدة علي بن عيسى (٣٠٦ هـ) ، أن ضرائب السفن القادمة كانت
تساوي ٢٢٥٧٥ ديناراً (٢) . وبلغ واردها سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م مبلغ ٢٠٠.٠٠٠
دينار (٣) .

٩ - وكانت الضرائب تجبى على الحوانيت والأسواق . وأول من فرض هذه
الضريبة هو الخليفة المهدي وذلك سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م . وقد قدر اليعقوبي (المتوفي
سنة ٢٦٤ هـ / ٨٩٧ م) مقدار هذه الضرائب في بغداد بـ ١١٩٠٠.٠٠٠ درهم
سنوياً (٤) . وبلغ وارد أسواق النعم في بغداد ، وسامراء ، وواسط ، والبصرة ، والكوفة
في جريدة علي بن عيسى لسنة ٣٠٦ هـ مقدار ١٦٩٧٥ ديناراً سنوياً (٥) . ويخبرنا
ابن حوقل أن « ما يقبض من الطواحين في القصبة (نصيبين) والضيايع المقبوضة
والمشترأة ، وغلات العقار المسقف من الخانات والحمامات والحوانيت والدور ستة عشر
الف دينار ، وذلك في سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م (٦) . وهذا يدل على أن الحمامات كانت
تدفع ضريبة أيضاً .

وهناك ضرائب تفرض على الطواحين في العصر العباسي . ففي بغداد ، كانت
الرحا المشهورة برحا البطريق تفل مائة ألف درهم في السنة (٧) . وفي الجزيرة استولى
الحدانيون على جميع الطواحين . وكان وارد الطواحين في الحديثة وحدها ، يساوي

(١) ابن خرداذبه ص ١٥٤

(٢) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27

(٣) مسكويه ج ٢ ص ١٢٩

(٤) اليعقوبي - البلدان ص ٢٥٤ و ص ٢٤٣

(٥) Von Kremer : Ali b. Isa p. 27

(٦) ابن حوقل ص ١٤٣

(٧) اليعقوبي - البلدان ص ٢٤٣

خمسین الف درهم سنوياً^(١). وكان وارد الطواحين في بازبدی ، وهي من الجزيرة ، يكون جزءاً مهماً من الوارد^(٢).

ومن جملة التهم التي وجهها أبو شجاع إلى عضد الدولة، أنه « أدخل يده في جميع الارحاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه ، وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه . . فأزاله صمصام الدولة بعده وأطلق الارتفاع للملاك^(٣) .

ويذكر التنوخي قصة تعيد أنه كانت توجد ضريبة على الدور تسمى أجرة العرصة ، وأن واردها كان كثيراً في خلافة المقتدر . ويفهم من التنوخي أنها كانت تفرض على البنايات المنشأة على أراضي حكومية^(٤) . ويحتمل أن الضريبة كانت مهمة ، فيذكر أنه لما حدث فيضان ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م ، شرع عميد الدولة ببناء سور حول الحرم (وهي محلة في بغداد الشرقية) وجمع النفود اللازمة من الضرائب التي فرضها على دور الناس وأبليتهم^(٥) .

وكانت لفظة « مستغلات » تطلق على الضرائب التي تفرض على الدور والأسواق والطواحين التي بناها الناس على أرض حكومية^(٦). وقد ذكر ابن خرداذبه أن وارد مستغلات بغداد مع دار الضرب، بلغ ١٥٠٠٠٠٠ درهم في سنة ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م . وبلغ وارد مستغلات بغداد حوالي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ، ١٣٠٠٠ دينار في السنة^(٧) .

١٠ - وكانت تفرض ضرائب جديدة أحياناً على بعض المواد . فلما فتح

(١) ابن حوقل ص ٢١٩ - ٢٢٠

(٢) ن . م . ص ٢١٩

(٣) مسكويه ج ٣ ص ٧١

(٤) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٧٤ - ٧٥

(٥) ابن الجوزي - مناقب بغداد ص ١٧ « فتقدم بجباية العقار الذي للناس »

(٦) زبدان - التمدن الا-لاي ج ص ٩٤ ، ابن حوقل ص ٣٠٣

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١

عضد الدولة الأهواز سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، أعلن بأنه سيخلص الأهلين من عبء
ثقل ، بالغاء الضرائب على الطحين والمواد الغذائية ، ووعد أن يفعل ذلك في العراق ^(١) .
وفرض ناصر الدولة (٣١٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٢٩ - ٩٦٨ م) ، الضرائب على بيع الأغنام
والدواب والبقر والخضر والفواكه ، حتى بلغ الوارد منها خمسة آلاف دينار في سنة
٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ^(٢) . وفرض ضريبة على الخمر في ديار ربيعة ، فألغاه علي بن
عيسى ^(٣) ، ثم أعادها ناصر الدولة . وتوضح أهميتها من أن واردها بلغ خمسة آلاف دينار
في سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ^(٤) . وفرض عضد الدولة الضرائب على بيع الخيل والحمر
والجمال في جميع الأسواق ^(٥) . ويظهر أنه فرضت في وقت ما ضريبة على بيع
المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد . وقد أعادها صمصام الدولة سنة ٣٧٥ هـ /
٩٨٥ م ، وجعل مقدارها ١ / ١٠ من الثمن ، مما أدى إلى حصول فتنة وشغب في
بغداد حتى ألغيت الضريبة ^(٦) . وفي سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، أعاد الوزير أبو نصر
فرض ضريبة العشر على المنسوجات الحريرية والقطنية المعمولة في بغداد ، فثار عليه
سكان محلة العتايبة ومحلة باب الشام إلا أن الثورة أخذت ، « وثبت هذا الرسم
ورتب في جبايته ناظرون ومتولون وأفرد له ديوان في دار بالبركة ، ووضعت
الختوم على جميع ما يقطع من المناسج ويبيع ويحمر . واستمرت الحال على ذلك إلى
آخر أيام عميد الجيوش أبي علي (٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م) ، ثم أسقطه وأزال رسمه » ^(٧) .

(١) رسائل الصابي من ٢٤٥ - ٢٤٦

(٢) ابن حوقل من ٢١٤

(٣) مسكويه ج ١ من ٢٩

(٤) ابن حوقل من ٢١٤

(٥) مسكويه ج ٣ من ٧٢

(٦) ابن الأثير ج ٩ من ٣٣ . نفس النص في الذهبي - دول الاسلام (خط) ورقة ٢٩ ب ،
سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان (مجد ١٢ - خط) من ١٢١ أ يضيف أن أبا الفتح قدر
وارد هذه الضريبة بالف دينار في السنة .

(٧) الصابي - الوزراء من ٣٦٨ ، مسكويه ج ٣ من ٣٦١ - ٣٦٢

وفي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ، فرض أبو الحسن البريدي ضريبة على الزيت ، كما فرض ضريبة باهضة بلغت سبعين درهماً على كرا الخنطة ^(١) .

١١ - وفرض الوزير ابن سعدان ضريبة دخل سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م . يروي أبو شجاع « وأحدث (ابن سعدان) من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتاب والخواشي من أموالهم وأرزاقهم ، والتوقيع في آخر الصكك إلى العمال بمقاصة أربابها به وجمعه عليهم وأخذ منهم » ^(٢) .

١٢ - وقد فرضت ضريبة على المراعي في بعض الأحيان . فقد فرض المطيع على أبي تغلب الحمداني في عهد توليته ، أن لا يفرض ضريبة على المراعي ، وأن لا يمنع الناس من الاستفادة منها ^(٣) . وأنشأ عضد الدولة ديواناً خاصاً لجباية هذه الضريبة ^(٤) . وفي سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ، « خرج أمر بهاء الدولة باسقاط ما يؤخذ من المراعي من سائر السواد » ^(٥) .

١٣ - وفي أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ظهرت ضريبة جديدة باسم « مال الجهبذة » . وقد وصفها علي بن عيسى بأنها « بلاء » على الناس ^(٦) . وعندما سئل علي عن سبب حذف « مال الجهبذة » من تقديره لواردات الموصل والزائين في خلافة المعتضد ، اجاب : « هذا ما لا أعرفه في أصل ولا مضاف ، فان يكن مال السلطان فهو بمنزلة ما يؤخذ من الذيل ويرفع به الجيب ، أو يكن من مال الرعية

(١) مسكويه ج ٣ ص ٨٥

(٢) نفس المصدر والصحيفة

(٣) رسائل الصابي ص ١٣٨

(٤) مسكويه ج ٣ ص ٧١ - ٧٢

(٥) ن . م . ج ٣ ص ١٧٤ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨ ، ابن الجوزي - مرآة الزمان (خط) ورقة ١٠٤ ب .

(٦) الصابي - الوزراء ص ٢٥٥

فهو ظلم وطريق للجهاذة إلى أخذ أموال المعاملين . فقال ابن الفرات يرد عليه : « هذا باب من أبواب الارتفاع ولا يجوز أن يترك ولا بضاع .. وتقدير ما يجب في هذه النواحي من ذلك عشرة آلاف دينار .. حتى قال : سبيل هذه النواحي سبيل غيرها من نواحي السواد »^(١) . وهذه الرواية تدل على أهمية « مال الجبهة » ، وعلى أنه كان ضاراً بمصالح الناس ، وعلى أنه أصبح مألوفاً في التقاليد الإدارية حين اعترض علي بن عيسى على جبايته .

ولسنا نعرف ماهية هذه الضريبة تماماً . وقد حفظ لنا القمي عهد تولية صادر من المقتدر إلى جهنـد . ومنه نفهم أن مال الجبهة كان - نظرياً - أجرة الجهنـد على خدماته ، وأنه كان يتناسب وما يمر بيد الجهنـد من أموال ، وأنه كان يجبي من دافعي الضريبة ، ولذلك كان يسبب إرهاب الناس^(٢) .

١٤ - أما طرق الجباية فكثيراً ما كانت غنيمة ومرهقة . ويفهم من كلمة قالها الفقيه أبو زبير الجبائي أن نظام العباسيين المالي كان فاسداً ، وأن طرق الجباية عندهم كانت مجحفة وغير عادلة ^(٣) . ولعل فيما قاله بعض الصواب ^(٤) .

ومن ناحية أخرى تتكرر الاشارات إلى محاولة خليفة أو وزير لانصاف دافعي الضريبة ، ولحمايتهم من عبث الموظفين الفاسدين ^(٥) . جاء في عهد المطيع إلى أبي تغلب الحمداني : « وأمره أن يرفع عن الزعينة ما شرعه أشرار العمال من سنن الظلم ، وسير القسـم ، وأحدثوه من الرسوم الباطلة ، وطرقوه من المعاملات الجائرة ،

(١) نفس المصدر والصحيفة . وكان علي بن عيسى كاتب ديوان الخراج آنئذ في وزارة عبيد الله بن سليمان (توفي سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م) ، وكان أبو العباس ابن الفرات خليفة الوزير .

(٢) القمي - تاريخ قم ص ١٥٩ - ١٦١

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٥٠

(٤) انظر : مسكويه ج ٢ ص ٢٦٢ - ٥ ، الجهمشيري - الوزراء ص ١٤٢ - ٣ ، الرقاعي -

عصر المأمون ج ١ ص ٣١٦

(٥) الصابي - الوزراء ص ٢٣٦ - ٢٣٩ و ص ٢٤٩ - ٢٥١

ولا يستعمل عليهم عاملاً إلا بأجرة ، ولا يدخل لهم رباعاً إلا بإذن ، ولا يسفر جمولة ، ولا يحصى مرعى ، و ٠٠ لا يبيح سواها ، ولا يكلفهم علوفة ، ولا يلزمهم مفرماً ولا ميرة ، ولا يطالبهم بضريبة ولا مكس ، ولا يجبيهم عند ماصر ولا رصداً ، ولا يقطعهم عن معيشة ولا حرفة ، ولا يشغلهم عن تجارة ولا مهنة » (١) .

وتكثر في عهود التولية في العصر البويهي ، النصائح للامراء باختيار العمال الأمناء الموثوقين ، وبالاتباع عن الظلم ، وبالرفق بالرعية (٢) . كما أن الخلفاء كانوا يؤكدون للامراء بأن العدل يجلب الرفاه ويؤدي في الأخير إلى زيادة الوارد (٣) . كما أنهم كانوا ينصحون من ناحية أخرى باستعمال الشدة مع الذين يراوغون في دفع الضريبة (٤) .

ومهما يكن ، فإن توالي التأكيد على وجوب استعمال اللطف والرفقة ، يدل على أن الأمراء والعمال كانوا يهتمون نصائح أسيادهم في الغالب ، وعلى أنهم كثيراً ما فرضوا ضرائب جديدة ومرهقة .

(١) رسائل الصابي ص ١٣٨

(٢) ن . م . ص ١٣٩ و ص ١٣٨ و ص ١١١

(٣) ن . م . ص ١٠٩

(٤) ن . م . ص ١١٠

الفصل السابع

النظام النقدي

خطة الفصل

- ١- مقدمة في النقود الإسلامية .
- ٢- نظام النقد المزدوج .
- ٣- هل كان التعامل بالنقود بالوزن ام بالعد ؟
- ٤- اعمار الصرف ، وسبب التذبذب .
- ٥- الاشراف على دار الضرب .
- ٦- النقود المتداولة
- ٧- النقود الجيدة والرديئة
- ٨- دار الضرب وسياستها .

اتخذ النظام النقدي في العراق وضعاً معيناً بعد تطور طويل ، فلا يمكننا استجلاء حقيقته دون بحث أسسه وتطوره بصورة عامة . ولما كان اتصاله بالحياة المالية وثيقاً ، صار من الضروري بحث بعض مشاكله ، وخاصة ما يتعلق منها بالحياة التجارية . ولهذا بحثت بصورة مجملة في نشوء نظام النقد الاسلامي وتطوره حتى القرن الثالث الهجري ، لتكون للقاري فكرة عامة عنه ، ثم فصلت بعض المشاكل النقدية في القرن الرابع الهجري .

١ - مقررته في النقود الإسلامية

ظهر الاسلام ولم تكن للعرب عملة خاصة ، بل كانوا يتعاملون بالدرهم الفضية الساسانية وبالدينار الذهبية البيزنطية^(١) . وقد شاع عندهم استعمال ثلاثة أنواع من

(١) الماوردي - الاحكام السلطانية - ص ١٤٩ ، المقرئ - شذور العقود ، باعتناء ماير

« الاسكندرية ١٩٣١ » ص ٢ .

الدرهم وهي : البغلية وتدعى أحياناً الوافية^(١) ، والطبرية ، والجوارقية^(٢) . وكانت كما يلي :

الدرهم البغلي ، ويزن ٢٠ قيراطا = ٨ دوانيق = $4.66\frac{2}{3}$ غرام .

الدرهم الطبري ، ويزن ١٠ قراريط = ٤ دوانيق = $2.83\frac{1}{3}$ غرام .

الدرهم الجوارقي ، ويزن ١٢ قيراطا = $4\frac{1}{2}$ دانق = ٣.٤٠ غرام^(٣) .

كما استعمل العرب دراهم أخرى ، كالدرهم اليمنية ووزن الواحد منها دانقاً واحداً أو $7.08\frac{1}{2}$ غرام ، والدرهم المغربية ووزن الدرهم منها ثلاثة دوانيق أو ٢.١٢٥ غرام^(٤) . وكان التعامل بهذه الدراهم بالوزن لا بالعد^(٥) . يقول البلاذري : « كانت قرش تزن الفضة بوزن تسميه درهماً ، وتزن الذهب بوزن تسميه ديناراً »^(٦) . ثم استلزم فرض الزكاة تعيين وزن درهم يقاس به وهو الدرهم الشرعي^(٧) ، فحدد وزنه في خلافة عمر (ر) بستة دوانيق أو $3.96\frac{2}{3}$ غرام ،

(١) ابو عبيد - الاموال ص ٢٥٤ ، المقرئ - شذور ص ٢ . ويميز ابن تفردي بين البغلية والوافية « النجوم الزاهرة - طبعة لندن » ج ٢ ص ٢١٣ .

(٢) المقرئ - شذور ص ٢ . « الطبرية » تنسب الى طبرستان في ايران ، لا الى طبرية في فلسطين . والجوارقية تنسب الى جورقان وهي قرب همدان . انظر كتاب « النقود العربية » للعلامة الاب الكرملي (القاهرة ١٩٣٩) ص ٢٤ .

(٣) المقرئ - شذور ص ٢ ، الماوردي ص ١٤٩ ، ابو عبيد ص ٤٢٤ ، Revue Numismatique, 1908 p 209 ، ويضيف البلاذري ان عشرة من الدراهم البغلية تزن عشرة مثاقيل ، وعشرة طبرية تزن خمسة مثاقيل ، ومنها جوراقية تزن ستة مثاقيل . فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١) ص ٤٧١ .

(٤) Revue Numismatique 1908 p. 209 ، الماوردي ص ١٤٩ . كل دانق = $7.08\frac{1}{2}$ غرام .

(٥) Revue Numismatique 1884, p. 335

(٦) البلاذري - فتوح البلدان ص ٤٧٢ ، انظر « النقود العربية » للكرملي ص ٢٧-٨ .

(٧) ابو عبيد ص ٢٨ ، الماوردي ص ١٤٩ .

وصار وزن عشرة دراهم شرعية يساوي سبعة مثاقيل. ف ضربت دراهم شرعية و دراهم أخرى من أوزان مختلفة (١).

ثم طرأت تغييرات تدريجية - بتأثير الدين الجديد والأوضاع السياسية الجديدة - على النقود الساسانية والبيزنطية. ولدينا مجموعات من الدراهم والدنانير عليها كتابات بلغتين ، العربية والقهلوية أو العربية واليونانية (٢). وعلى هذه الشاكلة كانت الدراهم التي ضربها عمر بن الخطاب سنة ١٨ هـ / ٦٣٨ م على نقش السكسروية وشكلها مع زيادة كتابات عربية (٣).

وكانت النقود تضرب في الحجاز ، ثم سمح للولاة بضربها في مراكز ولاياتهم. وما انتهت سنة أربع وعشرين للهجرة حتى كان لكل منهم داراً للضرب في مقر ولايته (٤).

ولم يحدث الأمويون الأولون تغييرات تذكر في النقود. ف ضرب معاوية الأول (٦٦١ هـ / ٦٨٠ م) دنانير عليها صورته ويده سيف. وضرب دراهم وزن الواحد منها ستة دوانيق ، كما أصدر عامله على العراق دراهم وزن العشرة منها ستة مثاقيل (٥).

(١) أبو يعلى - الأحكام السلطانية من ١٥٨ ، المسعودي من ١٤٩ ، R. N. 1908, p. 214 ، المقريزي - شذور من ٣ ، والبلاذري من ٤٧١ .

(٢) Cordington - a Manual of Musulman Numismatics; London 1904 p. 12. (٢)

وكتاب

Lavoix - Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale - Khalifes Orientaux (Paris 1932) pp. xli - xviii.

وكتاب

SORET : Eléments de la Numismatique Musulmane (Bâle et Genève 1868) p. 62-3.

وقد أصدر الأستاذ Walker مجلداً نفيساً يحتوي على صور الدراهم العربية والقهلوية الموجودة في المتحف البريطاني (لندن ١٩٤٠) .

(٣) المقريزي - شذور من ٢

Lavoix, O. C. p. 7 (٤)

(٥) المقريزي - شذور من ٤ ، و De Sacy - Al-Maqrizi = Traité des Monnaies Musulmanes, trad. par A.L.S. De Sacy. Paris 1797 p. 15 n. 27

وابن تفربردي - النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١١٣ .

وضرب مصعب بن الزبير عندما كان والياً لأخيه على العراق دراهم شرعية استمرت في الاستعمال حتى جمعها الحجاج وأذابها^(١).

وقد ميز الأستاذ (فلاسيك كيبو Velasquez Queipo) أربعة أنواع من الدراهم المتداولة إلى بدء خلافة عبد الملك (٦٥ هـ / ٦٨٣ م) :

- ١ - دراهم شرعية تتراوح أوزانها بين ٣٩٧ غم و ٣٢٧ غم .
- ٢ - دراهم يبلغ وزنها نصف وزن الدراهم الشرعية ، فيزن الواحد منها بين ١٨٢ غم و ١٩٠ غم (الوزن المقروض = $\frac{1}{4}$ ١٩٨ غم) .
- ٣ - دراهم وزن الواحد منها يساوي ٢٨٥ غم .
- ٤ - دراهم وزنها ٤٢٠ غم^(٢) .

ويتفق المؤرخون على أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) ، عرّب النقد ، ولكنهم يختلفون في تاريخ هذا الإصلاح الهام بين سنة ٥٧٤ هـ^(٣) ، وسنة ٥٧٥ هـ^(٤) ، وسنة ٧٦ هـ^(٥) . وقد توصل (لافوا Lavoix) بمقارنة المصادر العربية والبيزنطية وفهارس مجموعات النقود ، إلى أن إصلاح عبد الملك بدأ حوالي ٧٣ - ٧٤ هـ / ٦٩٢ - ٦٩٣ م^(٦) . وعلى كل فقد استمر ضرب النقود

(١) المقريري - شذور ص ٤ ، De Sacy, O.C. pp, 16-7 ، البستاني: دائرة المعارف ج ٧ ص ٦٧٠ .

(٢) Queipo, Don Velasquez - Essai sur les Systèmes métriques et monétaires des anciens peuples. 3 vols. (Paris 1895) vol. II pp. 288 - 299.

(٣) أبو يعلى ١٦٤ ، الماوردي ١٤٩ .

(٤) الديار بكري - تاريخ الخميس ، ج ٢ ص ٣١٠ ، السيوطي تاريخ الخلفاء ص ١٤٥ .

(٥) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٠-٢٣٧ ، الطبري سلسلة II ص ٩٣٨ ، السكيتي: فوات الوفيات ج ٢ ص ١٩ ، المقريري - شذور ص ٤ ، ابن تقيبردي ج ١ ص ٣٩٥-٦ ، المزاريعة

غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤١ ص ١٢٦ Hitti : Origins of the Islamic State : vol. II p. 262

(٦) Lavoix, p. xx and p. xxviii

بأشكالها القديمة عدة سنوات بعد هذا التاريخ ^(١).

ثم يعطي المؤرخون العرب تفاسير غير مقنعة لتعريب النقود ^(٢). والمرجح أنه كان جزءاً من سياسة عبد الملك التي استهدفت تعريب مؤسسات الدولة، كما أنه كان رمزاً للسيادة الكاملة للدولة. وقد أبقى هذا الخليفة وزن الدينار مثقالاً واحداً ^(٣)، ولكنه قسمه إلى عشرين وحدة متساوية (قيراط) ^(٤)، بدل «الاثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة»، وهو وزن الدينار في السابق. وبنفس الوقت استمرت نسبة العشرة دراهم إلى سبعة مثاقيل دون تغيير ^(٥). ولمنع الغش وضع صنجات الوزن، وهي أوزان معينة من الزجاج لوزن النقود الفضية والذهبية ^(٦). ثم أرسل عبد الملك نموذجاً من السكة (وهي حديدة منقوشة تضرب عليها النقود) إلى عامله على العراق الحجاج بن يوسف، وأمره بنشر الدراهم الجديدة في القسم الشرقي من

(١) Lavoix, p. xx - xxviii

(٢) المفريزي - شذور ص ٥، الديميري: حياة الحيوان ج ١ ص ٧٩-٨١، Lavoix, p. xxv
(٣) يقول Decourdemanche في 5-214 p. R.N. 1908 ان عبد الملك ابقى الدرهم الشرعي والمثقال على وضعهما، واخذ الدرهم الواقع الذي يزن «١٥» قيراطاً نموذجاً لديناره، والنقد البيزنطي الفضي المدعو بـ Solique of Consatntine والذي يزن عشرة قيراط او ٢٨٣ ¼ ثم نموذجاً لدرهمه.

(٤) يرى Blanchard في 41-336 pp. R.N. 1884 ان الوزن «اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة» كان جزءاً من الدينار البيزنطي (Sou) الذي كان يزن اربعة وعشرون قيراطاً، وان عبد الملك لم يرض بهذا الوزن لديناره ولذا جعل وزن المثقال مساوياً لوزن الدينار البيزنطي (Sou) ثم قسمه الى عشرين وحدة متساوية تدعى كل واحدة قيراطاً. فجعل وزن الدينار عشرين قيراطاً، ووزن الدرهم اربعة عشر قيراطاً وبذلك حافظ على النسبة ١٠ دراهم : سبعة مثاقيل. قارن: Hitti: Origins Vol II p. 267، المفريزي - شذور ص ٥

(٥) المفريزي - شذور ص ٤-٦، 34، 8-17، n. De Sacy-Traité p. 36 وايضاً p. 18،

الديميري، حياة الحيوان ج ١ ص ٧٩-٨١. كل قيراط = اربع حبات.

(٦) الديميري ج ١ ص ٨٠-١، المفريزي - اغانة الامة بكشف الغمة ص ٤٤

الامبراطورية ، وبمنع تداول الدراهم السابقة ، وباقتناع الناس بجلب تلك الدراهم إلى دار الضرب لطبعها من جديد ^(١) .

ثم اقتفى الخلفاء بعد عبد الملك أثره ، ولكنهم تشددوا في محبة الوزن وتخليص الفضة ، فضرب عمر بن هيرة والي العراق ليزيد الثاني (١٠١-١٠٥ هـ / ٧٢٠-٧٢٤ م) دراهم أجود من دراهم الحجاج ، وكانت دراهمه تدعى « الهيرية » . ثم زاد خالد القسري والي العراق (سنة ١٠٦ - ١٢٠ هـ) في تخليص الفضة ، بينما ذهب خلفه في الولاية يوسف بن عمر (١٢٠ - ١٢٦ هـ) أبعد منه في تخليصها والدقة في العيار ^(٢) . فكانت الدراهم الهيرية والخالدية واليوسفية أجود الدراهم الأموية ، ولم يكن المنصور يقبل غيرها في جباية الخراج ^(٣) . وأمر الخليفة هشام عامله القسري أن يبطل ضرب الدراهم بكل بلد إلا في واسط ففعل . ثم سار يوسف بن عمر على منواله ^(٤) .

وزال سلطان الأمويين ، وخلفهم العباسيون في الحكم ، فبدأوا بنقش أسمائهم على النقود بعد أن أهمل الأمويون ذلك ^(٥) . وكذلك أقصوا وزن الدرهم قليلا ، فضرب أبو العباس (١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤ م) الدراهم بالأنبار وقصها حبة واحدة ثم قصها حبتين . وفي خلافة المنصور أصبح النقص ثلاث حبات ^(٦) .

(١) المقرئ - شذور ص ٥

(٢) يقول الأستاذ الفاضل عباس العزاوي : « ان المقادير الخالصة في النقود من ذهب وفضة لها نسباً ثابتة ومعينة .. وذلك يسمى عياراً » . مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤١ ص ٢٢٧

(٣) المقرئ - شذور ص ٧ ، الماوردي ص ١٤٩ - ١٥٠ ، أبو يعلى ص ١٦٠ ، ص ١٦٥

(٤) المقرئ - اغانة الامة ص ٨٠ - ٩٠

(٥) انظر S. Lane Poole : The coins of the Eastern Khaleefahs in the British Museum « ed-R.S.P. » vol I « London 1875 » p. viii.

(٦) المقرئ - شذور ص ٨٠ ، انظر Lavoix p. xivii

واستمر وزن الدرهم على ما ذكر حتى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م حين بلغ النقص ثلاث حبات أثناء إشراف جعفر البرمكي على دار الضرب . ولكن الحال ساءت سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، إذ نقص وزن الدرهم قيراطا وحنة ونصف ، وصار التعامل بالدرهم بالوزن وحسب قيمتها الحقيقية ، ثم بطل استعمالها بالمرة ^(١) . وبعد مقتل جعفر البرمكي فوض أمر دار الضرب إلى السندي بن شاهك فاعتنى بتخليص الذهب والفضة في النقد وضرب الدراهم على العيار الصحيح ^(٢) .

وترك المنصور المقتل الشامي في عيار الدينار ، وضرب الدنانير الهاشمية ^(٣) ، وبلغ وزن الواحد منها مثقالا بصرياً .

وفي سنة ٥١٩١ هـ ، قصت الدنانير الهاشمية نصف حبة ولكنها بقيت تعتبر في التداول مناقيل كاملة ، ثم ضربت على الوزن التام بعد فترة قصيرة ^(٤) .

هكذا كان وضع النقود بصورة عامة حتى مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م . ويرى المقرئ أن استبداد الترك بعد ذلك الحادئ أضعف الدولة ، فظهر أثر ارتباكها المالي في تدهور العملة ^(٥) .

ولعل هذه المقدمة تزيد قليلا عما يتطلبه البحث ، ولكنها ضرورية لفهم

(١) المقرئ - شذور ص ٨

(٢) ن. م. ص ٨ ، المقرئ - إغانة الامة ص ٦٠-١

(٣) نسبة الى مدينة الهاشمية بجوار السكوفة ، وقد كانت عاصمة المنصور قبل انتقاله الى بغداد

(٤) المقرئ - شذور ص ٨٠ ولا بأس بالتنبيه الى سهو وقع في نص المقرئ الوارد في كتاب

« النقود العربية » وعلم النيات « لفاشره الاب السكرمي . جاء في الصحيفة ١٩ ص ٣ :

« لما كان شهر رجب سنة ١٩٢ هـ ، نقصت الدراهم الهاشمية نصف حبة » والصواب ، « فلما

كان شهر رجب سنة احدى وتسعين ومائة نقصت الدنانير الهاشمية نصف حبة » كما في

مخطوط المقرئ الذي نشر صورته (ماير) وهو مخطوط له قيمته لان المقرئ دققه بنفسه .

انظر طبعة التجف « ١٣٥٦ » ص ١٢ .

(٥) المقرئ - شذور ص ٩ .

شاكل العملة في القرن الرابع الهجري ، وخاصة واتنا لا تزال تقتصر إلى بحث شامل في هذا الموضوع ^(١) .

والآن أتحدث عن بعض هذه المشاكل لأنها تلعب دوراً هاماً في الحياة المالية في ذلك القرن .

١ - نظام النقر المزوج

كانت الدولة تتبع نظام المعدنين (Bimetallism) في القرن الرابع الهجري ، إذ كان أساس النظام النقدي الدينار الذهبي والدرهم الفضي . ولدينا بعض الحقائق التي تؤيد هذا الرأي .

(١) كانت المعاملات الرسمية تجري بالدرهم والدنانير معاً ^(٢) ، فلم يكن هناك حد للسكينة التي يمكن استعمالها من كل منهما ، بل كانت الظروف وحدها تحمي استعمال هذه أو تلك . ولقد أخطأ (فون كريمير Von Kremer) ^(٣) في اعتقاده بأن أساس النظام النقدي كان الذهب فقط ، لأنه استنتج ذلك من كون قائمة الوزير علي بن عيسى لدخل الدولة لسنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، تعطي الوارد بالدنانير ، وقد وافقه (فيشل Fischel) على رأيه دون تمحيص ^(٤) . ولكن الاستناد إلى تلك

(١) لقد حذفنا بعض التفاصيل الممتعة التي حصلنا عليها من مهابرس مجموعات النقود في المتاحف الكبرى فيما يتعلق بالنقوش والكتابات والالقاء على النقود ، وذلك لئلا نخرج عن موضوعنا الأصلي .

(٢) المتنوشي : نشوار الحضرة ، ج ١ ص ٢٦ ، الصاني ص ١١ ، ابن حوقل : المسالك والممالك باعتناء دي خويه « ليدن ١٨٧٠ » ١٤٤ ، ابن الانبرج ٨ ص ٤٢ و ص ٧٧ ، المقدسي : احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم ص ١٣٤٠ ، مسكويه : تجارب الامم ، ج ١ ص ١٨-٩ .

(٣) Von kremer Einnahembudget p. 6 off

(٤) Fischel-Jews in the Economic and Political life of Medieval Islam « London 1937 » p. 3

القائمة فقط لا يكفي خاصة ولدينا قوائم ومعاملات أخرى لنفس الفترة مقدرة بالدرهم .
فعندما ضمن السبكري ضرائب فارس وكرمان سنة ٢٩٧ هـ ، وعد أن يدفع للخزينة
ثلاثة عشر مليوناً من الدرهم ^(١) . ولما اتفق علي بن عيسى المذكور مع جبهين علي
فرض شهري دائم ، خصص مقدار القرض سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م بالدرهم ^(٢) . كما
أن قائمة عضد الدولة لموارد السواد كانت مقدرة بالدرهم ^(٣) .

(٢) ولو كانت الدولة تتبع قاعدة الذهب ، لحددت عدد الدرهم في الدينار
ولجعلت تلك النسبة ثابتة ، ولكن ذلك لم يحصل واستمرت نسبة الصرف في ارتفاع
وهبوط طيلة القرن الرابع الهجري .

(٣) وهناك بعض الأمثلة الدالة على أن قيمة الدينارين والدرهم كانت تتوقف
بالدرجة الأولى على تفاوتها . يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ،
أن ناصر الدولة « ضرب دنانير سماها البريزية عيارها خير من غيرها وكان الدينار
بعشرة دراهم . فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً » ^(٤) .

(٤) وكانت قيمة الدينار تعطى أحياناً بعدد ما يساويه من الدرهم ، بينما كانت
قيمة الدرهم تخصص أحياناً بنسبته إلى الدينار . فمثلاً يذكر ابن حوقل أن وارد برقعيد
(قرب الموصل) حوالي سنة ٣٥٧ هـ بلغ « الفا دينار قيمتها من الورق (الفضة)
٣٠٠٠٠ درهم » ^(٥) . ويروي مسكويه أن سعر بغلة أهديت إلى ابن العميد كان
ثلاثة آلاف درهم وتساوي مائتا دينار ^(٦) . وهذه الأمثلة تبين بوضوح أن نظام

(١) مسكويه ج ١ ص ١٨ - ٩

(٢) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ٨ ص ٢٦

(٣) المقدسي ص ١٣٣

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٨ - ٩ ، مسكويه ج ٢ ص ١٣١ م .

(٥) ابن حوقل (ك) ص ٢١٨ .

(٦) مسكويه ج ١ ص ٢٧٨ . انظر أيضاً : الصولي اخبار الرازي والمتقي بالله ص ١١٦ ،
الصافي ص ٢٨٤ .

العملة كان مزدوجاً في القرن الرابع الهجري .

ولكننا نلاحظ - مع وجود نظام المعدنين - شيوع استعمال إحدى العملتين في المعاملات في فترة ما أكثر من الأخرى . فكان استعمال الدرهم أعم من استعمال الدينار في العراق حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . فالجهمشاري يذكر ما خلفه المنصور يبيت المال مقدراً بالدرهم (٩٠٠ مليون درهم)^(١) . وفي قائمة خراج الدولة زمن الرشيد نرى أن وارد جميع الولايات الواقعة شرق سورية ومجموع الدخل مقدر بالدرهم^(٢) . وقائمة ابن خرداذبه تعطي خراج العراق مقدراً بالدرهم كذلك^(٣) . ويقول الجاحظ (المتوفي سنة ٨٦٩ م) : إن « الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحا الدنيا »^(٤) . كما أننا نجد في تاريخ هذه الفترة إشارات كثيرة إلى معاملات بالدينار^(٥) .

ولكن ما خلفه المعتضد (٢٨٩ هـ / ٩٠١ م) في بيت المال كان ستة عشر مليون دينار وثلاثة ملايين درهم^(٦) . وترك خلفه المسكني (٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م) أربعة عشر مليون دينار فقط^(٧) . وهكذا يظهر أن الدينار زاد تداوله بصورة تدريجية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري حتى أصبح استعماله أعم من الدرهم في أوائل القرن الرابع الهجري . فنجد أكثر حسابات الدولة ومعاملاتها في الفترة

(١) الجهمشاري - الوزراء والسكك من ١٥٨ .

(٢) ن . م . ص ٢٨١ وما بعدها .

(٣) ابن خرداذبه - المسالك والممالك ص ٨ - ١٤ .

(٤) الجاحظ - البخل ص ٢٦٨ .

(٥) الجهمشاري ص ١٠٠ ، ص ١٠٦ ، ص ١٥٤ ، ص ١٧٠ ، ص ١٨١ ، ص ١٨٢ ، ص ٢٢٣ .

(٦) العقد الفريد لابن عبد ربه (القاهرة ١٩١٣) ج ٢ ص ٥٨ .

(٧) مسكويه ج ١ ص ٢٣٨ .

بين (٢٩٥ - ٨٣٣٤ / ٩٠٨ - ٩٤٥ م) تجري بالدنانير ^(١) . ثم انعكس الوضع بعد تغلب البويهيين على العراق (سنة ٨٣٣٤ / ٩٤٥ م) ، وصار التعامل بالدرهم أعم ^(٢) .

ولعل سبب شيوع التعامل بأحدى العملتين في وقت ما يتعلق بتوفر الذهب أو الفضة آتئذ وقيمتها في السوق . ولكن النظام النقدي بقي مزدوجاً دائماً . ولا بأس أن نعزو سبب وجود نظام المعدنين إلى الظروف التاريخية . فقد كان الذهب أساس النظام النقدي في سورية ومصر وشمال أفريقيا منذ العصر البيزنطي ، بينما كانت الفضة الأساس في إيران والعراق منذ العهد الساساني ، فلما جاء الاسلام ترك العملتين على حالهما ، فبقيت منطقة الذهب إلى جنب منطقة الفضة . ولكن مركز الخلافة كان يتعامل بالاثنتين واعتبر الخلفاء كلاً من الذهب والفضة قاعدة للعملة .

٣- هل كان التعامل بالنقود بالوزن أم بالعملة ؟

هناك أخبار متفرقة تشير إلى أن طريقة الوزن كانت متبعة . يروي التنوخي أن أحد عمال الوقف طالب الخليفة المعتضد بإيجار أرض موقوفة أدخلت في قصره ، فقال له المعتضد : « فكيف حذقت بالنقد والوزن ؟ فقلت : أعرفها . قال : هاتوا ميزاناً . فجاءوا بميزان حراني حسن عليه حلية ذهب فأخرج من الصندوق دنانير عيناً

(١) أمثلة : قائمة نفقات المعتضد السنوية في الصابي من ٩١ - ٩٢ ، قائمة علي بن عيسى في *Kremer : Einnahmebudget* من ٢٧ وما بعدها ، قائمة دخل الخزينة الخاصة للمقتدر في مسكويه ج ١ من ٢٣٨ - ٢٤١ ، أمثلة رواتب في : الصابي من ١٣٩ ، مسكويه ج ٢ من ١٥٤ ، ١٥٩ ، الصولي من ٣٢٨ ، مسكويه ج ١ من ١١٠ ، من ٢٣٩ ، غريب - صلة الطبري من ٤٥ .

(٢) أمثلة : قائمة واردات السواد في عهد عضد الدولة في المقدسي من ١٣٣ ، مسكويه ج ٢ من ١١٤ ، أبو شعاع (نسخة مسكويه) من ١٣٦ ، من ١٧٣ ، من ٣٤٨ . أمثلة رواتب : مسكويه ج ٢ من ١٧٤ ، أبو شعاع من ١٦١ - ٦ .

فوزن منها أربعائة دينار وقبضتها»^(١). وورد في كشف الغمة في معرفة الأئمة ،
للاربطي ، أن رجلا معه صرة دنانير أراد شراء جارية ، ففكوا الصرة ووزنوا
الدنانير فإذا هي سبعون دينارا^(٢) . ولكن يجب أن نتذكر أن الدينار الصحيح
يزن مثقالا واحداً ، وهذا يجعل الوزن أسهل من العد ، خاصة إذا كانت الكمية
كبيرة . وأخيراً يقول المقدسي (٣٧٢ / ٩٨٢ م) ، في حديثه عن العراق :
« وقودهم بالوزن »^(٣) ، وقد يفهم من قوله أنهم كانوا يتعاملون بالوزن .

ولكنني أرى أن النقود كانت تؤخذ عادة بالعد . إذ كانت الرقابة شديدة على
عيار النقد والتأكد قوياً على أن يكون وزن النقود صحيحاً^(٤) . وكانت الحكومة
تتمنع الناس من التعامل بالنقود المكسورة . يروي سبط ابن الجوزي في حوادث سنة
٤٥٣ هـ « ورفع (الوزير) التعامل بالقراضه وكان ذلك قد أعيا الوزير قبله »^(٥) . كما
كان الفقهاء يحرمون التعامل بالنقود المثلومة ويعتبرون ذلك نوعاً من الربا لأن دافعها يربح
ربحاً غير مشروع حينما تؤخذ منه هذه النقود باعتبارها نقوداً جيدة^(٦) . ويقول
ابن الأثير في حوادث (سنة ٤٨٩ هـ) عن أحد الوعاظ : « وكان سبب منعه من
الوعظ أنه نهى أن يتعامل الناس ببيع القراضه بالصحيح »^(٧) .
فإن كانت النقود تؤخذ بالوزن لا بالعد لم تبق ضرورة لهذه التأكيدات . والذي
أراه هو أن أوزان النقود كانت معلومة وثابتة فكان التعامل بها عادة بالعد
وأحياناً بالوزن للسهولة .

(١) التتوخي : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٦ .

(٢) الاربطي - كشف الغمة في معرفة الأئمة (طهران ١٢٩٤ هـ) ص ٢٢٠ .

(٣) المقدسي ص ١٢٩ ، ملاحظة رقم ٤ .

(٤) رسائل الصائي (أبو اسحاق) ج ١ ص ١١٣ ، ص ١٤١ .

(٥) عن « العملة والمعاملة والقراضه » انظر : مصطفى جواد . مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٣٧٤ .

(٦) ن . م . ص ٣٧٦ .

(٧) ابن الأثير (القاهرة ١٣٠٣) ج ١ ص ٧٨ .

وكانت النقود توزن أحياناً لضرورات مختلفة . فمثلاً يتطلب تعيين مقدار الزكاة تقديرها على أساس الدينار الشرعي (ووزنه مثقال) ، والدرهم الشرعي (ووزنه أربعة عشر قيراطاً) وذلك بوزن الدراهم والدنانير التي تختلف أوزانها عن الأوزان الشرعية . وفي المعاملات بين بلاد تختلف نقودها في الوزن ، كان وزن النقود الشرعية هو العامل المشترك للتفاهم ^(١) . وكان من اللازم وزن النقود المسوحة أو المكسرة أو المثلومة قبل استلامها . ومع وجود التقييدات الكثيرة فإن قطع الدنانير كان معروفاً في العراق ^(٢) . وفي أوقات الضيق كانت الحكومة نفسها تسمح باستعمال النقود المسوحة . ففي (سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م) ، وقع غلاء فنادى الوزير « بأن يتعامل الناس بالغليظ من الدراهم والمسوح طلباً للرفق بهم » ^(٣) . ولكن مثل هذا كان شاذاً .

واستعمل العراقيون صنجات (أوزان) خاصة من الزجاج طبع عليها شكل الدرهم أو الدينار ونقوشه لتعيين أوزان النقود ^(٤) . وكان لونها أخضر غامقاً ^(٥) .

٤ - أسعار الصرف

لم يكن سعر صرف الدراهم بالدنانير ثابتاً ، بل كان في هبوط وصعود طيلة القرن الرابع الهجري . ولم يكن لذلك التغير اتجاه معين في النصف الأول من هذا القرن . ولكنه يشير إلى زيادة سعر الدينار زيادة واضحة في السنين الأخيرة .

(١) عباس المزاري - مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٦٢٤ - ٦ .

(٢) ابن خلدون (طبعة بولاق) ج ١ ص ٦٣٢ .

(٣) الصولي - اخبار الرازي والمتن بالله ص ٧١ .

(٤) عباس المزاري - تاريخ النقود العراقية - ٢ - مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ ص ٢٢٦ .

(٥) البارودي - صناعة الزجاج في مصر (القاهرة ١٩٠٨) ،

وفيما يلي جدول يبين بعض تلك الأسعار (١) :

السنة	عدد الدراهم في الدينار	المصدر
٩١٢/٥٣٠٠ م	١٥	التنوشي نشوار ج ٨ ص ٢٦
٩١٤/٥٣٠٢ م	١٥	الصابي - وزراء ص ٨٠-١
٩١٩/٥٣٠٧ م	١٤ ½	مسكويه ، ج ١ ص ٧١
٩٢٢/٥٣١٠ م	١١ ½	الصابي ، ص ٨٩
٩٢٧/٥٣١٥ م	١٥	قدامة - الخراج ص ٢٣٩
٩٢٧/٥٣١٥ م	١٦	مسكويه ، ج ١ ص ١٦٥
٩٣٣/٥٣٢١ م	١٤	ن . م . ج ١ ص ٢٧٣ - ٤
٩٤١/٥٣٣٠ م	١٠	(مسكويه ، ج ٢ ص ٣١ ،
٩٤١/٥٣٣٠ م	١٣	(للدينار الابريزي) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٨-٩
٩٤٣/٥٣٣٢ م	١٥	مسكويه ، ج ٢ ص ٥٤
٩٦٨/٥٣٥٨ م	١٥	ابن حوقل ، ص ٢١٨
٩٩٩/٥٣٩٠ م	٢٠	الصابي - التاريخ ص ٣٩٥
١٠٠١/٥٣٩٢ م	٢٥	(للدينار الصاحبي) الصابي ص ٤٦٨
١٠٠٢/٥٣٩٣ م	٤٠	(للدينار القاساني) الصابي ص ٤٨٤

وهناك عوامل متعددة أثرت على أسعار التبدیل ، منها :

(١) كان مقدار المعادن الرخيصة في النقود وأسعار الفضة والذهب في السوق

(١) في حياة الرسول (ص) كان الدينار = ١٢ درهماً Journal Asiatique 1879, VII p. 527
وفي خلافة عمر ، كان الدينار = ١٢ درهماً ، ابو يوسف - الخراج (القاهرة ١٣٥٢)
ص ١٨٥ ، وفي خلافة علي كان الدينار = ١٠ دراهم ، المسعودي - مروج الذهب ج ٥
ص ٣١٧ ، وفي خلافة هارون الرشيد كان الدينار = ٢٠ الى ٢٢ درهماً ، الجهمشباري ص ٢٨٨.

من العوامل الأساسية^(١) . ولكننا لا نعرف نسبة الخليط في النقود^(٢) ، ولذلك لا نستطيع تقدير أهمية هذا العامل .

(٢) ومع أن الأفطار الممتدة من مصر في الغرب إلى ما وراء النهر في الشرق خضعت لسلطة سياسية واحدة ، إلا أنها لم تصبح يوماً ما منطقة نقدية موحدة (Monetary Bloc) . فبينما كان نظام النقد مزدوجاً في أذربيجان والحبال وجرجان وطبرستان^(٣) والديلم والري ، كان فردي القاعدة في مصر في الغرب وكرمان وبخارى ومقاطعة فارس في الشرق . فكانت المقاطعات الثلاثة الأخيرة ضمن منطقة الفضة ، تتعامل بالدرهم وتعتبر الذهب نوعاً من البضاعة^(٤) .

أما مصر فكانت ضمن منطقة الذهب وتستعمل الفضة للحلّي والأثاث^(٥) . وكان العراق مركزاً للتبادل بين منطقة الفضة في الشرق ، ومنطقة الذهب في الغرب ، فأثر ذلك على أسعار الصرف فيه .

(٣) لم تكن قيمة الدينار العراقي مساوية دائماً لقيمة الدينار المصري . فمثلاً يبين المقرئ أن الدينار العراقي كان يساوي سنة (٩٧٢ م) ٨٠ ٪ من قيمة

(١) انظر : ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٨ - ٤٩ مسكويه ج ١ ص ٣١ .

(٢) يرى الفلقشندي - صبيح الأعشى (القاهرة - ١٩١٩ - ٢٢) أن النسبة في الدرهم الجيد هي : $\frac{1}{4}$ نحاس و $\frac{3}{4}$ فضة ، ويوافقه ابن فضل الله العمري (انظر ج ٣ ص ٤٦٧) ، بينما يرى ابن ماني - قوانين الدواوين (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ص ٢٥ ، أن النسبة الجيدة هي : $\frac{2}{3}$ نحاس و $\frac{1}{3}$ فضة .

(٣) ابن حوقل ص ٢٥٠ ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٧٠ . الاصطخري - المسالك ص ٢٠٨ .

(٤) الاصطخري ص ١٦٨ ، ص ٣١٤ ، ابن حوقل (B. G. A.) ص ٢٢٤ .

(٥) المقدسي ص ٢٠٤ . يقول المقرئ في (اغانة الأمة) ص ٦٢ : « أما مصر .. فإبرح نقدها المنسوب إلى قيم الأعمال وإيمان المبيعات الذهب خاصة » ، وفي ص ٦٤ « وإما الفضة فكانت بمصر تتخذ حلياً وأواني ، وقد يضرب منها الشيء للاملاط التي يحتاج إليها في اليوم لنفقات البيوت » .

الدينار المصري^(١) . كما كانت نسبة الدرهم للدينار تختلف أحيانا في العراق عنها في المقاطعات الايرانية . فمثلا كان الدينار سنة (٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) يساوي أربعة عشر درهما في العراق ، بينما كان يعادل خمسة عشر درهما في الري^(٢) .

ولابد من أن هذا العامل ، وحركة التجارة ، أثر على حركة النقود الذهبية والفضية بين العراق وجيرانه^(٣) . فمثلا استلم التاجر ابن الجصاص سنة (٣٩٦ هـ / ٩٠٨ م) مائة الف دينار من مصر^(٤) . ويذكر المقدسي « أن المصريين يكثررون التعامل (بالدنانير) الراضية ٠٠ » (نسبة إلى الخليفة الراضي)^(٥) .

أما ارتفاع سعر الدينار بسرعة في عهد الأمير بهاء الدولة البويهى (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ / ٩٨٩ - ١٠١٢ م) فيرجع إلى :

أ - تدهور سعر الدرهم لزيادة نسبة المعدن الرخيص فيه^(٦) .

ب - ونتيجة لتدهور الدرهم قلت كمية الدنانير في التداول ، فزاد ذلك في ارتفاع سعر الدينار^(٧) .

ج - وأثر فتح الفاطميين لمصر على حركة النقود^(٨) ، وذلك للعداء بين

(١) De Sacy — Chrestomathie Arabe, Paris 1806, Vol. II p. 130.

(٢) مسكويه ج ١ ص ٢٧٣ - ٤ و ص ٢٧٨ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٠٨ ، أبو شجاع ص ٦٠ - ٤ ،

Sauvage : Journal Asiatique 1880, XV p. 450

(٤) عريب ص ١٣٠ ، مسكويه ج ١ ص ٣٥ .

(٥) المقدسي ص ٢٠٤ . ويقول الفارشتدي (ج ٣ ص ٤٤٠) ، ولقوله قيمة وإن كانت في عصر متأخر : إن الدنانير المتداولة في مصر أما مضروبة أو واردة إليها « من المسكوكات في غيرها من الممالك » .

(٦) الصابي ص ٤٠٢ .

(٧) انظر الصابي ص ٤٠٢ .

(٨) يروي أبو شجاع قصة مهمة في هذا الصدد - عن مصري رفض أخذ درهم عضدي (نسبة إلى عضد الدولة) ومن عراقي سافر إلى مصر . فشكى العراقي ذلك إلى عضد الدولة بعد رجوعه . ولكن الأمير البويهى لم يستطع القيام بشيء . ص ٦٠ - ٤ .

العباسيين والفاطميين . ففي (سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م) ، منع الخليفة العباسي التعامل بالدنانير المصرية ^(١) . كما قل الذهب الوارد إلى العراق ، لأنه كان يستورد على الأغلب من مصر ، فلما زاد رخاء مصر في العصر الفاطمي صار أكثر الذهب يستعمل فيها ولا يبقى إلا القليل للتصدير .

٥ - الإشراف على دار الضرب

كانت دار الضرب تحت إشراف الخليفة والأمير البويهي وممثليهما بما فيهم القضاة ^(٢) ، وكانت الرقابة دقيقة خلال القسم الأكبر من القرن الرابع الهجري . ورد في عهد من الخليفة المطيع إلى الأمير ناصر الدولة الحمداني بتاريخ ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م « والى ولاية العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من كل خبث وتخليصهما من كل غش ودنس ، وضربهما على الامام (العيار) الذي يضرب عليه العين والورق بمدينة السلام ، ومنع التجار الذين يوردون الذهب والفضة إلى دار الضرب من تجاوز ذلك وتعديه ، وعقوبة من يخالف بما يوجب جرمه ويقتضيه » ^(٣) . وجاء في عهد الطائع بالله إلى الأمير البويهي فخر الدولة (سنة ٣٦٦) « والى والى العيار بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضرويين على البراءة من الغش والتهديب من اللبس ، وبحراسة السكك (ج . سكة) أن تتناولها الأيدي المدغلة » ^(٤) .

ويظهر أن دار الضرب ببغداد كانت تحتوي على عيار معين ثابت (يسمى الامام) لكل من الدراهم والدنانير .

وبعد أن شاع ضمان دار الضرب في العصر البويهي ، بقي الضامن تحت رقابة

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٠٨ .

(٢) كان القاضي التنوخي يشرف على إحدى دور الضرب - ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٠٢ .

(٣) رسائل الصابي ص ١٤١ .

(٤) ن . م . م ص ١١٣ .

حكومية دقيقة . فمثلا أمر معز الدولة البويهى بقتل رجل ضمن عمالة دار الضرب بسوق الأهواز لأنه « ضرب دنانير ردية » ^(١) .

ولكن الحكومة كانت تتلاعب أحيانا بالنقد ، وخاصة عند حصول الازمات المالية . ففي (سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) ، ضرب أمير الأمراء (بجكم) « دنانير وحشة وحمل عليها حملا كبيرا » أي أنه أكثر من نسبة المعدن الرخيص فيها ^(٢) . فولد عمله هذا بعض الاضطراب المالي . ثم جاء ناصر الدولة (سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) ، فحسن الوضع بتخليص ذهب الدنانير وضربها على عيار جيد . يقول الصولي : « وجرت بينه (ناصر الدولة) وبين الصيارف بمدينة السلام خطوط كثيرة في عيار الدنانير » ^(٣) . مما يدل على أن الصيارف كانوا يحبذون زيادة المعدن الرخيص في الدنانير ، وليس ذلك بعجيب لأنهم كانوا يأخذون الذهب والفضة من الناس إلى دار الضرب ، ويعطون أحبابها نقودا تساوي ما أخذوه في القيمة الاسمية ، فكانت زيادة الخليط تزيد في أرباحهم .

وفي أواخر هذا القرن تدهور الدرهم . يروي أبو شجاع أن تدهور النقد كان من أسباب شغب الديلم في (سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) ^(٤) . وفي (سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م) ، « تكلم الديلم في أمر النقد وفساده ، وكانت المعاملات يومئذ بالورق (الفضة) ، وقصدوا دار أبي نصر سابور (الوزير) ٠٠ على سبيل الشغب » ^(٥) . فسبب تدهور الدرهم أزمة مالية ، وارتفع سعر الدينار إلى درجة لا مثيل لها في القرن الرابع الهجري ^(٦) .

(١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٧٢ .

(٢) الصولي - اخبار ص ١٢٦ .

(٣) ن . م . ص ٢٢٩ .

(٤) أبو شجاع (ذيل مسكويه) ص ٢٥٠ .

(٥) الصابي ص ٤٠٢ .

(٦) الصابي ص ٣٩٥ ، ص ٤٦٨ ، ص ٤٨٤ .

٦ - النقود المتراولة

كان الناس يتعاملون بقطع نقدية هي أجزاء ومضاعفات الدرهم والدينار ، بالإضافة إلى وحدات النقد . ف ضرب العباسيون ، في القرن الثالث الهجري ، دنانير يساوي الواحد منها دينارين اعتياديين ، وعليها الكتابة الآتية : « ضرب (القصر) الحسيني لخريطة ^(١) أمير المؤمنين » . وكان الخلفاء يهبون هذه الدنانير للفقير ونحوهم ^(٢) . ويتكلم أبو القاسم البغدادى (سنة ٣٠٦ هـ) عن دنانير وزن الواحد منها مائة مثقال ^(٣) . ويروي ياقوت الحموي أن ناصر الدولة أرسل إلى أبي اسحاق الصابي « عشرة دنانير من دنانير الصلة ، وزنها خمسمائة مثقال » ^(٤) . وضرب سيف الدولة دنانير صلة وزن الواحد منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته ^(٥) . وأجاز ابن العميد ، الوزير البويهى المشهور ، أحد الشعراء بديراهم ودنانير ، قيمة كل منها خمسة أضعاف قيمة النقود الاعتيادية ^(٦) . وضرب المقتدر ومعز الدولة وعضد الدولة دراهم وزن الواحد منها درهمين ^(٧) .

وتوجد إشارات إلى نقود تذكارية (Medals) . فلما عهد الأمين إلى ابنه

(١) الخريطة هي الخريطة الخامسة Dozy — Supplément aux Dictionnaires Arabes (Leyden 1881) Vol I p 363. و (كرم) في الكتاب المشار إليه سابقاً ص ٥٣ .

(٢) المقرئى - أغانة الأمة ص ٦٠ . وضرب جعفر البرمكى دنانير « وزن كل دينار مائة دينار ودنانير » و « كانت يفرقها على الناس في التبروز والمهرجان » . الجبشيارى ص ٢٤١ ، المقرئى - أغانة الأمة ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) حكاية ابن القاسم البغدادى باعثناء من (هيدلبرج) ص ٦٨ .

(٤) ياقوت - معجم الأدباء ج ١ ص ٣٢٩ .

(٥) الثعالى - بقيمة الدرهم ج ١ ص ١٢ .

(٦) ن ٢٠ ج ٢ ص ١٢٦ .

(٧) غالب - تقويم مسكوكات قديمة اسلامية (اسطنبول ١٣١٢ هـ) ص ٣٤٨ ، ص ٣٤٦ ،

ص ٣٣٤ ، (لاوا) ص ٣٠٠ .

موسى « ضرب الدنانير والدرام باسمه ، وجعل زنة كل واحد عشرة ونقش عليه :

كل عز ومفخر
فلموسى المظفر
ملك خص ذكره في الكتاب المسطر^(١)

وفي (سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ، ضرب الرازي درام تذكارية زنة كل منها خمسة دراهم اعتيادية^(٢) .

أما أنصاف وأرباع الدرام والدنانير ، فكانت كثيرة في الاستعمال^(٣) ، حتى يفهم من التنوخي أنه كان لدى أبي القاسم عشرون ألفاً من أنصاف الدرام^(٤) .
وتحتوي مجموعات النقود إشارات كثيرة إلى أنصاف وأرباع دراهم ودنانير . فمثلاً ورد في فهرس « نقود الخلفاء في المتحف البريطاني » (ص ١٣٤) وصف ربع دينار . ومثله في صحيفة ١٤٠^(٥) ، وفي « ملحق » هذا الفهرس (ص ٧٥) وصف نصف دينار^(٦) ، وفي « مجلة النقود » لسنة ١٨٨٣ (ص ٢٣٢) وصف نصف دينار^(٧) ، وفي فهرس « نقود المكتبة الأهلية بباريس » (ص ٢٨٢) وصف ربع دينار ، وفي (ص ٣٢٠) وصف نصف دينار . وفي فهرس « المسكوكات الإسلامية القديمة في استانبول » (ص ٢٢٣) وصف نصف درهم^(٨) . وفي « مجلة النقود » لسنة ١٨٨٣ (ص ٢٥٧) وصف نصف درهم ، وفي نفس المجلة لسنة ١٩١٩ (ص ١٩٨) وصف

(١) المقرئري - شذور ص ٨ - ٩ .

(٢) S. Lane — Poole : (B. M. add.) Additions to the Oriental collection in the British Museum (London 1889 — 90) p. 82 .

(٣) الجاحظ - البخل ص ١٢٣ - ٤ .

(٤) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ١ ص ١٤٧ .

(٥) Lane — Poole : the coins of the Eastern Khaleefehs in the British Museum (Vol. I, London 1875) .

(٦) انظر ملاحظة رقم ١٠ .

(٧) The Numismatic Chronicle = N. C.

(٨) انظر ملاحظة رقم ٨ .

ربع دينار ، وفي فهرس « نقود الدول الإسلامية » في المتحف البريطاني (ص ٢٠٢)
وصف نصف درهم ^(١) الخ .

واستعمل الناس للمشتريات الرخيصة أجزاء الدرهم كالتبراط والحبة والدانق
والطسوج ، وهذه أوزان من الفضة مقدارها كيلي :

الدانق = سدس الدرهم الشرعي = فيراطان وثلاث من الفضة = عشر
حبات = ٤ طساسيج ^(٢) .

وكانت الفلوس (ج . فلس) النحاسية تستعمل أيضاً ، وكانت الأربعة فلوس
تساوي طسوجاً واحداً في حياة الجاحظ ^(٣) . وبين المقرئ أن سبب ضرب الفلوس
هو وجود « محقرات » في المبيعات « تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه » . فكان
الخلفاء « يجعلون بازاء هذه المحقرات نحاساً يضربون اليسير منه قطعاً صغاراً تسميها
العرب فلوساً لشراء ذلك » . ويذكر أنه « لا يكاد يوجد من هذه الفلوس إلا التز
اليسير » . وبين أنها لم تكن تسمى « نقداً » وأنها « لم تقم أبداً في هذه الاقاليم
بمنزلة أحد النقدين قط » ^(٤) .

وكان الخبز يستعمل أحياناً عملة في بغداد ^(٥) . يقول المقرئ : « ولقد كان
ببغداد التي أربت عمارتها على عامة الأمصار يجعل بازاء غالب المبيعات عوضاً منها
الخبز » . ثم يشرح ذلك برسالة الشيخ الرئيس أبي القاسم بن أبي زيد الذي زار

(١) Lane. — Poole : The coins of the Mohammedan
Dynasties (M. D.) in the British Museum, classes III — X « London 1876 » .
(٢) Numismatic chronicle 3 rd Ser. IV , 1884 pp. 77 — 8 « الجاحظ — البخله
ص ٥٨ — ٩ و ص ١٩٣ ، الخوارزمي — مفاتيح العلوم باعتناء فلوتن (ليدن ١٨٩٥)
ص ٦٢ — ٣ .

(٣) الجاحظ — البخله ص ١٩٧ ، ص ٥٨ — ٩ ، ص ٢٠١ .

(٤) المقرئ — اغانة الأمة ص ٦٦ — ٧ .

(٥) انظر الجاحظ — البخله ص ١٩٧ .

بفقداد في (سنة بضع واربعائة) ، ويقول : « ويتعاملون به (الخبز) في الأسواق وقيمونه مقام الدرهم في الانفاق وينتقدونه فقداً قد اصطالحوا عليه ، وجعلوا لذلك قانوناً يرجعون اليه ، فيردون المثلوم والمكرج (وهو الذي فسد وعلته خضرة) كما يرد الدرهم الزائف والدينار المبهرج ، ويشترون به أكثر المأكولات والمشروبات ، ويدخلون به الحمامات ، يأخذونه النباذ والحجار ، ولا يرده البزاز ولا العطار » . ثم يبين سعر الرغيف قائلاً : « ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين (رغيفاً) بقيراط » ^(١) . ولعل الإشارة هنا إلى قيراط الذهب الذي يساوي جزء من عشرين من الدينار ، فتكون قيمة ستين رغيفاً تساوي درهماً أو درهين .

٧ - النقود الجيدة والردئية

وتصنف النقود إلى جيدة وردئية . فالجيدة تضرب على عيار صحيح من فضة أو ذهب نقي نسبياً . ويصف الجاحظ الدنانير الجيدة بـ « مثاقيل وازنة جياد » ^(٢) ، أي أنها من ذهب خالص ووزن الواحد منها مثقال . ويقول في محل آخر : « وخير الدنانير ، العتق الحمر إلى الخضرة » ^(٣) . وتدعى الدراهم الجيدة بالدراهم النقرة ^(٤) . أما النقود الردئية فهي أنواع متعددة منها :

أ - الزيف (ج. زيف) وهي الدراهم التي تكون نسبة المعدن الرخيص فيها كبيرة . وكانت الزيوف تقبل بقيمتها الذاتية في المعاملات التجارية فقط ، ولا تقبلها الحكومة في معاملاتها أو جبايتها البتة ^(٥) ، بل كانت تعاقب عليها مما يدل على أنها

(١) اغانة الأمة ص ٦٧ - ٨ .

(٢) الجاحظ - البخله ص ٦٥ .

(٣) الجاحظ - التبعثر بالتجارة (دمشق ١٩٣٣) ص ٨ .

(٤) القافشندي - صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٥) حاشية كتاب اغانة الأمة ص ٦٢ ، انظر الكرملي ص ٤٥٠ .

من صنع المدالسين ^(١) . ويؤكد الفقهاء على ضرورة اخبار مستلم هذه الدراهم عنها ليكون على بصيرة من أمره .

البهرجة أو النهرجة ، وهي نقود يكثر فيها المعدن الرخيص . ويقصد بها الدنانير الرديئة على الأكثر ، وإن كان يقصد بها الدراهم أحياناً ^(٢) . ويقول الجاحظ : إنه يمكن معرفة الدينار النهرج بمخفته وثقله ^(٣) . ويقول (Sauvair) : إن النهرجة « هي التي لم تضرب بدار الضرب » . ويعتقد أنها لم تكن مقبولة في معاملات الحكومات والأفراد ^(٤) . ولكنني أرى أن الدراهم والدنانير البهرجة كانت تضرب في دار الضرب في بعض الأحيان . فأثير الأمراء (بجكم) ضرب « دنانير وحشة وحمل عليها حملاً كثيراً » ^(٥) . ويروي المؤرخ الارمني (Asolik de Tarôn) اسولك التروني أن عضدا الدولة ضرب دراهم مخلوطة بنحاس ورصاص فلم يقبلها التجار في السوق ^(٦) . ويفهم من الجاحظ أن الدولة كانت تأخذ النهرجة ، بينما كان التجار يرفضونها ^(٧) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان (القاهرة سنة ١٩٠١) ص ٤٧٥ .

(٢) المقرئ - اغانة الامة ص ٥٧ - ٨ ، الجاحظ - البخل ص ١٣٤ ، الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٨ ، لسان العرب ج ٣ ص ٣٩ ،

(٣) الجاحظ - التبصر بالتجارة ص ٨ .

(٤) حاشية ص ٦٢ من كتاب اغانة الامة . كتب (سوفير) مقالات ضافية عن النقود الاسلامية في مجلة Journal Numismatique حيث قرأتها . ثم نشرها في مجلدين بعنوان :
Sauvair - Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique
et de la Métrologie Musulmanes. 2 vols. « Paris 1872 , 1885 » .

(٥) الصولي - اخبار ص ١٣٦ .

(٦) E. Asolik de Tarôn, II ème partie, B. III p. 67 . ويضيف هذا المؤرخ ان عضد الدولة غضب وأمر بكتابة اسمه على قطع من الفخار والنحاس واعطاها الى بعض رجاله لشراء ملابس ومؤن من السوق ، فلم يجرأ احد على ردها . ولكن عدم ورود هذه القصة في أي مصدر عربي يحمل على الاعتقاد بأن هذه المحاولة كانت وقتية .

(٧) الجاحظ - البخل ص ١٣٣ - ٤ ، انظر الكرمي ص ٥٠ م ٤ .

ب - السُّتُوقَة - وهي دراهم تصنع من نحاس وتغطي بطبقة من الفضة . يذكر ابن الأثير في حوادث (سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) ، أن الاصفهر أمير العرب اعترض الحجاج وقال : « إن الدرام التي أرسلها السلطان عام أول كانت قرة مطلية وأريد العوض عنها » (١) . ولا تعتبر الستوقة من جملة الدراهم لأن مقدار النحاس فيها أكثر من الفضة (٢) .

ج - القراضة والمثلومة - والقراضة هي دنانير مكسرة أو مفتتة . يقول الجاحظ عن أحد التجار : « وإن كانت (الدنانير) أرباعاً وأنصافاً دفعها قراضة مفتتة » ، ويقول عنه إنه كان « يقطع » الدنانير (٣) . ويقول ابن خلكان : « والمثلوم عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة » . ثم يستطرد « وقد جرت عادتهم في العراق وتلك البلاد أن يفعلوا مثل ذلك لأنهم يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونهم القراضة ، ويتعاملون أيضاً بالثلوم وهو كثير الوجود بأيديهم في معاملاتهم » (٤) . وتذكر ابن جبير (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) من أن أهل العراق يقرضون الدنانير (٥) .

د - كما أن النقود المسوحة كانت تعتبر غير جيدة لأن قيمتها الذاتية تقل عن قيمة النقود الجديدة (٦) . وقد تكون مقاديرها كبيرة في التداول . ففي سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، تضر ابن أبي الساج من أن محمد بن خلف أرسل اليه « اثنين وأربعين ألف درهم ، غلة ردية » وأنه يخسر كثيراً في صرفها (٧) .

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٧٤ .

(٢) انظر Sauvage — J. A. VIII Série, 1880, XIV pp. 456 ff الجاحظ : البخل .

ص ١٧٣ - ٤٤ والسكرملي ص ١٤٧ ، ص ٥٠ م ٤ .

(٣) الجاحظ - البخل . ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان (بولاق) ج ١ ص ٦٣٢ .

(٥) ابن جبير (الرحلة) ص ٢١٨ وترجع هذه الاشارة الى القرن الثاني عشر والتي - بقيتها الى

الثالث عشر الميلادي وليكنهما ذكرنا للتوضيح .

(٦) الصولي - اخبار ص ٧١ .

(٧) مسكويه ج ١ ص ١٧١ .

ولم يجز الفقهاء دفع النقود الرديئة ولا مكسور الدراهم والدنانير في الخراج ^(١) .
أما الأفراد فكانوا مختارين في أخذها أو ردها . يروي التنوخي أن ضامن عمالة
دار الضرب بسوق الأهواز « ضرب دنانير ردية . فأفندھا الى البصرة ليشتري
بھا الدواب (والبريدون إذ ذاك بھا) فلم تؤخذ لشدة فسادھا » ^(٢) . وقد تقبل
النقود الرديئة ولكن بقيمة تقل عن قيمة « المضروب الصحيح » ^(٣) .

٨ - وتوجد دور للضرب في العاصمة وفي المدن الهامة ^(٤) ، وكان ضرب النقود
من امتياز الخليفة أو ممثليه . يقول أبو يعلى ، عن أحمد بن حنبل : « لا يصلح ضرب
الدراهم إلا في دار الضرب باذن السلطان ، لأن الناس إن رخص لهم ركبوا
العظام » ^(٥) . ويرى الماوردي أن يتعامل الناس بالنقد المطبوع « بالسكة السلطانية
الموثوق بسلامة طبعه ، المأمون من تبديله وتليسه » ^(٦) .

ولكن دار الضرب كانت مفتوحة للجميع ، ويحق لكل فرد أن يأتي بالذهب
أو الفضة لتضرب له ^(٧) . وكان التجار والصرافون ، في القرن الرابع الهجري ،
يتوسطون بين الناس وبين دار الضرب ، فيأخذون من الناس المعادن الثمينة ويعطونهم
ما يساويها في القيمة الاسمية من النقود ^(٨) . وكانت الحكومة تأخذ أجراً بسيطاً على
ضرب النقود ، يسمى « ثمن الحطب وأجر الضراب » ^(٩) . وقد جعله عبد الملك درهماً

(١) أبو يعلى من ١٦٦ .

(٢) التنوخي - نشوار المخاضرة ج ١ ص ٧٢ .

(٣) الماوردي من ١٥٠ - ١٠١ ، مسكوبه ج ١ ص ١٧١ .

(٤) انظر جرجي زيدان - التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١١٣ .

(٥) أبو يعلى من ١٦٥ .

(٦) الماوردي من ١٥٠ .

(٧) أبو يعلى من ١٦٥ .

(٨) رسائل أبي إسحاق الصابي من ١١٣ و ١٤١ ، ابن الاخوة - معالم القرية في احكام

الحسبة من ٦٨ .

(٩) المقرئ - شذور من ٥ .

في كل مائة درهم^(١) . وتكون ضريبة دار الضرب أحد موارد الدولة في قائمة علي ابن عيسى ، حيث نجد أن دخل دار الضرب في بغداد وسامراء والبصرة وواسط والكوفة بلغ ٦٠٣٧٠ ديناراً في سنة واحدة^(٢) . فإذا فرضنا أن الضريبة كانت ١٪ مما يضرب ، بلغت قيمة النقود المضروبة للناس (٥٣٠٦) ٦٠٣٧٠٠٠ دينار . هذا بالإضافة الى ما تضربه الحكومة . وهذا يظهر قوة الحركة التجارية وضخامة كمية النقود في التداول^(٣) .

ويعتبر ضرب النقود خارج دار الضرب جريمة^(٤) . ففي سنة ٣٢٨ هـ ، عوقب رجل على هذه التهمة بالجلد والتشهير على جمل وطيف به في جانبي بغداد^(٥) . أما طريقة ضرب النقود فكانت كما يلي : ينق الذهب والفضة بالسبك عدة مرات . ثم تقطع منها قطع ذات وزن معين وتطرق لتأخذ شكلاً دائرياً . ثم تقطع القطع المستديرة بحديدة منقوشة تدعى « السكة »^(٦) .

-
- (١) يعتقد زيدان أن الضريبة كانت أحياناً تختلف باختلاف المدن . التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٢٣ .
 - (٢) انظر زيدان - التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١١٣ .
 - (٣) وهذه المناسبة تشير الى عادة خزن النقود في القرن الرابع الهجري ، ولا بد وانها انقصت السكيات المتداولة كثيراً .
 - (٤) ابو يعلى ص ١٦٧ ، البلاذري ص ٤٧٥ .
 - (٥) الصولي - اخبار ص ١٤٨ .
 - (٦) ابن خلدون (بولاق ١٢٨٤) المقدمة ص ١٠٣ - ٤ ، الماوردي ص ١٣٠ ، ابو يعلى ص ١٦٧ ، وعلق القريري على حاشية شذور العقود بخطه (في كتاب العين ، السكة حديدة تضرب عليها الدنانير والدرام) ص ٧ .

الفصل الثامن

مستوى المعيشة

اولاً - مقدمة .

ثانياً - الأسعار :

(أ) سنة ١٣٣٤ / ١٩٤٥ م حد فاصل بين فترتين . (ب) اسعار مواد متفرقة : قطعة ارض ، حجر طاحونة ، حمار ، حصان ، جل ، قطعة قاش ، قلوذج ، خس ، ابر ، جوارى . (ج) مهور : ٣٢٦ هـ - ابن طنج ، ابن رائق . ٣٣١ هـ ابن المتي . ٢٨٣ هـ خليفة . ٣٦٩ هـ الطائم . ٣٨٤ هـ القادر ، مهذب الدولة ، بهاء الدولة . (د) التمور : ٣١٣ هـ ، ٣٣١ هـ . (هـ) الرز : في سنة ٣٠٠ هـ ، سنة ٣٣٠ هـ .

(و) الحنطة والشعير والخبز : (١) الاسعار قبل سنة ٣٣٤ هـ : — (٣٠٧ هـ) سعر الحنطة المقرر ، سعر الخبز . (٣١٦ هـ) — السعر الاعتيادي للحنطة والشعير ، (٣٢٣ هـ) — سعر الخبز وسعر الطحين المقرر . (٣٢٩ هـ) — سعر الحنطة بالجملة ثم سعر الحنطة في المجاعة . (٣٣٠ هـ) : — غلاء ، مجاعة — سعر الحنطة والشعير والخبز والطحين . (٣٣٢ هـ) — غلاء ، سعر الطحين بنخالته (٣٣٤ هـ) — مقارنة بين سعر الحنطة والخبز وقت الغلاء وفي الاوقات الاعتيادية .

(٢) الاسعار بعد ٣٣٤ هـ : — (٣٣٨ هـ) — سعر الخبز في فترة وفرة . (٣٤٩ هـ) — غلاء ، سعر الحنطة والشعير . (٣٥٨ هـ) — سعر الحنطة . (٣٧٣ هـ) — مجاعة — سعر الحنطة والشعير . (٣٨٢ هـ) — ضعف الحاصل — سعر الخبز . (٣٨٣ هـ) — سعر الحنطة والطحين . (٣٩١ هـ) — السعر الاعتيادي للطحين بنخالته : سعره في الغلاء التالي (٣٩٧ هـ) ارتفاع السعر . (٣٩٨ هـ) — وفرة — سعر الحنطة .

(ز) استنتاجات . (ح) اسباب الغلاء .

ثالثاً - الدخل :

ملاحظات : (أ) دخل الخلفاء قبل سنة ٣٣٤ هـ وبمدها .

(ب) دخل الوزراء : (١) قبل سنة ٣٣٤ هـ : عبيد الله بن سليمان ، وزير المعتضد . ابن الفرات (١٩٦ - ١٩٩ هـ) . الخاقاني (٢٩٩ - ٣٠١ هـ) . الخصيني (٣١٣ - ٣١٥ هـ) . علي بن عيسى (٣١٥ هـ) . راتب الوزير (٣٢٤ هـ) . (٢) بعد سنة ٣٣٤ هـ . رواتب الوزراء البويهيين .

(ج) دخل الكتاب : (١) قبل سنة ٣٣٤ هـ : كاتب ديوان الازمة (٣٠٤ - ٣٠٦ هـ) ، كاتب ديوان المعطاء (٣٠٦ هـ) ، كاتب ديوان السواد : قبل سنة ٣١٥ هـ وبمدها ، كاتب

ديوان الضياع السلطانية (٥٣١٥) كاتب ديوان المشرق (٣١٥) ، كاتب ديوان
الازمة (٥٣١٩) .

(د) دخل الولاية : (١) قبل سنة ٥٣٣٤ ، الراسي (توفي ٥٣٠١) عامل على
جند يسابور والسوس ومادوايا ، المادرائي - عامل على مصر ، البريديون في ٥٣١١ عمال
واسط ، وفي ٣٢٤ عمال الأهواز ، عمال آخرون . (٢) بعد سنة ٥٣٣٤ : فسح المجال
لجمع التروة اكثر من قبل لضعف الحكومة المركزية ، قلة الدخل في حالة سيطرة الحكومة .
(هـ) دخل القضاء : راتب قاضي بغداد سنة ٥٣٨٩ ، رواتب قضاة في العصر البويهي
بعد سنة ٥٣٥٠ ، راتب التتوخي قاضي بغداد .

(و) دخل افراد الجيش : (١) زمن المقتدر ، رواتب الجند من الرجالة والفرسات
(٥٣١٧) ، راتب قائد الجيش . (٢) بعد سنة ٥٣٣٤ ، رواتب جند وقواد بدله سنة
٥٣٤٨ . رواتب متطوعة من العرب ، اقطاع جنود سنة ٥٣٨٧ ، رواتب قواد ٥٣٨٩ .
(ز) دخل العامة :

(١) اهل المدن : الدخل الذي يكتفي الرجل الواحد في اوائل القرن الرابع الهجري .
الدخل الذي يكتفي لعائلة متوسطة في اوائل القرن الرابع الهجري . دخل حارس حانوت
في سنة (٥٣٠١) . دخل باعة متجولين . دخل يكتفي عائلة عامل في اواخر القرن
الثاني للهجرة . اجور عامل زجاج . اجرة درس في النحو . اجرة محاسب حانوت . اجور
طبيب جوال لسلك شخص . اجور حارس .

(٢) دخل الفلاحين وتدهوره بعد سنة ٥٣٣٤ . خلاصة .

رابعا - الخدمات الاجتماعية للدولة :

(أ) قبل سنة ٥٣٣٤ : (١) ملاحظات . (٢) في خلافة المعتضد . (٣) في خلافة المقتدر
(٤) بعد المقتدر .

(ب) بعد سنة ٥٣٣٤ : (١) لا توجد خدمات اجتماعية قبل سنة ٥٣٦٩ . (٢) عصر
عضد الدولة (٣٦٩ - ٣٧٢) . (٣) فقدان الخدمات الاجتماعية بعد سنة ٥٣٧٢ .

خامسا - النفقات :

(أ) الخليفة : (١) قبل سنة ٣٣٤ - : نفقات بلاط المعتضد ، ترف المسكني ،
المقتدر ، الاقتصاد في النفقة بعد عصر المقتدر . (٢) لا ترف بعد سنة ٥٣٣٤ لقلّة النفقات .
(ب) الوزراء : (١) ابن الفرات (٢) علي بن عيسى (٣) حامد بن العباس (٤) الخصيبي
« ٣١٣ - ٣١٥ » (٥) ابن مقلة « ٣١٧ » ، البريدي ، ناصر الدولة .

(ج) الطبقة الوسطى : (١) كيف استفاد رجل من ارب ٣٠٠٠ دينار - اناؤه
وطعامه . (٢) كيف استفاد رجل من ٤٠٠٠ دينار - اناؤه وطعامه . (٣) طعام
الافطار لرجل من الطبقة المتوسطة .

(د) العمالة : (١) طعام فلاح (٢) اكلة بخيل في اواخر القرن الثالث الهجري
(٣) طعام ملاح (٤) طعام الفقراء (٥) طعام زاهد « ٣٨١ » (٦) طعام البدر .

سأدسا - عدم استقرار الملكية :

(أ) المصادرات : اسبابها وطرقها . (ب) مقارنة بين الفترتين (قبل سنة ٣٣٤ هـ وبعدها) . (ج) المصادرة هي المورد الرئيسي للدخل عند بعض الوزراء . (د) بعض نتائج المصادرة : (١) فساد بعض الموظفين (٢) محاولة اخفاء الثروة بتوديع النقود أو بدفنها وأثر ذلك . (هـ) لا توجد نسبة معينة للمصادرة . بعض الأمثلة . (و) بعض فوائد المصادرة . (ز) مصادرة غير الموظفين . (ح) قائمة المصادرات بين ٢٩٦ - ٣٨١ هـ / ٩٠٨ - ٩٩١ م مستخلصة من مسكويه . (ط) قائمة المصادرات التي عملها ابن الفرات سنة ٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤ م . استنتاجات عامة .

مسنوى الحبيشة

مقدمة :

تفويض مصادرها الأولية بالتفاصيل عن بذخ الوزراء ، وتurf التجار الأغنياء ، وحياة الموظفين الكبار ، وغيرهم من الثرين ، ولكن هذه المعلومات لا تعطي صورة صادقة للوضع في القرن الرابع الهجري ، لأنها لا تنورنا إلا عن حياة أقلية صغيرة . إذ أن حياة العامة التي تزرع الأرض ، وتشتغل بالحرف وفي السوق لا تقل أهمية عن حياة تلك الأقلية ، بل وقد تزيد . ومع هذا فإن مصادرها لا تعطي ما يستحق الذكر عن حياة الاكثرية ، اللهم إلا تلك التفت المبعثرة التي تساعدنا على القاء نظرة عابرة عليهم . وهذا ما سنحاوله هنا .

يمكننا أن نقسم المجتمع العباسي من الناحية الاقتصادية - في القرن الرابع الهجري - إلى ثلاث طبقات كبرى :

(١) العامة : وتشمل المسكينين ، والفلاحين ، وأهل الحرف والصناع والباعة المتجولين .

(٢) الطبقة المتوسطة : وتشمل عامة التجار ، والموظفين ، وأصحاب الملكيات الصغيرة من الأراضي .

(٣) طبقة الأغنياء : وعلى رأسها الخليفة وعائلته وأقرباؤه . ويدخل فيها كبار الموظفين كالوزراء ورؤساء الكتاب ، وكبار التجار كابن الجصاص . ولم تكن الخطوط التي تفصل بين هذه الطبقات واضحة تماماً ولا جامدة ، كما أنها لا تنطبق تماماً على المقاييس الاجتماعية التي كانت تهتم بالنسب والتقاليد الموروثة بصورة أكيدة . ويمكننا أن نقول بصورة تقريبية ، إن الناس كانوا يتدرجون في الملكية بالشكل التالي :

يعيش المعبد والمكدي على الصدقة في المسجد . ويليه الفقير الذي يمتلك داراً صغيرة ، ومتى تحسنت حاله اقتنى حماراً أو قارباً . ثم يتدرج الفرد إلى اقتناء قطعة أرض صغيرة ، وبلي ذلك امتلاك دار كبيرة وبعض الخدم ، وإذا كان الشخص يشتغل بالتجارة ، يوسع حينئذ حقل فعالياته التجارية - إلا أن امتلاك الأراضي كان مظهراً أساسياً لتحسن الحال . وكان وجود عدد قليل من الخدم علامة تميز الطبقة المتوسطة عن الفقيرة ، بينما كان امتلاك الدار الكبيرة والضياح فارقاً بين الطبقة الغنية والطبقة المتوسطة .

وكانت عناصر الغذاء الرئيسية محدودة وهي نباتية بالدرجة الأولى بالنسبة للاكثرية . وأولها الخنطة والشعير وما يصنع منها . ويدل على ذلك الاشارات المتكررة إلى أسعارها . وكانت التمور وافرة ، وتكون عنصر أهم في التغذية . وكان الرز يصحب أكثر الاكلات أو يدخل فيها . وكان اللحم والسمك مهمين جداً ، ويمكن للاكثرية الحصول على شيء منها . وهكذا يمكننا اعتبار المواد المذكورة أعمدة الغذاء الرئيسية .

ثانياً - الأسعار

« السمر تحت المنجل » (١)

نعطي مصادرنا - عرضاً - معلومات مبثورة عن أسعار بعض الحاجيات . ومع

أن هذه المعلومات لا تساعد على عمل سلم بالأسعار (Price index) إلا أنها تفيد في تكوين أساس متواضع لدراسة مستوى المعيشة ، ولمعرفة نصيب كل فئة من الناس من خيرات البلاد .

شهد القرن الرابع الهجري - رغم تقلص المملكة العباسية - توسعاً في التجارة ، ونمواً في الحياة المدنية ، وازدهاراً في المؤسسات المصرفية . وهذه عوامل تساعد على رفع مستوى المعيشة ، في المدن على الأقل . ومن ناحية أخرى كان ضعف الخلافة عاملاً مشبطاً للمشاريع الاقتصادية ، إضافة إلى أنه قلل وارد الدولة التي كانت المحور الأول للحياة الاقتصادية ^(١) .

ثم كان التغلب البويهي سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م دليل ظهور عصر جديد ، كانت له نتائج بعيدة في الحقل الاقتصادي . فقد انتهى ، على أثره ، ترف البلاط العباسي ، ولم تعوض القصور البويهية عنه في مجال الترف والأبهة ، وبذلك تقلص سوق التجار لحد كبير . وانتقلت الخزينة من الخليفة إلى البويهيين ^(٢) ، وأصبح صنف الموظفين من الغرباء غالباً ، بين تركي ودليمي . وأصبح الاتجاه الاقتصادي نحو الاقطاع ، كما يظهر من اعطاء البويهيين الاقطاعات بدل الرواتب للجند خاصة ^(٣) . ولما أصبحت الأرض بيد الجند الترك والدليم ، أدى ذلك إلى أن تستغل امكانيات البلاد الاقتصادية لفائدة غرباء لا صلة لهم بالوضع الاقتصادي في العراق ولا ادراك عندهم له ^(٤) . وتدهور النظام النقدي والصيرفي ، فليس لدينا ما يدل على وجود فعاليات صيرفية في العصر البويهي مما يدل على ضعف أهميتها . وكل هذه الاعتبارات تجعل سنة ٣٣٤ هـ خطأ مناسباً يفصل - إن جاز ذلك - بين فترتين .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٩

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٧٧ و ص ١٠٧

(٣) ن. م. ج ٢ ص ٩٦ - ١٠٠

(٤) ن. م. ج ٢ ص ٩٧ - ٩٩

ولنبدا الآن بذكر الأسعار ، ودليلنا فيها تلك المواد التي يتكرر ذكرها . ومع ذلك فذكر أسعار مواد أخرى لا يخلو من فائدة . وسنعرض الأسعار وفق السنين في القائمة التالية :

التاريخ	البضاعة ووصفها	دينار	درهم
١٣٠٣ هـ	ذراع أرض على ضفة دجلة في المواضع الرذلة من بغداد (١) .	١	
١٣٢٩ هـ	حمار (٢)	١٠	
١٣٥٠ هـ	رحى جيدة من الجزيرة (٣) .	٥٠	
١٣٨١ هـ	حصان أصيل لبجكور ، مولى سيف الدولة (٤) .	١٠٠٠	
١٤٤٣ هـ	جل في البصرة (٥) .	٣-٢	
١٣٠١ هـ	شفة قميص يرتديه القاضي	١٠٠	
١٣٠١ هـ	شفة قميص ودرّاعة تحته ، يرتديها علي بن عيسى (٦)	٢٠	
١٣٧٢ هـ	توب سقلاطوني من صنع بغداد (٧) .	٥	
	بطانة كرمانية تحفظ في انبوب قصب (٨) .	٢	
	جهاز كامل من الأثاث من صنع أرمينية يتألف من		
	عشر مسجاجيد مع ما يلزم من انخاخ ووسائد وبسط (٩) ،		٥٠٠٠

(١) الصابي - الوزراء ص ٢٨٧

(٢) ابن حوقل ص ٢٢٢

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٨٩

(٤) مسكويه ج ٣ ص ٢١٣

(٥) ناصر خسرو - سفرنامه (الافرنسية) ص ٢٢٢

(٦) الصابي - الوزراء ص ٣٢٧

(٧) مسكويه ج ٣ ص ٦٧

(٨) النعماني - لطائف المعارف ص ٧٢

(٩) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٠٣

السعر

التاريخ	البضاعة ووصفها	دينار	درهم
حوالي ٥٣٣٠	جامة لوزينج بفستق ، من نوع خاص ^(١)	٥	= (٥٠)
٥٣٤٥	خس ، سعر كل عشرين راس منه في بغداد ^(٢)	-	١
حوالي ٥٣٣٤	ثلاث - أربع ابر ^(٣)	-	١
حوالي ٥٣٠٠	ما طلبته جارية لليلة واحدة ^(٤)	٢	-
حوالي ٥٣٠٠	ثمن جارية مغنية لها مواهب فائقة ^(٥)	-	٣٠٠٠٠
حوالي ٥٣٠٠	جارية جميلة ، ولكن أقدامها كبيرة ^(٦)	٥٠٠٠	-
٥٣٢٦	أخذت جارية الجهشياري منه لقاء غرامة قدرها ^(٧)	١٥٠٠٠	-
حوالي ٥٣٣٠	مغنية ^(٨)	٣٠٠٠	-

مهور :

٥٣٢٦	أعطى ابن طنج خطيبته مهر آ قدره	٣٠٠٠٠	-
٥٣٢٦	قدم ابن رائق (أمير الجيش) مهر آ قدره ^(٩)	١٥٠٠٠	-
٥٣٣١	أعطى ابن المتقي مهر آ لابنه ناصر الدولة ^(١٠)	٤٦٠٠٠ = ٥٠٠٠٠٠	-

وبهذا يكون المهر الذي قدمه الأمير العباسي
يساوي ثلاثة أضعاف المهر الذي قدمه قائد الجيش .

(١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦١

(٢) ن . م . ج ١ ص ٦٥ - ٦

(٣) ن . م . ج ١ ص ٦١

(٤) حكاية أبي القاسم البغدادي ص ٧٣

(٥) ن . م . ص ٨٣

(٦) ن . م . ص ٧٥

(٧) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ١٠١

(٨) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٤٩

(٩) الصولي - اخبار الرازي والمتقي بالله ص ١٠١

(١٠) ن . م . ص ٢٣٤ وكان الدينار آنشد = ١٣ درهما .

التاريخ	البضاعة ووصفها	دينار	السعر
٥٣٨٢	المهر الذي قدمه الخليفة المعتضد لابنة خمارويه ^(١) ،	١٠٠٠٠٠٠	-
٥٣٦٩	أمهر الطائع ابنة عضد الدولة ^(٢) ،	١٠٠٠٠٠	-
٥٣٨٤	أمهر القادر ابنة بهاء الدولة ^(٣) ،	١٠٠٠٠٠	-
٥٣٨٤	أمهر مهذب الدولة (أمير البطيحة) ابنة بهاء الدولة	١٠٠٠٠٠	-
	وأمهر ابن بهاء الدولة ابنة مهذب الدولة ^(٤) .	١٠٠٠٠٠	-

التمور :

٥٣١٣	كان الرطب وافرآ في بغداد ، فيبيع كل ثمانية		
	أرطال بحبة ^(٥) ، أي كل ٢٤ رطلا	ب	-
٥٣٣١	التمر كثير في بغداد . فكان سعر الألف رطل		
	سبعة دنائير ^(٦) . فيكون سعر ١٤ رطلا	ب	-

الرز :

حوالي ٥٣٠٠	احتاج عامل الى المال ، فاضطر لبيع رزء قبل		
	الموسم ، كل كر ^(٧)	ب	-

(١) ابن الساعي - اخبار الخلفاء ص ٧٣ ، انظر الاربلي - التبر المسبوك ص ١٧٣

(٢) ابن العبري ص ٢٩٩

(٣) مسكويه ج ٣ ص ٢٥٤

(٤) نفس المصدر والصحيفة

(٥) مسكويه ج ١ ص ١٤٦ . كل دينار يساوي آنشد ١٢ درهماً و = ٣٦ حبة

(٦) الصولي - اخبار ص ٢١٦ . الدينار يساوي آنشد ١٠ درام

(٧) التنوخي - نشوار المخاضرة ج ٨ ص ٦٧

السعر	دينار	درهم	البضاعة ووصفها	التاريخ
	٣٠	-	السكر من الرز ببغداد	٣٣٠ - ٥١
(وهذا سعر عال ، لأننا ان جعلنا ربح التاجر ١٠٠ ٪ بالنسبة للسعر الأول ، فالزيادة سنة ٥٣٣٠ تبقى أكثر من ضعف السعر لسنة ٥٣٠٠)				
الحنطة والشعير :				
			على اثر غلاء فاحش في الأسعار ، تدخلت الحكومة ، فقررت أن يكون سعر « السكر المعدل » ، من الحنطة ، خمسين ديناراً ، أي أن سعر الرطل =	٥٣٠٧
١	-	-	وصار سعر الخبز ١٢ رطلاً ^(١)	
١	-	-	بـ	
حوالي ٥٣١٦ ثم السكر من الحنطة والسكر من الشعير يساوي عادة ستين ديناراً ^(٢) . ومن هذا يستنتج (دي خوية De Goeje) أن السعر الاعتيادي لسكر الحنطة = ٥٤٥ درهماً أو $\frac{1}{4}$ ٣٩ ديناراً . وسعر السكر من الشعير = ٣٥٥ درهماً أو $\frac{2}{4}$ ٢٣ ديناراً ^(٣) . وهكذا يكون سعر رطل الحنطة = ورطل الشعير =				
١٩	-	-		
٠٧١	-	-		

(١) ن . م . ج ٨ ص ٩٢

(٢) مقدمة ص ٢٣٩

(٣) B. G. A., F IV p 9

السعر	البضاعة ووصفها	التاريخ
درم		
٠٢٥	غلاء الأسعار ببغداد . سعر الرطل من الخبز ^(١) =	٥ ٣٢٣
	شغب في بغداد وفتنة لهذا الغلاء ، مما اضطر الوزير إلى	
٠٢٢	تحديد السعر للرطل من الطحين ^(٢) ،	
٠٢٥	سعر كر الخنطة = ٢٥ ديناراً ^(٣) ، فيكون سعر الرطل	٥ ٣٢٩
	مجاوعة في بغداد . سعر الكر من الخنطة = ١٣٠ ديناراً ^(٤) ،	نهاية ٥ ٣٢٩
٢٢٦	فيكون سعر الرطل من الخنطة = ٢٢٦ درهم . وفي نفس	
	الوقت انخفضت أسعار الأراضي والملابس ، حتى صار	
	يباع بدرهم ما كان يباع بدينار ^(٥) .	
	غلاء أعقبته مجاعة . فبلغ سعر كر الخنطة ٢١٠ دنانير ،	٥ ٣٣٠
٤٢	أي أن سعر الرطل =	
	ثم ارتفع سعر السكر إلى ٣١٧ ديناراً ^(٦) ، أي أن	
٦٢٣	سعر الرطل =	
٢٢٤	وكر الشعير يباع بـ ١٢٠ ديناراً ^(٧) ، أي أن سعر الرطل =	

- (١) الصولي - اخبار الرازي والمتني بالله من ٦١
 (٢) الصولي ، ن . م . من ٧١ يقول ان سعر المسكوك = ٣ درام . والمسكوك = ١٥ رطلا .
 انظر المقدسي من ١٢٩ ، والخوازمي - مفاتيح من ٤٣
 (٣) الصولي - اخبار من ١٤٨ . بيعت ٢٠٠ كر بـ ٥٠٠ دينار
 (٤) سبط ابن الجوزي ، امرأة الزمان ج ١٢ ورقة ١٠
 (٥) تاريخ الانطاكي من ٩٧
 (٦) ابن العربي - (ترجمة النص السرياني) من ١٦٢
 (٧) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١٤ أ

السعر	البضاعة ووصفها	التاريخ
درهم		
٠ر٤	سعر الطحين ، لكل رطل ^(١)	
٠ر٣	الخبز ^(٢)	
٢ر٤	ارتفاع في الأسعار . سعر رطل الطحين بنخالته ،	٥ ٣٣٢
٠ر٤	خبز هذا الطحين ، لكل رطل ^(٣) ،	
	تباين يسترعي الانتباه بين الأسعار الاعتيادية وأسعار	٥ ٣٣٤
	القلاء في بغداد في فترة كان الجانب الشرقي من	
	المدينة محاصراً .	
٠ر٢	سعر رطل الخبز في الجانب الغربي من بغداد	
١ر٢	» » » » الشرفي من بغداد ^(٤)	
	سعر ككر الحنطة في الجانب الشرقي = ٤٠٠ دينار ،	
١٢	فيكون سعر الرطل ^(٥)	
	رخاء .	٥ ٣٣٨
٠ر٠٥ =	سعر رطل الخبز ^(٦)	

(١) الصولي - اخبار الرضي والمتقي بالله ص ٢٢٥

(٢) يذكر ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٩٣ ان سعر اربعة ارطال = قيراطين و ١٤ قيراطاً = درهماً واحداً .

(٣) ن ٢٠٠ ج ٨ ص ٣١٩ . يذكر ابن الاثير ان سعر القفيز = ٦٠ درهماً

(٤) ن ٢٠٠ ج ٨ ص ٣٤٠

(٥) ابن العبري (الترجمة) ص ١٦٤ ، سبط ابن الجوزي سرآء الزمان ورقة ٢١ ب . وكان الخبز يباع كل رطل بـ ٠ر٠٩ . انظر تاريخ الانطاكي ص ١٠٤

(٦) ابن العبري ص ١٦٥ مسكويه ج ٢ ص ١٢٥

التاريخ	البضاعة ووصفها	السعر درهم
٥٣٤٩	ارتفاع السعر ، خاصة في الموصل . رطل الخنطة	٢ر٤ =
	رطل الشعير ^(١)	١ر٦ =
٥٣٥٨	ارتفاع السعر . سعر السكر من الخنطة = ٩٠	
	ديناراً ^(٢) . رطل الخنطة	٢ر٧ =
٥٣٧٣	غلاء ومجاعة .	
٨١١٦	كر الخنطة بـ ٤٠٨٠ درهماً ، فيكون سعر الرطل	=
٤ر٠٨	كر الشعير بـ ٢٠٤٠ درهماً ^(٣) ، فيكون سعر الرطل	=
٥٣٧٦	ارتفاع الأسعار ، أعقبه موجة هجرة من العراق ^(٤) .	
٥٣٨٣	غلاء في بغداد . سعر رطل الخبز	٤٠ =
٥٣٨٣	يستمر الغلاء . سعر رطل الطحين ^(٥)	١ر٠٨ =
	كر الخنطة = ٦٦٠٠ درهم . سعر الرطل ^(٦)	١٣ر٢ =
٥٣٩١	السعر الاعتيادي للطحين مع نخالته = ثلاثة دنانير مطيعة	
٠ر٢٥	لـ ٢٤٠ رطلا . فسعر الطحين غير المنخول لكل رطل	=

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٧

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٤٣ ، سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١٧٠ أ

(٣) ابن العبري (الترجمة) ص ١٧٦ ، يذكر سبط ابن الجوزي (ج ١٢ ورقة ١٩٧ أ) ان

سعر السكر من الخنطة = ٤٠٠٠ درهم ومن الشعير = ٢٠٠٠ درهم .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٥ ، ويضيف ابن الساعي الى ذلك أن عدداً كبيراً من الناس ماتوا .

تختصر اخبار الخلفاء ص ٨٥ - ٦

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٦

(٦) ن . م . ج ٩ ص ٧١ . يذكر مسكويه ج ٣ ص ٣٦٤ ان سعر الرطل من الطحين

= درهم واحد .

السعر

درهم

البضاعة ووصفها

التاريخ

وهذا السعر أقل من السعر سنة ٣٢٣ هـ . وبعد شهر ارتفع
السعر فبلغ لكل رطل (١) . وأعقب الغلاء مجاعة . ٠٤٠
ولكن سعر الطحين بنخلته سنة ٣٣٢ هـ كان أعلى (٢) ،
ومع ذلك لم تحصل مجاعة . وهذا يدل على أن السعر
الاعتيادي سنة ٣٩١ هـ كان بصورة عامة أقل منه سنة ٣٣٤ هـ .
٣٩٧ هـ غلت الأسعار ، وأدى ذلك إلى اضطرابات (٣) .
٣٩٨ هـ رخاء . فكان سعر كر الحنطة = ١٢ ديناراً (٤) .
٠٩٩ = سعر الرطل

نستنتج من الجدول المار الذكر ما يأتي :

- (١) كانت الأسعار المعتادة تميل للصعود في الفترة السابقة للتغلب البويهي .
- (٢) واتجهت الأسعار الاعتيادية إلى الهبوط في الفترة البويهية .
- (٣) تكررت فترات الغلاء سنة ٣٠٧ هـ ، ٣٢٣ هـ ، ٣٢٩ هـ ، ٣٣٠ هـ ، ٣٣٢ هـ ، ٣٣٤ هـ ، ٣٤٩ هـ ، ٣٥٨ هـ ، ٣٧٣ هـ ، ٣٧٩ هـ ، ٣٨٢ هـ - ٣٩١ هـ . ولكن هذه الفترات ، باستثناء سنة ٣٢٩ - ٣٣٠ هـ ، وسنة ٣٨٢ - ٣٩١ هـ كانت تدوم أقل من سنة .

ولم يكن ارتفاع الأسعار في صالح الموظفين أو الأجراء ، لأن راتبهم محدود .

(١) الصابي ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(٢) ويؤخذ بعين الاعتبار تدهور الدرهم . فقد بلغ سعره ٢٥ / ١ من الدينار سنة ٣٩١ هـ بينما كان ١٣ / ١ سنة ٣٣٢ هـ . انظر الصابي ص ٤٦٨ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٥ .

(٤) ابن العبري (الترجمة) ص ١٨٣ .

ولكن الارتفاع قد يكون في صالح التجار وأصحاب المهن الحرة (١). ويظهر أن
الادخار كان السبب الرئيسي للغلاء (٢). ويظهر ذلك بصورة واضحة سنة ٣٠٧ هـ،
حين أخرج حامد بن العباس - ضامن ضرائب السواد - بيع حاصله حتى ارتفعت
الأسعار في بغداد إلى درجة خطيرة. وقد اتخذ الخليفة الموقف، بتحديد الأسعار
وبأخذ سلسلة من التدابير الفعالة الأخرى. يقول مسكويه: «فتقدم المقتدر بالله بفتح
الدكاكين والبيوت التي لحامد والسيدة والأمراء وأولاد الخليفة والوجوه من أهل
الدولة، وبيع الخنطة بنقصان خمسة دنانير في الكر، وبيع الشعير بحسب ذلك،
وبمطالبة التجار والباعة أن يبيعوا بمثل هذا السعر. فسعر الكر المعدل بخمسين ديناراً،
وتقدم إلى الدقاقين بذلك فرضي العامة وسكنوا وانحل السعر» (٣).

ولكن كان من العسير التغلب على طمع التجار الخزانين (المدخرين). ففي سنة
٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م، حددت الأسعار، ولكن الإزمة اشتدت، وزاد ارتفاع الأسعار (٤).
وكانت قلة الأمطار كما في سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م (٥)، وتلف الزروع بتأثير
الجراد (٦)، تسبب قلة الحاصل والغلاء. وأكثر من ذلك ضرراً، الحروب الداخلية
التي كانت تؤدي إلى تخريب القنوات (٧)، وقطع المواصلات الداخلية (كما في سنة
٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) وتكوين شعور بعدم الاستقرار، مما يؤدي إلى حجز الانتاج
عن السوق (٨).

(١) مسكويه ج ١ ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) انظر المقرئ - اغانة الامة ص ١٣ - ١٤ و ص ١٧ - ١٨.

(٣) مسكويه ج ١ ص ٣٤ - ٥.

(٤) ابن الاثير ج ٨ ص ٤٤٣، سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ١٢ ورقة ١٧٠.

(٥) سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ١٢ ورقة ١١٠.

(٦) ابن العبري (الزجة الانكليزية) ص ١٠٨ و ص ٢٢٥ و ص ١٠٦.

(٧) انظر الصولي ص ١٠٨ و ص ٢٢٥ و ص ١٠٦.

(٨) انظر ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٠، الانطاكي ص ١٠٤، ابن العبري ص ١٦٤.

ثم أن سوء الجباية ، وتدهور نظام الري ^(١) ، كانت تثبط همه الزراعة وتقلل من فعاليتهم مما يؤدي إلى تقليل الانتاج ^(٢) .

ولم يكن للحكومة احتياط من الحاصل لتتخذ الناس من المجاعة . وكل ما كانت تستطيعه هو جلب القوات إلى الاماكن المبتلاة بالمجاعة من الخارج ^(٣) .

الدخل :

يمكننا ملاحظة ثلاثة أمور تتعلق بالدخل ، وهي :

أ - وجود تباين كبير في الدخل في القرن الرابع الهجري ، فهناك عدد قليل من أصحاب الدخل الكبير ، وطبقة متوسطة صغيرة ، في حين أن دخل العامة كان بسيطاً .

ب - لم يكن الشعور بالملكية الشخصية ، وما يتطلبه ذلك من احترام ملكية الغير ، راسخاً بصورة كافية كما يتضح من المصادرات الكثيرة .

ج - وقد أدى التغلب البويهي إلى اختلال نسب الدخل السابقة لذلك التغلب . ولتناقش الدخل ، مبتدئين من القمة . يذكر مسكويه ، استناداً إلى وثائق رسمية ، أن مقدار وارد بيت مال الخاصة (بيت مال الخليفة) خلال مدة خمس وعشرين سنة (٢٩٦ هـ - ٣٢٠ هـ) كان ٨٩٨٣٠٠٠٠ دينار ، صرف منها ١٧ مليون دينار لأغراض رسمية ، بينما صرف الباقي على نفقات البلاط ^(٤) . وهكذا بلغت نفقات البلاط ٢٨٨٠٠٠٠ دينار سنوياً أو ٢٤٠٠٠٠٠ دينار شهرياً . لذا فلا غرابة في حيرة الكتاب المعاصرين في وصف ترف البلاط .

(١) انظر الصولي ص ١٠٦ ، مسكويه ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) مسكويه ج ٢ ص ٩٦ - ١٠٠ مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٢ .

(٣) الصولي ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، مسكويه ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٤) مسكويه ج ١ ص ٢٤١ .

وفي سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، انتقلت السلطة للامير البويهي معز الدولة ، وصارت اليه الأموال فخصص للخليفة المستكفي راتباً قدره ٢٠٠٠ درهم يومياً ^(١) أو ٦٠٠٠٠٠ درهم شهرياً (= حوالي ٤٦٠٠ دينار شهرياً) . وفي نفس السنة خلع معز الدولة المستكفي وولى مكانه المطيع ، وأزال الراتب وخصص للخليفة اقطاعاً ^(٢) يبلغ وارده ٢٠٠٠٠٠ دينار سنوياً ^(٣) . وهكذا انخفض دخل الخليفة بعد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م إلى حوالي ٧ ٪ مما كان عليه في عصر المقتدر .

ويلى الخليفة في الثروة وزراءه . واليك أمثلة من دخل الوزراء :

السنة	الدخل دينار في السنة
٨٩٢ هـ / ١٢٧٩ م	راتب (عبيد الله بن سليمان) ، وزير المعتضد ١٢٠٠٠
٨٩٣ هـ / ١٢٨١ م	استبدل راتب عبيد الله بن سليمان باقطاع وارده ^(٤) ٢٠٠٠٠٠
٩٠٨ هـ / ١٢٩٦ م	وارد الضياع الخاصة (للعباس بن الحسن) وزير المكتفي ^(٥) ، ١٢٠٠٠٠
٩٠٨ هـ / ١١٠١ م	أعطى (ابن القرات) ، وزير المقتدر قصرآ خاصاً على دجلة ، مع عمارات مجاورة - وكلها تغطي مساحة قدرها ١٧٣٣٤٦ ذراعاً مربعاً . وكان دخله يشمل :
	وارده من الاقطاع الذي خصصه الخليفة له ٥٠٠٠٠٠

(١) مسكويه ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) وكانت تسمى « ضياع الخدمة » أي الضياع المخصصة لخدمة الخليفة .

(٣) مسكويه ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) الصابي - الوزراء ص ٢٠ .

(٥) مسكويه ج ١ ص ٢٣٩ .

السنة	الدخل
	دينار في السنة
	وراتبه وقدره ^(١)
٦٠.٠٠٠	
١١٠.٠٠٠	مجموع دخل ابن الفرات =
١.٠٠٠.٠٠٠ =	وكان دخله من ضياعه الخاصة ^(٢)
	وكان دخله من ضياعه الخاصة ، قبل أن
٨٠٠.٠٠٠ =	يصبح وزيراً ^(٣)
	٢٩٩-٥٣٠٠ / ٩١١-٩١٢ دخل (الوزير الحاقاني) :
٥٠.٠٠٠	من اقطاع الوزارة
٦٠.٠٠٠	وراتبه ^(٤)
١١٠.٠٠٠ =	مجموع الدخل
١١٠.٠٠٠ =	٣٠٠-٥٣٠٤ / ٩١٢-٩١٦ دخل الوزير علي بن عيسى ^(٥)
	وكان دخل (الخصيصي) من :
٦٠.٠٠٠	راتبه
١٥٤.٠٠٠	اقطاع الوزارة (حوالي) ^(٦)
٢١٤.٠٠٠	فيكون المجموع

(١) الصابي - الوزراء من ٢٣ .

(٢) هناك تفاوت في تقدير دخله من ضياعه الخاصة بين ٨٠٠.٠٠٠ دينار ، و ٢.٠٠٠.٠٠٠ دينار . ويظهر ان ١.٠٠٠.٠٠٠ دينار تقدير معتدل . انظر الصابي - الوزراء من ١٣٩ و من ٣٢٢ - ٤٣٠ عريب من ٣٢٢ مسكويه ج ١ من ٦٩ .

(٣) الصابي - الوزراء من ٣٢٣ و من ١٣٩ .

(٤) ن . م . من ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٥) ن . م . من ٢٨٢ .

(٦) مسكويه ج ١ من ١٥٤ .

السنة	الدخل
دينار في السنة	
٩٢٧/هـ ٣١٥ م	دخل (علي بن عيسى) في وزارته الثانية من :
	اقطاع الوزارة ١٧٠٠٠٠
	راتبه ^(١) ٨٤٠٠٠
	فيكون المجموع ٢٥٤٠٠٠
	دخله من ضياعه الخاصة ^(٢) ٥٠٠٠٠ =
	وكان دخله من ضياعه الخاصة وهو خارج الوزارة ^(٣) ٣٠٠٠٠
	وبالإضافة إلى ذلك كان لأبناء الوزراء رواتب خاصة . فمثلا كان ولد ابن الفرات الثلاثة يستلمون ١٨٠٠٠ دينار ^(٤) . وكان ولد الخاقاني ، وولد الخصبيني ، وولد ابن الفرات (سنة ٣١١ - ٣١٢ هـ) وولد علي بن عيسى يستلمون ٢٤٠٠٠ دينار في السنة ^(٥) . وكان الوزراء يستلمون هدايا من جهات مختلفة . فلما صار علي بن عيسى وزيراً سنة ٩٢٧/هـ ٣١٥ م ، أرسل اليه المقتدر هدية قيمتها ٢٠٠٠٠ دينار ^(٦) . وكان الولاة والموظفون الآخرون يرسلون هدايا إلى الوزراء ^(٧) .
	ثم نقصت رواتب الوزراء بعد سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م ، على اثر انتقال السلطة الحقيقية إلى أمير الأمراء . وأصبحت الادارة الحقيقية بيد كاتب أمير الأمراء ، وأصبح الوزير رئيساً صورياً .

(١) ن . م . ج ١ ص ١٥٩ .

(٢) ن . م . ج ١ ص ١١٠ .

(٣) الصابي - الوزراء ص ٣٢٢ .

(٤) ن . م . ص ٢٣ .

(٥) مسكويه ج ١ ص ١٥٤ ر ص ١٥٩ .

(٦) ن . م . ص ١٥١ .

(٧) مسكويه ج ١ ص ٢٣٥ ر ص ٤٤ ، الصابي - الوزراء ص ٩٢ .

السنة	الدخل
١٣٣١/٩٤٢ م	راتب (أحمد بن عبدالله الاصفهاني) ^(١) ٢٢٤٠٠
١٣٣٤/٩٤٥ م	وفي العصر البويهي ، خصص للوزراء اقطاع يقوم مقام الراتب ، ويبلغ وارده ^(٢) ٥٠٠٠٠
	وهكذا نقص دخل الوزير سنة ٣٣٤ بمقدار (٢٠٤٠٠٠)
	دينار سنوياً عن سنة ٩٢٧/١٣١٥ م أي بمقدار ٨٠٠٠٠٪ .
	وكانت رواتب رؤساء الدواوين عالية . واليك أمثلة منها :

السنة	الدخل
٣٠٤ - ٣٠٦ م	راتب كاتب (ديوان الازمة) ، مع رواتب موخني
٩١٦ - ٩١٨ م	ديوانه ، مع نفقات الورق ^(٣) ٧٠٠٠
١٣٠٦/٩١٨ م	راتب كاتب (ديوان العطاء) ^(٤) ١٨٠
١٣١٤/٩٢٦ م	راتب كاتب (ديوان السواد) ٥٠٠
	راتب كاتب (ديوان الضياع الخاصة والمستحدثة) ^(٥) ٢٠٠
	وحاول علي بن عيسى أن يقتصد في نفقات الدولة ،
	فانقص رواتب الموظفين سنة ١٣١٥/٩٢٧ م ، بنسبة
	النصف أو الثلث . وهكذا صار :

- (١) مسكويه ج ٢ ص ٢٣ ، الانطاكي ص ٩٣ .
 (٢) في سنة ١٣٥٧/٩٦٨ م عين عز الدولة ابا الفضل الشيرازي وزيراً له واقطعه اقطاعاً بخمسين ألف دينار على رسم الوزراء . مسكويه ج ٢ ص ٢٤٢ . وانظر ص ٢٤٦ .
 (٣) الصابي - الوزراء ص ٣١ .
 (٤) مسكويه ج ١ ص ٦٨ .
 (٥) الصابي - الوزراء ص ٣١٤ .

السنة	الدخل
١٣١٥ هـ / ٩٠٦ م	راتب كاتب (ديوان السواد)
	٣٣٣ ¼
» »	(ديوان المشرق) أوديان الولايات الشرقية
	١٠٠
» »	(ديوان الخاصة والمستعدة) ^(١)
	١٠٠
١٣١٩ هـ / ٩٣١ م	راتب كاتب ديوان اللازمة ورواتب موظفي ديوانه ^(٢)
	٢٧٠٠
ولم أجد إشارات إلى رواتب الكتاب في الفترة اليومية . وهذا أمر له معناه ،	
إذ أن سيادة العناصر العسكرية في تلك الفترة قلت من أهمية الكتاب ، وأغلقت	
أكثر الدواوين ^(٣) .	

وكان الولاة ، يحصلون - بطرق مشروعة وغير مشروعة - على واردات كبيرة .
واليك بعض الأمثلة :

السنة	دينار في السنة
١٣٠١ هـ / ٩١٣ م	ت (دخل الراسبي) عامل جند بسابور والسوس
	ومادرايا ^(٤) = ١٤٠٠.٠٠٠
١٣١٠ - ٣٠٠ هـ / ٩١٢ - ٩٢٢ م	راتب المادرائي (الحسين بن علي) ، ٣٦.٠٠٠
	ودخله من ضياعه الخاصة ، حوالي ^(٥) ٢٥٠.٠٠٠
	ودخله من المرافق ، ومما يأخذه لنفسه من الضرائب الحكومية ^(٦) ٦٦٠.٠٠٠

(١) الصابي - الوزراء من ٣١٤ .

(٢) مسكويه ج ص ٢٢٦ .

(٣) ن . م . ج ٢ ص ٩٧ - ١٠٠ .

(٤) عريب - صلة الطبري ص ٢٥ .

(٥) الصابي - الوزراء من ٣٢٠ - ٣٢١ . وخراج ضياعه يبلغ ١٠٠.٠٠٠ دينار سنوياً من ٨٦

(٦) جمع من المرافق وحدها ٢٠٠.٠٠٠ دينار في ثلاث سنوات . انظر مسكويه ج ١

ص ١٠٦ ، الصابي من ٨٦ و من ٣٢٠ - ٣٢١ .

الدخل
دينار في السنة

السنة

(دخل البريديين)

٨٣١١/٩٢٣ م الوارد من ضياع البريديين الخاصة ، حين كانوا

عمالا على واسط (١) ، ٣٠.٠٠٠

٣٢٤ - ٨٨ / ٩٣٥ - ٩ م دخل البريديين ، وكانوا عمال الأهواز ،

حوالي (٢) ٢٢٨٥.٠٠٠

٨٣٠٦ / ٩١٦ م أحد العمال يستلم من الوزير حامد بن العباس :

٣٦.٠٠٠

لمائته

١٥.٠٠٠

لنفقات خدمه (٣)

٦٠.٠٠٠

٨٣١٤ / ٩٢٦ م عامل منطقة الجبال ، يأخذ نفقات لمائته (٤)

وندر أن تجاوزت سلطة بغداد حدود العراق في العصر البويهي ، وإنما اقتصر
في الأغلب على العراق والأهواز . وأعطيت المقاطعات إلى المقرين المتنفذين من
الدبلة ، وإلى أصحاب الضمان ، الذين كان مهمهم جمع المال والاثراء على حساب الخزينة
والرعية . ولم تكن عليهم أية رقابة ، ولم يقدموا أي حساب بالدخل إلى الحكومة (٥) .
وهكذا كان للعمال من حرية التصرف ما لم يسبق له مثيل .

وكان عضدا للدولة ، هو الأمير البويهي الوحيد الذي فرض سلطته في الولايات .
وفي سنة ٨٣٦٤ / ٩٧٤ م ، عين ابن بقة والياً على واسط ونكربت وعكبرا

(١) مسكويه ج ١ ص ١١٠ .

(٢) ن . م . ج ١ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٣) الصابي - الوزراء ص ٦٠ .

(٤) مسكويه ج ١ ص ١٤٨ .

(٥) ن . م . ج ٢ ص ٩٨ - ٩٩ .

وعوانه ، واعطاه اقطاعاً وارده ٥٠٠٠٠٠ درهم (١) . وكان هذا الراتب أقل بكثير من رواتب العمال في الفترة السابقة للتغلب البويهى ، وهذا يدل على انخفاض رواتب العمال في العصر البويهى عن السابق ، حين تكون السيطرة للحكومة المركزية . واليك أمثلة من رواتب موظفين مدنيين آخرين :

الدخل	السنة
دينار في الشهر	
١٠٠	راتب محتسب بغداد (٢) م ٩٢٧ / ٥٣١٥
٥٠٠	رواتب قاضي بغداد ونائبه وأولادهما ، وعشرة من الفقهاء (٣) { ٥٢٨٩ - ٢٧٩ م ٨٩٢ - ٩٠١ م
١٣٣٣٤	رضي قاضي بغداد أن يدفع للامير البويهى ٢٠٠٠٠ درهم (٤) أو حوالي م ٩٦١ / ٥٣٥٠
—	وافق قاضي بغداد الجديد أن يتولى المنصب م ٩٦٣ / ٥٣٥٢
٦٠	دون راتب (٥) .
٦٠	راتب القاضي التنوخي (٦) م ٤٤٧ / ١٠٥٥

وهكذا يتبين أن رواتب الموظفين المدنيين انخفضت كثيراً في الفترة البويهية . ولا يستثنى من ذلك إلا نقيب الطالبين ، فإنه تحسن وضعه سياسياً واقتصادياً ، وذلك لتشجيع البويهيين . وقد بلغ وارد ضياعه - الواقعة غربي بغداد بين الفرات ودجلة -

(١) ن ٢٠٠ م ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٢) ن ٢٠٠ م ج ١ ص ٢١٧ .

(٣) الصابي - الوزراء ص ٢١ .

(٤) مسكويه ج ٢ ص ١٨٩ . والظاهر انه كان يعتمد على الغرامات .

(٥) ن ٢٠٠ م ج ٢ ص ١٩٦ .

(٦) ياقوت - معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٠٢ .

سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م ، مبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم^(١) .

وكان رجال الجيش يكونون طبقة هامة بين الموظفين . واليك أمثلة من رواتبهم :

السنة	دينار في الشهر
٢٩٦ - ٣٠٤ هـ	راتب كل من الفرسان في جيش المقتدر ^(٢) ١٢٠٥
٩٠٨ - ٩١٦ م	
٣٠٤ هـ / ٩١٦ م	خفض راتب الفارس الى ٤٠١٦
٣٠٤ هـ / ٩١٦ م	راتب كل واحد من فرقة الرجال المصافية يساوي ^(٣) ٤٠٧٥
٣١٧ هـ / ٩٢٩ م	راتب الفارس يساوي ٤١٦٦
» »	راتب الجندي من الرجال ^(٤) ٦

وهكذا كان الاتجاه ، قبل ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م نحو زيادة رواتب الجند ، وفي بعض الحالات نجح الجند في الحصول على الزيادة بالقوة والعنف^(٥) . ولكن يجب ملاحظة أن شهر العطاء كان في الغالب يتجاوز ثلاثين يوماً . فمثلا كان الفرسان يأخذون عطاءهم في كل ١٢٠ يوماً مرة واحدة^(٦) .

ولا توجد لدينا معلومات عن رواتب رؤساء الجند . إلا أن دخل قائد الجيش كان ضخماً ، وخصوصاً في الفترة بين ٣٢٤ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ - ٩٤٥ م . فمثلا

- (١) ابو شعاع (مسكويه ج ٣) ص ١٧٣ . يذكر ابو شعاع في ص ١٣٦ ان خراج ضياع الشريف كان ٢ ١/٢ مليون درهم سنوياً .
- (٢) كانت عدد الفرسان ١٢٠٠٠ وعطاؤهم ١٥٠٠٠٠٠ دينار شهرياً . عريب ص ١٤٢ ، مسكويه ج ١ ص ٤٣ .
- (٣) مسكويه ج ١ ص ٣٨ و ص ٥٠ .
- (٤) ن . م . ج ١ ص ١٨٤ ، عريب ص ١٤٢ .
- (٥) مسكويه ج ١ ص ٣٨ و ص ١٨٢ .
- (٦) انظر مسكويه ج ١ ص ١٦٦ ، الصابي - الوزراء ص ١٤ .

اعطيت ضياع أمير الأمراء توزون بالضمان سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م بمبلغ ١٣٠.٠٠٠ دينار في السنة ^(١). وكانت لبجكم ثروات طائلة ^(٢).
وازدادت رواتب الجند في الفترة البوهمية . واليك أمثلة منها :

السنة	دينار في الشهر
٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م	راتب غلام ديلبي ٢٠
	» نقيب ديلبي ^(٣) ٤٠
حوالي ٣٧١ هـ / ٩٨١ م	أعطى عضد الدولة لكل من المتطوعين العرب ^(٤) ٢٠-٤٠
٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م	وزعت ضياع واردها السنوي ١٠٠.٠٠٠ دينار على ٥٠٠ جندي ديلبي و ٣٠٠ جندي كردي ^(٥) . فاذا افترضنا المساواة بينهم ، كان راتب كل واحد منهم يبلغ حوالي ١٠
فاذا قارنا بين رواتب الجند في الفترة البوهمية ورواتب جند المقتدر ، وجدنا أن رواتب الأولين كانت حوالي ١٢٤ - ٤ أضعاف رواتب الآخرين ^(٦) .	
وفي سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ، شكى رؤساء جند نجر الدولة أن وارد اقطاعهم في منطقتي الري والجلال (أي غربي إيران) كان ٢٠.٠٠٠ - ٣٠.٠٠٠ درهم سنوياً ، في حين أن اقطاع الرؤساء الدليلة في خوزستان كان يغل ٢٠٠.٠٠٠ - ٣٠٠.٠٠٠ درهم سنوياً ^(٧) .	

(١) مسكويه ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) ن. م. ج ٢ ص ١١ .

(٣) ن. م. ج ٢ ص ١٧٤ .

(٤) التنوخي - نشوار الحاضر ج ١ ص ٢٧٤

(٥) مسكويه ج ٣ ص ٢٩٤ - ٥ .

(٦) لقد راينا مدة شهر العطاء في حساب رواتب جند المقتدر .

(٧) مسكويه ج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

والخلاصة فإن رواتب الجند زادت كثيراً في الفترة البويهية ، ولا يمكن اعتبار
نقص رواتب الموظفين المدنيين دليلاً على تنقيص الرواتب عامة .
ولنتحدث عن الطبقة العامة . ولدينا عنهم ننف نوردها هنا :
في سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ، أراد المعتضد إغراء لص ليعترف بسرقة ، فقال له :
« متى أقررت .. أجريت لك في كل شهر عشرة دنانير تكفيك لأكلك وشربك
وكسوتك وطيبك » ^(١) . ومعنى ذلك أن عشرة دنانير في الشهر كانت تكفي
الرجل الواحد ليعيش عيشة مقبولة .

ويذكر سبط ابن الجوزي أن فقيراً (ولد ٢٥٢ هـ) ، فكر بضمان مستقبل ابنه ،
فقرر أن يخصص له ديناراً في اليوم طيلة حياته ، لأن ذلك يكفي الرجل المتوسط
وعياله . كما أنه حفظ له مبلغاً يعادل ذلك للطوارئ ^(٢) . وهكذا نلاحظ أن ثلاثين
ديناراً في الشهر كانت تكفي في أوائل القرن الرابع الهجري لمعيشة عائلة من
الطبقة المتوسطة .

وفي سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، أفلس صاحب حانوت ، فأعطاه علي بن عيسى
أربعمائة دينار ، فدفع مائتين منها لدائنيه ، واشتغل بالباقي ولم تنته السنة إلا وكان
عنده ألف دينار ^(٣) . وهكذا كان صافي ربحه ثمانمائة دينار في اثني عشر شهراً
أو ٤٠٠ ٪ .

ويتحدث التنوخي عن « من يبيع بيعاً يسيراً مثل ثقل وهداري ومن رأسماله
دينار وديناران وثلاثة » ، وبين أن واردهم كان ضئيلاً ^(٤) . وكان بعض الباعة
التجولين يجلسون على قارعة الطريق ، ويبيعون أشياء رخيصة من مختلف الأنواع .

(١) السعدي - مروج الذهب ج ٨ ص ١٥٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١٩ (أ) . انظر المفريزي - أغاني الأمة ص ٨٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٣٢ (ب) .

(٤) التنوخي - نشوار المعاصرة ج ١ ص ٦٠ .

مثلاً اشترى رجل قناة أو عكازاً من رهداري (أحد هؤلاء الباعة) بدرهمين^(١).
واعترف أحد البقالين أنه لم يكن لديه من الوفير مائة فلس (حوالي خمسة دراهم)
نقدًا^(٢).

وتوجد إشارات طريفة إلى الصناعات. يذكر عن أحد الصناعات في خلافة الرشيد
(١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) أنه كان يرى أن ثلثمائة درهم في الشهر تكفيه
وزوجته^(٣).

وفي الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، كان الزجاج
النحوي، وهو قتي، يشتغل بنحط الزجاج وكسبه «في كل يوم درهم ودانقان
أو درهم ونصف». وأراد أن يتعلم النحو على المبرد المشهور، وكان المبرد «لا يعلم
النحو مجاناً، ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها». فقال الزجاج للمبرد: «أريد أن
تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك في كل يوم درهماً، وأشرط لك أني أعطيك إياها أبداً
إلى أن يفرق الموت بيننا، استغفنت عن التعليم أم احتجت إليه»^(٤)، فوافق المبرد.
وربما كانت الأجرة في الأحوال الاعتيادية درهمين أو ثلاثة في اليوم.

وفي العقد الرابع من القرن الرابع الهجري، جاء رجل فقير إلى البصرة وطلب
عملاً من صاحب حانوت. فاستخدمه الحانوتي كاتباً لحساباته مقابل أجرة نصف درهم
في اليوم، إضافة إلى طعامه وكسوته. ثم زيدت الأجرة بعد ذلك إلى درهم واحد
في اليوم^(٥).

وفي سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م، قال ابن ابرونا طبيب الوزير المهلبى - أحد وزراء

(١) ن ٢٠ ج ١ ص ١٨٨.

(٢) الجاحظ - البخل ص ٥٩.

(٣) مصارع العشاق ص ١٥٩.

(٤) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٣٤.

(٥) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٥٥.

البوهميين - انه كان ، قبل أن يستخدمه الوزير ، يدور من باب إلى آخر ليعالج المرضى ويأخذ دافئاً ونصف أو ربع درهم من كل مريض يعالجه (١) .

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م ، اشتغل الزاهد عبدالصمد بالحراسة عند أحد اليهود وطلب أن تكون أجرته ثلاثة أرطال خبز ودائقي فضة في اليوم ، فأعطي ما أراد (٢) .
وهذه الأمثلة لا تكفي للتوصل إلى نتائج معينة ، ولكنها تدل على أن الأجور حافظت على نفس المستوى طيلة القرن الرابع الهجري .

ومن المرجح أن دخل الفلاحين كان أوطأ من دخل أصحاب الصنایع والمهن . وعلى كل فقد أضر التغلب البوهمي بهم . فبينما كان الخليفة يحاول حماية الفلاحين أحياناً (٣) ، نجد البوهميين في جهلهم بشؤون الزراعة يتبعون سياسة زراعية مخربة . فمن آثار سياسة معز الدولة تجاه الأراضي أن « فسدت المشارب ، وبطلت المصالح ، وأتت الجوائح على التشاء وركت أحوالهم ، فمن بين هارب جائل ، وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره وبواقفه » (٤) . ولم تعمل الحكومة شيئاً لحماية الفلاحين أو لمعرفة ما يصيبهم من ظلم أو ما يفرض عليهم من ضرائب مرهقة وإضافات لا أصل لها (٥) . ولا يستثنى من هذا الوضع السيء إلا فترة حكم عضد الدولة ، ولكنها كانت قصيرة الأمد فلم تؤد إلى تحسين ثابت . وهكذا قاسى الفلاحون في الفترة البوهمية من تدهور نظام الري ، ومن الازهاق في الضرائب .

(١) مسكويه ج ٢ هامش ص ١٩٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١١٦ (ب) . كانت الدرهم بزن ، نظرياً ، ستة دنانير . ولكننا إذا لاحظنا الخليط من المعدن الرخيص فيه وخاصة في نهاية القرن ، نرى أن دائقي النصة ربما ساروا نصف درهم .

(٣) انظر فصل « الضرائب » .

(٤) مسكويه ج ٢ ص ٩٧ .

(٥) ن . ج ٢ ص ٩٩ . وانظر فصل الزراعة - قسم السياسة الزراعية للدولة .

والخلاصة ، فإن مقارنة الفترة البوهمية بالفترة السابقة لها تبين :

(أ) ان دخل الخليفة هبط بعد سنة ٣٣٤ هـ الى ٧ ٪ من مقداره في أوائل القرن الرابع الهجري .

(ب) وارتفع راتب الوزير من ١١٠.٠٠٠ دينار سنوياً سنة ٢٩٩ هـ الى ٢٥٤.٠٠٠ دينار سنة ٣١٥ هـ أي حوالي ١٣١ ٪ . ثم انخفض إلى ٥٠.٠٠٠ دينار سنوياً في الفترة البوهمية أي إلى حوالي ٥٤ ٪ من مقداره سنة ٢٩٩ هـ أو ١٩٤ ٪ مما كان عليه سنة ٣١٥ هـ .

(ج) ونقصت رواتب الموظفين المدنيين عامة .

(د) وزادت رواتب الجند في الفترة البوهمية بالنسبة للفترة السابقة . فإذا قيس رواتبهم في هذه الفترة برواتبهم سنة ٣١٧ هـ ، وجدنا الزيادة تتراوح بين ٤٠ ٪ و ٤٠٠ ٪ .

(هـ) لم تحصل زيادة ملحوسة في أجور العمال ، ولعلها كانت تمثل الحد الأدنى لحاجاتهم البسيطة .

(و) وهبط وضع الفلاحين بعد سنة ٣٣٤ هـ ، عما كان عليه قبل ذلك ، لأنهم كانوا ملزمين بدفع مقدار أكبر من الضرائب ، في ظروف زراعية أسوأ من السابق .

٤ - المحرمات الاجتماعية للدولة

نظمت الدولة بعض الخدمات الاجتماعية للشعب ، وخاصة للفقراء . فأنشأت ديواناً خاصاً وهو « ديوان البر » لإدارة الصدقات والأوقاف الخيرية لمساعدة الفقراء ^(١) . وشجعت الاحسان والبر في الدوائر الرسمية . فمثلاً أعفى المعتضد ضامن ضرائب واسط ، وهو ابن بسطام ، من تقصيره في دفع حق الحكومة كاملاً ، حين

(١) مسكويه ج ١ ص ١٥١ .

وجد أن ابن بسطام كان يوزع عشرين كراً من الخنطة شهرياً على رجاله وعلى الفقراء^(١).
وكان المعتضد يخصص في نفقاته خمسة عشر ديناراً كل يوم لتوزيع على
الفقراء^(٢). كما أنه كان يدفع اربعائة وخمسين ديناراً شهرياً لنفقات البيمارستان
الصاعدي (للأطباء والمرضى والأطعمة الخ.) في بغداد^(٣).

وفي سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م ، أخبر المقتدر أن الخوانيت التي بناها المكنتي
في رجة باب الطاق في بغداد كانت تضر بالضعفاء لأنهم كانوا يقعدون فيها لتجارهم
بلا أجر ، فسأل عن غلتها ، فقيل له أنها تغل في الشهر ألف دينار ، فقال : « وما
مقدار هذا في صلاح المسلمين واستجلاب حسن دعائهم » وأمر بهدمها^(٤).

وفي سنة ٣٠١ هـ ، خصص علي بن عيسى رواتب للمؤذنين ولأئمة المساجد
والفقراء الذين يلجأون إليها ، وأصلح حالة المستشفيات في بغداد ، وأمر بتخصيص
ما يكفي من الأدوية والأشربة وغيرها مما يحتاجه المرضى فيها^(٥). وكتب في سنة
٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، إلى سنان بن ثابت^(٦) أن يعنى بالمسجونين ، وأن يرسل الأطباء
يوميّاً إلى السجون ، ومعهم الأدوية والأشربة لمعالجة المرضى ، فنفذ أمره^(٧).

وقد شمل علي بن عيسى القرى والأرياف بعنايته . ففي سنة ٣٠١ هـ ، كتب إلى
سنان : « فكرت فيمن بالسواد من أهله ، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف
متطلب عليهم لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم . . باتخاذ متطبين وخزانة من الأدوية
والأشربة يطوفون في السواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى

(١) التنوخي - تشوار المخاضة ج ٨ ص ٦٠ .

(٢) الصابي - الوزراء ص ١٩ .

(٣) ن ٢٠٠ ص ٢١ .

(٤) عريب - صلة الطبري ص ٢٤ .

(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٥١ .

(٦) وهو طبيب الخليفة ومدير المستشفيات .

(٧) القنطري - أخبار الحسكاه ص ١٩٣ .

مقامهم ، ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره . ولما وصل الأطباء إلى سورا ونهر الملك وجدوا أن أكثر السكان يهود . فاستفسر سنان من الوزير عن رأيه في معاملتهم وأوضح « أن الرسم في بيارستان الحضرة قد جرى للعلي والذي » . فكتب علي بن عيسى : « ليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب ، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به ، معالجة الناس قبل البهائم ، والمسلمين قبل أهل الذمة ، فإذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم . فاعمل . . على ذلك » ^(١) .

وفي سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، أنشأ المقتدر مستشفى جديداً في بغداد ، أطلق اسمه عليه . وخصص مقادير كبيرة من المال للنفقة عليه ^(٢) . وفي المحرم من نفس السنة ، افتتح سنان بن ثابت « بيارستان السيدة » (نسبة إلى أم الخليفة) ، وعين ادارته وأطبائه . وبلغت مخصصاته ستمائة دينار شهرياً ^(٣) .

وعمل أمير الأمراء (بحكم) أثناء المجاعة سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م دار ضيافة في واسط لا طعام الفقراء . وأنشأ في نفس السنة مستشفى جديداً في بغداد ^(٤) .

وكانت توجد مستشفيات خاصة للأمراض العقلية في الموصل والبصرة ^(٥) . أما في العصر البويهي فلا توجد أية إشارة إلى خدمات اجتماعية قبل سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م . بل اتنا نسمع بعادة انزال الجند في بيوت الناس . ففي سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، نزل معز الدولة في دار مؤنس وانزل جنوده في بيوت الأهليين ،

(١) ن . م . ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٥ .

(٣) القنطري - اخبار الحسكا . ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٤) مسكويه ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٥) النيسابوري - عقلاء المجانين ص ١٣٩ - ١٤٠ .

وهو أمر لا سابق له . وقامى الناس من ذلك كثيراً ، وأصبح انزال الجند في بيوتهم فرضاً عليهم ^(١) .

ولقد تمتع العراق ببعض الخدمات الاجتماعية - لأول مرة في العصر البويهي - في زمن عضد الدولة (٣٦٩ - ٣٧٢ هـ / ٩٧٩ - ٩٨٢ م) . ففي سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، وضع عضد الدولة الأعطيات للأئمة والمؤذنين في المساجد ، وللقراء والمرضى الذين يلتجئون إليها ، وللأطباء والفقهاء والشعراء والنحويين والمنجمين ، وللمهندسين والنسايين . وخصص الأعطيات لأشراف المدينة ولقراءها . وشمل أهل الذمة بعنابته ، فسمح لوزيره نصر بن هارون أن يعمر الأديرة ، وأن يساعد فقراء أهل الذمة بالمال ^(٢) . وفي سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، أعاد عضد الدولة بناء المستشفى الرئيسي في بغداد ، وخصص له واردات أوقاف كثيرة ، وجهزه بالأدوية والآلات من كل جهة ^(٣) .

وكان عضد الدولة يخصص في أول كل سنة خراجية كميات كبيرة من المال للصدقات ، ويرسلها بواسطة عماله وولاته إلى أشراف الولايات وقضاها لينفقوها على الفقراء والمحتاجين في مناطقهم .

وقد كانت هذه الخدمات جليلة الفائدة ولكنها وقتية ، لأنها - كما يظهر - توقفت بعد وفاة عضد الدولة . هذا وقد وردت إشارة إلى أن الوزير أبا نصر سابور أنشأ داراً للعلم في بغداد ، وأوقف فيها عدداً كبيراً من الكتب للمسلمين .

والخلاصة ، فإن العصر البويهي كان خالياً من الخدمات الاجتماعية باستثناء الفترة بين ٣٦٩ - ٣٧٢ هـ . فقبل عضد الدولة . كان البويهيون تنقصهم الثقافة الكافية ،

(١) مسكوبه ج ٢ ص ٤٠٧ - ٨ ، الذهبي - دول الاسلام (خط) ورقة ١٨ ب - ١٩ أ ،

ابن الأنبار ج ٨ ص ٥١٨ .

(٢) أبو شجاع ص ٦٩ .

(٣) ن . م . ص ٦٦ .

في حين أنهم شغلوا كثيراً في الخلافات العائلية بعده ، فلم يتسع المجال للقيام بالخدمات اللازمة .

٥ - النفقات

يعطي الصابي تفاصيل نفقات البلاط في خلافة المعتضد . فكانت ميزانية البلاط الشهرية تبلغ ١٢٢٩٢٠ ديناراً^(١) ، وتحتوي على المواد الآتية :

٣٠٠٠ ديناراً	نفقات الحرم
» ١٠٠٠٠	» الطعام
» ٩٠٠٠	أجور الطبائخين
» ٢٠٠٠	علف الخيل في خمسة اصطبلات
» ١٣٢٠	أرزاق الجلساء وأكابر الملهمين
» ١٠٠٠	أبناء المتوكل
» ٥٠٠	أبناء الواثق والمهتدي والمستعين وغيرهم من الأمراء في قصر أم حبيب
» ٥٠٠	أبناء الناصر
» ٢٠٠	نفقات الزيت والشمع
» ٢٠٠٠	لشراء خيل وجمال
» ٧٠٠	لأطباء البلاط
لأصحاب الصيد من باريارين وصقارين وفهادين وكلابيين وغيرهم	
» ٢١٠٠	ونمن طعم وعلاج للجوارح
» ٥٠٠	للملاحى البلاط
» ١٠٠٠	للعاجب وبعض الحرم
» ٦٠٠٠٠	للغلمان الخاصة

(١) انظر الصابي - الوزراء من ١١-٢٢ .

وكان المعتضد مقتصداً في نفقاته . ولما توفي المكتفي (سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م) خلف :

٦٣٠٠٠٠ ثوب

ثياباً خوارزمية وخراسانية

١٣٠٠٠٠ عمامة

عمائم مروزية

١٨٠٠٠٠ ثوب

من ثياب الوشي

١٨٠٠٠٠ سجادة

من السجاد

٢٠٠٠٠٠ ر. ٢٠٠٠٠٠ دينار

من الجواهر والعطور ما يبلغ ثمنه

٢٠٠٠٠٠ ر. ٢٠٠٠٠٠ دينار (١)

من الأسلحة والرقيق والدواب ما يبلغ ثمنه

وقد بلغت نفقات المقتدر في خمس وعشرين سنة مقدار اثنان وسبعون مليون دينار أو ٢٨٨٠٠٠٠ دينار في السنة . وكانت قصوره مؤثثة ومزينة بترف بالغ (٢) .

فكانت تحوي ٨٣٠٠٠٠ ستارة من الحرير الخالص المطرز بالذهب و ٦٢٠٠٠٠٠ بساط من أنواع مختلفة ومن صنع بلاد مختلفة (٣) . وكان لديه في بعض اسطبلاته خمسمائة حصان لها سروج مزينة بالذهب والفضة . وكان في خدمته سبعمائة حاجب وسبعة آلاف مملوك (ثلاثة آلاف منهم بيض وأربعة آلاف سود) (٤) . ولعل هذه الأرقام تسكني لاعطاء فكرة عن البذخ العجيب لهذا الخليفة .

إلا أن ضعف الخزينة الناتج عن إسراف المقتدر ، اضطر أخلافه إلى شيء من الاعتدال في النفقة . فلما أصبح القاهرة خليفة في سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م قدمت أنواع المأكول والحلويات المعتادة في البلاط ، ولكنه استكثرها ، وحاول الاقتصاد فيها . فوجد مثلاً أن النفقة على الفاكة تبلغ ٣٠ ديناراً في اليوم فأقصها إلى دينار واحد ،

(١) الثعالي - لطائف المعارف ص ٧٢ .

(٢) انظر وصف قصر الشجرة في الخطيب البغدادي ص ٥٢ ٥٣ ابن العاصي - مختصر أخبار الخلفاء ص ٧٥ .

(٣) الخطيب البغدادي ص ٥٢ .

(٤) ن . م . ص ٥٢ - ٥٣ .

وحدد المآكل التي تقدم في الوقت الواحد إلى اثني عشر نوعاً ، في حين كان يقدم ثلاثون نوعاً من الحلوى وحدها في زمن أسلافه ^(١) .

ولكن وارد الخليفة في العصر البويهي لم يترك محالاً للبذخ . فلا نسمع شيئاً عن ترف الخلفاء في ذلك العصر ، في حين أن التواريخ المعاصرة تمجد تقوى الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٢ هـ / ٩٩١ - ١٠٣٠ م) وزهده .

وكان الوزير يعيش في رغد بالغ . واليك وصف الصابي لمائدة ابن الفرات : « كان الوزير يتوسط المائدة وضيوفه من حوله ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت . ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبه ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكثرى ، ومعه طست زجاج يرمى فيه الثقل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق ففسلوا أيديهم وأحضرت المائدة ، مغشاة بديقي فوق مكبة خيازر ومن تحتها سفرة آدم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل الغمر من الثياب المعصور . فإذا وضعت ، رفعت المسكبة والأغشية وأخذ القوم في الأكل ، وأبوا الحسن بن الفرات يخدمهم ويواسطهم ويؤانسهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ، ويفسلون أيديهم والفراشون قيام بصبون الماء ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدنيقة ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم » ^(٢) .

ولما قدم السفير البيزنطي إلى بغداد سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، قابله ابن الفرات في قاعة فسيحة في قصره ، سققها مذهب . وأنفق على تزيين قصره ، في تلك المناسبة ، نفقات كبيرة منها ٣٠٠٠ دينار للستائر وحدها ^(٣) . واشترى ابن الفرات

(١) عرب ص ١٨٣ .

(٢) الصابي - الوزراء ص ٢٤٠ .

(٣) مسكويه ج ١ ص ٥٣ - ٤ .

مسكا وكافوراً بمبلغ عشرة آلاف دينار في سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م^(١). وكان مطبخه العام مفتوحاً للجميع. وكان المعتاد، عند مجيئه الوزارة، أن ترتفع أسعار الشمع والثلج والورق، لأنه اعتاد أن يقدم منها لكل زواره^(٢). وأشير مرة بحضرته إلى فقر المحدثين والمتأدين، فأثر ذلك في نفسه وأمر باعطاء عشرين ألف دينار إلى الكتاب، ومثلها للشعراء، ومثلها للفقهاء، ومثلها للصوفية^(٣).

وكان دخل علي بن عيسى حوالي ٨٨٠٠٠ دينار في السنة، ينفق منها ٤٨٠٠٠ دينار على العباسيين والعلويين والأنصار وأبناء المهاجرين وعلى الحرمين ولغير ذلك من أعمال البر والتقوى. وكان ينفق الباقي، أي حوالي ٤٠٠٠٠ دينار، على حاجاته^(٤). وكان علي بن عيسى أكثر وزراء عصره ورعاً، كما كان ابن القرات أكثرهم بذخاً.

واعتاد حامد بن العباس أن ينصب الموائد في داره لكل من يدخلها من موظفين ومن غير الموظفين حتى الخدم، فكان ينصب حوالي أربعين مائدة يومياً، ولا تخلو مائدة من الخبز واللحم^(٥).

وقد احتفظ مسكويه بوثيقة أصلية فيها نفقات الخصيصي لأربعة عشر شهراً (٣١٣ - ٣١٥ هـ / ٩٢٥ - ٩٢٧ م)، واليك محتوياتها:

أنفق في كل شهر من النفقات الزاتية (الدائمة) ٢٥٠٠ دينار، تكون في أربعة عشر شهراً ٣٥٠٠٠ دينار

النفقات الحادثة والصلوات والمؤونة مع عن الطيب والكسوة ٢٠٠٠٠ دينار

(١) مسكويه ج ١ ص ٦٧.

(٢) ن ٢٠ ج ١ ص ١٢٠، الفجري ص ٣٦١.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١١٣.

(٤) الصابي - الوزراء ص ٣٢١ - ٣٢٣.

(٥) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤.

ثمن عقارات أضافها إلى داره مع ما أنفقه على البناء ٤٠٠٠٠ دينار
 ثمن الهدايا في النوروز والمهرجان إلى الخليفة وإلى الأميرين
 أبي العباس وهرون ابنيه وإلى السيدة والحالة وزيدان ومفلح ٣٥٠٠٠ دينار
 ثمن بغال ودواب وجمال وخدم وغلطان ١٠٠٠٠ دينار
 إلى من برسم دار الوزارة من خلفاء الحجاب والبوايين وأصحاب
 الرسائل واتزال الفرسان والرجالة ٢٠٠٠٠ دينار
 وقد علق الخصبي نفسه على هذه القائمة بقوله : « هذا عمل صحيح ، وليس كل
 ما أنفقته كتبته ، فقد كنت أصوغ لحربي وأولادي ، وأنفق نفقات استرها
 عن كاتبني » (١) .

ونلاحظ من هذه الوثيقة ما يأتي :

(١) ان نفقات الخصبي المسجلة ، لمدة أربعة عشر شهراً ، بلغت ١٥٥٠٠٠ دينار
 أو $\frac{1}{4}$ ١١٠٧١ دينار في الشهر .

(٢) انها بلغت ٦٢٪ من وارده الذي بلغ ٢٥٠٠٠ دينار (٢) .

(٣) ان حصة الموظفين والحجاب المتصلين بقصر الوزير بلغت ٨٪ من
 راتب الوزير .

(٤) ان الهدايا التي تقدم للبلاط - وهي هدايا فرضتها التقاليد مع أنها في الأصل
 اختيارية - تبلغ ١٤٪ من راتب الوزير .

واعتماد ابن مقله أن ينفق (سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) خمسمائة دينار في الاسبوع
 على الفاكهة وحدها . وكانت عنده حديقة حيوانات في بستان ، وقد جمع فيها الطيور

(١) مسكويه ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) ن ٢٠٠ م ج ١ ص ١٥٥ .

من مختلف الأنواع من الجهات البعيدة والقريبة ، وأضاف إليها الغزلات والابل والنعام وحمر الوحش ^(١) .

وفي سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م ، كان البريدي يتفق على مائتته الف دينار في اليوم ^(٢) . وفي سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ، استدعى (ناصر الدولة) ببغداد بشيء يأكله مستعجلاً ليتعلل به نجاؤه بدجاجة مشوية ورغيف واحد وصكر وملح وخل وقليل بقل ^(٣) .

وكانت دور المترين تحتوي على حمامات خاصة . وكان لأصحاب الدور المظلة على دجلة قوارب خاصة على ضفة النهر ومراكب على الأبواب المؤدية إلى الشوارع ^(٤) . وكانوا يستعملون السكل للنوم تخلصاً من البق ^(٥) ، ويستعينون بالمراوح في الأيام الحارة ^(٦) .

وبروي التنوخي الخبر التالي على لسان رجل من الطبقة المتوسطة - في العصر البويهي كما يظهر - وكان قد بدد ثروته ثم ورث ثلاثين ألف دينار . قال الرجل : « واعتقدت أن لا أبذر ، وأن أدبر وأعيش بها إلى أن أموت وانفقها على اقتصاد . فعمرت هذه الدار واشترت جميع ما فيها من فرش وآلة وثياب ومركوب وجوار وغلان بخمسة آلاف دينار . وجعلت تحت الأرض خمسة آلاف دينار عدة للحوادث . وابتعت ضياعاً ومستغلات بعشرة آلاف دينار يغل لي في كل سنة مقدار نفقتي .. ويفضل لي في كل سنة إلى وقت ورود الغلات شيء آخر حتى لا احتاج اقترض

(١) ن . م . ج ١ ص ٢٠٣ الهامش .

(٢) ن . م . ج ١ ص ٣٤٨ م ٢ .

(٣) التنوخي - نشوار الحاضرة ج ١ ص ٢٠١ .

(٤) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١٤ أ .

(٥) الصابي - الوزراء ص ٢٧٧ .

(٦) الصولي - اشعار اولاد الخلفاء ص ١١٦ .

ولا استدين»^(١). وكانت داره ، كما وصفها صديق له : « محضاً واحداً فيه بستان ، وجصصها من غير بياض ، وطبقها وترك فيها مجلساً واحداً حسناً عامراً ، وجعل باقي المجالس صحاً . . . وأدخلني إلى حجرة . . . يخلو فيها . . . وفيها فرش حسن . وفي الدار « أربعة غلمان ، قد جعل خدمتين إلى كل واحد منهم ، وخادم شيخ . . . جعله بواباً ، وشاكري وهو سائسه » . ثم يستطرد هذا الصديق فيصف الطعام قائلاً : « نجاؤه بآلة مقتصدّة نظيفة تخدم بها ، وبها كفة مختصرة متوسطة ، وطعام نظيف كاف إلا أنه قليل فأكلنا»^(٢) ، ونبيذ تمر جيد نجعلوه بين يدي ، وبمطبوخ جيد بين يديه . ومدت ستارة فاذا بغناء طيب ، وبخر يعود طري وند جميعاً»^(٣) .

وهذه القصة تدلنا على الضروريات التي يمتلكها رجل من الطبقة المتوسطة ، وهي : الدار ، والخدم ، والدواب ، والضياع التي يعيش من واردها . أما طعامه فمعتدل ، لا يتعدى ثلاث وجبات . ولما أراد الاقتصاد أنفق ثلث ثروته لشراء ضياع ودفن سدسها حيلة للمستقبل .

وفي قصة أخرى ، تعود للعقد الثالث من القرن الرابع الهجري ، أفلس رجل من الطبقة المتوسطة ، ثم ورث أربعين ألف دينار ، فحاول أن يدبر أموره باقتصاد . وحدث بذلك صديقه فقال : « فعمرت هذه الدار (أي مسكنه) بألف دينار ، واشتريت من الآلة والفرش والنياب والجواري ما تراه وغيره بسبعة آلاف دينار ، وسلمت إلى بعض التجار الثقة التي دينار يتجر لي فيها ، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار للشدائد والحوادث ، وابتعت بالباقي ضيعة تغل في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقتي . فما أبقى احتاج إلى الاستزادة ، وما تقبل غلة إلا وعندي

(١) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٩٣ .

(٢) راوي القصة وصاحب الدار .

(٣) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٩١ - ٩٢ .

بقية من الغلة الأولى» (١). أما داره فهي كبيرة نسيكاً ، وأرضها مبلطة وفيها مجلسان متقابلان وخزانين ومستراح . ولديه ثلاثة غلمان ، وخدام أقامه على حرمه ، وشيخ بواب ، ووكيل يتسوق له . ولما دعا صديقه للطعام ، قدم له فاكهة نظيفة قليلة في آلة مقتصدة مديحة ، ثم أتاه بعدها بطعام نظيف كاف غير مسرف ولا مقصر ، ومدت ستارة وأحضرت مشام ورياحين في صوان ، وهي من نوع متوسط غير مسرف . ثم قدم له الشراب وبخره بند ، وغنى من وراء ستارة ثلاث جوار في نهاية طيب الغناء (٢) .

وفي هذه القصة نجد الضياع تحتل المسكان الأول (٣) . كما أن تدير الرجلين في القصتين سار على نفس الاتجاه تماماً ، سوى أن الرجل الثاني استغل ٢٠/١ من ثروته في التجارة وبذلك فاق الأول في القابلية المالية .

ويذكر ابن الجوزي أن رجلاً أفطر سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م ، مع صديق له من الطبقة المتوسطة ، فقدم خادمه طعام الإفطار وكان يتألف من هريسة ممتازة ، يعقها بعض الحلوى (٤) .

ولم تكن العامة بهذه الدرجة من الرفاه . يذكر أن المهدي خرج إلى الصيد ، وحصل أن انفصل عن حاشيته أثناء المطاردة ، فمال إلى كوخ فلاح نبطي وطلب بعض الطعام . فقدم له الفلاح شيئاً من خبز الشعير ، ومحنأ فيه أسماك صغيرة . وسأله المهدي إن كان عنده بعض الكراث والزيت ، فأحضر ذلك له وأضاف إليه قليلاً من التمر (٥) . ولعل هذا كان آخر ما عند ذلك الفلاح . وهذه الحادثة تعود للقرن

(١) التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٧ .

(٢) ن ٢٠٠ ج ٢ ص ١٦ .

(٣) كانت الضياع عماد الاقتصاد العائلي . قيل : « فلاح المبيشة في الفلاحة ، ولا ضيعة على من له ضيعة » . وقيل : « اتخذ لك ضيعة أمينك إذا جاءتك الأحزان » . اليواقيت المقدسي ص ٢٩ .

(٤) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٥٤ ب - ٥٥ أ .

(٥) الجبشباري - الوزراء ص ١٤٦ .

الثاني الهجري ، ومع ذلك فيحتمل أنها تصور وضع الفلاحين في القرن الرابع .

ويتحدث الجاحظ عن بخيل اعتاد أن يهيء أكلة واحدة جيدة في الاسبوع .
فقد كان يشتري يوم الجمعة لحم بقر بدرهم ، وبصلا بدائق (١/٦ الدرهم) ، وباذنجاناً
بدائق وقرعاً أو جزراً بدائق ، ويطبخ الكل في قدر واحدة^(١) .

وفي سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، أحس المقتدر ، وهو في قاربه ، بجوع قبل وصول
طعامه . فقدم الملاح طعامه للخليفة ، وكان يتألف من قطعة من السمك الجيد المملح .
فاستغرب المقتدر أن لا يجد حلوى مع الطعام ، وقال إنه لم يكن يعتقد أن أحداً يأكل
طعاماً لا تعقبه حلوى . فقال الملاح : إن حلوانا هي التمر والزيتون^(٢) .

وهكذا كان طعام العامة يتألف من وجبة واحدة في العادة ، وكان التمر هو
الحلوى . وكان السمك ولحم البقر رخيصاً وميسوراً للطبقات الفقيرة ، كما كانت
حلاوة التمر من اللذائذ عندهم^(٣) . وكانت الهريسة - ولا تزال - من الأكلات
المحبوبة لدى العامة في بغداد^(٤) .

وكان سوق الحنص محبوباً جداً في بغداد . ويذكر الخطيب البغدادي عن
سنة ٣٩٠ هـ / ٩٧٠ م ، أن أحد باعة السوق في بغداد اعتاد أن يطحن ٣٦٠ كراً
من الحنص في السنة ، ويبيعها خلال شهرين أو ثلاثة حين لا توجد فاكهة . وكان
الفقراء والمتظرفون يشترونه عادة^(٥) . وهذه القصة تدل على أن الفواكه كانت
تتيسر حتى للفقراء .

وكان الفقراء يأكلون الجراد أيضاً ، وخاصة في السنين المعجاف . ففي سنة

(١) الجاحظ - البخله ص ١٩٣ .

(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٢ قصة رقم ٩٨ (ص ٢١١ من الترجمة) .

(٣) انظر التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦٢ ، الجاحظ - البخله ص ١٩٣ .

(٤) الجاحظ - البخله ص ٢٨٢ ، سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ٥٤ ب - ٥٥ أ .

(٥) الخطيب البغدادي ص ٣٧ .

٣٢١ هـ / ٩٤٢ م ، « كثر الجراد ٠٠ فصاده الناس ، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده ، وكان نعمة من نعم الله جل وعلا » ^(١) . ويتحدث التنوخي عن رجل يبيع الجراد ، فاشترى أحدهم منه بضعة أرطال وأكلها ^(٢) . وقد حصل ذلك في بغداد ، ولم يكن المشتري معذراً .

وفي سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م ، طلب القادر من ابن القزويني الزاهد أن يرسل له بعض طعامه ، فأرسل إليه الزاهد باذنجاناً مقلوئاً بخل وباقلي ودبساً وخبزاً ، فوهبه القادر مائتي دينار فقبلها . وبعد أيام قليلة طلب القادر من ابن القزويني شيئاً من طعامه ، فأرسل إليه دجاجة مشوية ، وفرايح وفالودج ، ولما أبدى الخليفة دهشته لهذا الطعام الفاخر ، قال القزويني : « ما تكلفت . لما وسع عليّ وسعت على نفسي » ^(٣) . وكانت معيشة البدو صعبة . سأل مديني أعرابياً : « أي شيء تدعون وأي شيء تأكلون ؟ قال : نأكل ما دب ودرج إلا أم حيين . فقال المديني : لتهن أم حيين العافية » ^(٤) .

وكان طعام البدو المعتاد يتكون من الخبز واللبن والتمر والزبد وما يعمل منها . وكانوا يحصلون على السكأة والجراد في بعض المواسم . ومن أكلاتهم اللذيذة اللبن والوطيع (من التمر والحليب) والحليس (وهو من التمر والدهن واللبن الخائر) ^(٥) .

٦ - عزم استقراء الملكية

كانت طريقة المصادرة أكبر خطر على الملكية الخاصة في القرن الرابع الهجري . وكانت تصيب المثرين ولا سيما الموظفين منهم .

(١) الصولي - أخبار الرازي والمتقي ص ٢٣٧ .

(٢) التنوخي - نشوار المعاصرة ج ٢ قصة ٨٦ (ص ١٩٨ من الترجمة) .

(٣) أبو شجاع ، هامش ص ٢٠٥ .

(٤) الجاحظ - البخل ص ٣٤٦ .

(٥) ن . م . ص ١١٥ و ص ٩٨٢ . انظر ص ٢٤٤ .

وكان المعتاد أن يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف والظلم ، ويطلب منه ومن كتابه وأعوانه أن يفتدوا أنفسهم بكليات من المال ^(١) . ولم ينج الولاة ^(٢) ، ولا القضاة ^(٣) من هذه العادة ، حتى أن إحدى قهرمانات البلاط فقدت ثروتها (سنة ٥٣٣٤ هـ) بالمصادرة ^(٤) .

وكانت الطريقة المتبعة في المصادرة أن يلقي القبض على الوزير وأعوانه بصورة مفاجئة ويسجنون . ثم يبدأ الوزير الجديد بعد ذلك تحرياته ليستخرج المصادرة بالاقناع والتهديد . وكانت المصادرة تشمل أحياناً ثروة الموظف المتوفى ^(٥) .

وكانت المصادرات قبل التغلب البويهى ، أكثر تكرراً وعلى نطاق أوسع مما صارت عليه بعد ذلك التغلب . فبينما يسجل مسكويه ثلاثين مصادرة بين سنة ٥٢٩٩ - ٥٣٣٤ هـ ، نراه يذكر عشرة بين سنة ٥٣٣٤ - ٥٣٨١ هـ . وعلى سبيل المثال نذكر أنه في سنة ٥٣١٢ هـ / ٩٢٤ م فقد ابن الفرات ^(٦) ، وابنه المحسن وكاتب المحسن ^(٧) ، وزوجته ^(٨) ، وابنان آخران لابن الفرات — ثروتهم بالمصادرة ، في حين أننا في العصر البويهى نرى مرة واحدة فقط (٥٣٥٠ / ٩٦١ م) صودر فيها الوزير ورنيس كتابه ^(٩) .

(١) انظر عريب ص ٣٩ وص ٦٤ وص ٦٦ وص ٧٤ وص ١٠٨ - ١٠٩ وص ١١٢ وص ١١٤ وص ١٢٧ ، وص ١٨٣ ، وص ١٨٤ . انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٥ .

(٢) مسكويه ج ١ ص ٣٢ وص ٢٠٨ .

(٣) ن . م . ج ١ ص ١٤ وص ١٦ .

(٤) ن . م . ج ٢ ص ٨٨ .

(٥) ن . م . ج ١ ص ٣٢ .

(٦) ن . م . ج ١ ص ١٣٩ .

(٧) ن . م . ج ١ ص ١٢٨ .

(٨) ن . م . ج ١ ص ١٤١ .

(٩) ن . م . ج ٢ ص ١٨٦ .

ورأى بعض الوزراء في المصادرة مورداً أساسياً للخزينة وتصرفوا بموجب ذلك^(١). هكذا كان الحصبى^(٢) وأبو الفضل الشيرازي^(٣). وكان يوجد ديوان خاص يدعى (ديوان المصادرين) لإدارة الأملاك المصادرة^(٤).

وقد أدت المصادرة إلى سنن غير مرغوب فيها. فالملوظون الكبار صاروا مضطرين إلى جمع الثروة بكل وسيلة، استعداداً لليوم الأسود^(٥). كما أنهم لجأوا إلى حيل مختلفة ليخفوا ثروتهم عن عيون من يخلفهم في المنصب. فمثلاً أودعوا أموالهم عند أناس لا يشقبه بهم. فوضع ابن الفرات بعض أمواله - في وزارته الأولى - عند القاضي أبي عمر^(٦). كما وضع كاتبه سبعين ألف دينار عند أناس آخرين^(٧). وفشت عادة دفن النقود تحت الأرض. ففي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م، اعترف حامد ابن العباس أنه دفن ٥٠٠.٠٠٠ دينار^(٨)، واستخرجت ٤٠٠.٠٠٠ دينار من داره بعد وفاته^(٩). ودفن بحكم كيات كبيرة من الذهب والفضة في داره وفي الصحراء^(١٠). وفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م، فقس المهلبى في دار أبي علي الخازن ووجد ما يزيد على تسعين ألف دينار، كما وجد أن أبا علي أودع أموالاً طائلة عند

(١) عريب - صلة الطبري ص ١٨٥.

(٢) مسكويه ج ١ ص ١٤٤ وص ٤١٥٣ عريب ص ١٢٨.

(٣) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٨ التنوخي - الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٨٠.

(٤) مسكويه ج ١ ص ٢١ وص ١٥٤ الرافعي - عصر السامون ص ٣١٣ الصابني - الوزراء ص ٣١٠.

(٥) الرافعي ص ٣١٤ والصابني ص ٣٢٠ - ٣٢٩.

(٦) مسكويه ج ١ ص ٦٧.

(٧) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٥٣ انظر مسكويه ج ١ ص ١٠٢.

(٨) مسكويه ج ١ ص ١٠٢.

(٩) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥.

(١٠) مسكويه ج ٢ ص ١١.

بعض الناس^(١) . ووجدت ٣٠.٠٠٠ دينار مدفونة في دار كاتب ديوان الخراج الذي توفي سنة ٣٥٠ هـ^(٢) .

وقد كان لدفن النقود أثر اقتصادي سيء . إذ فقدت بذلك كميات كبيرة من النقود الفضية والذهبية بوفاة أصحابها^(٣) ، فنتج عن ذلك حجز كميات كبيرة من النقد من التداول مما يؤثر في عرقلة الحركة التجارية وفي إضعاف نمو المؤسسات الصيرفية . كما أن عادة دفن النقود تشير إلى أن المجتمع لم يدرك تماماً أهمية تشغيل الأموال في التجارة .

ويظهر أنه لم تكن هناك قاعدة تحدد نسبة ما يصادر من مجموع الثروة . فمثلاً كان دخل الخصبى ، رسمياً (سنة ٣١٣-٣١٥ هـ) يساوي ٢٥٠.٠٠٠ دينار أغرم منها ٤٠.٠٠٠ دينار^(٤) ، أي ١٦ ٪ . ولكن المصادرة كانت معتدلة في هذه الحالة . وكانت مصادرة ابن الفرات سنة ٣٠٦ هـ على ٧٠٠.٠٠٠ دينار^(٥) . ولما كان قد أمضى ثمانية عشر شهراً فقط وكان دخله من ضياعه (١٥٠.٠٠٠ دينار) ، فإن مصادره تبلغ ٤٢ ٪ من دخله^(٦) . ولما صودر حامد بن العباس سنة ٣١١ هـ اضطر إلى بيع ضياعه لدفع ما طالب منه . وكان أبو الفضل الشيرازي وزيراً لمدة تقل عن سنتين (٣٦٠ - ٣٦٢ هـ / ٩٧٠ - ٩٨٢ م) ، وقد بلغ دخله من اقطاعه ٥٠.٠٠٠ دينار سنوياً في حين أنه صودر على ١٠٠.٠٠٠ دينار ، أي أن المصادرة تجاوزت كل الدخل^(٧) .

(١) انظر مسكويه ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٨ ، ياقوت - معجم الأدباء ج ٣ ص ١٨٣ .

(٢) مسكويه ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) سبط ابن الجوزي ج ١٢ ورقة ١١ (أ) .

(٤) مسكويه ج ١ ص ١٥٦ .

(٥) ن ٢٠ ج ١ ص ٦٦ .

(٦) ن ٢٠ ج ١ ص ١٠٣ .

(٧) ن ٢٠ ج ٢ ص ٢٤٢ .

ومع أن المصادرات سببت ارتقيا كافي الادارة ، إلا أنها لم تكن تخلو من بعض الفائدة . إذ أنها منعت تراكم الثروة المفرط وقللت من التباين الاقتصادي . ثم أن ذهاب أموال المصادرة للخزينة يعني إعادة توزيعها على الموظفين في الرواتب ، من جهة ، واستفادة الناس أحيانا منها عن طريق الخدمات الاجتماعية . وأخيرا كانت المصادرة موردا للخزينة ويمكن اعتبارها شبه ضريبة دخل .

وكان التجار والأغنياء من الأهلين عرضة للمصادرة أحيانا ^(١) ، ولكن لدرجة أقل من الموظفين . ولا تستثنى إلا حالة ابن الجصاص الذي كانت أمواله المصادرة كبيرة ^(٢) .

قائمة رقم (١)

فيما يلي قائمة بالمصادرات التي ذكرها مسكويه بين سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م و ٣٨١ هـ / ٩٩١ م :

السنة	الاسم	مقدار المصادرة	الصحيفة
٢٩٦ هـ	علي بن عيسى	٥٠٠٠	ج ١ ص ٨
»	القاضي أبو عمر يوسف بن يعقوب	١٠٠٠٠٠	ص ١٤
٣٠١ هـ	صودرت ثروة الراسبي بعد وفاته	٥٠٠٠٠٠	ص ٢٤٠
٣٠٦ هـ	المحسن بن الفرات	٣٠٠٠٠٠	ص ٦٤
٣٠٦ هـ	الوزير ابن الفرات	٧٠٠٠٠٠	ص ٦٦
٣١١ هـ	ابن الحواري (كاتب)	٧٠٠٠٠٠	ص ٩٣
٣١١ هـ	نسيب حامد بن العباس	٢٦٠٠٠٠	ص ٩٣

(١) ن. م. ج ١ ص ٢٥٣ ، ج ٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ج ٣ ص ٢٨٤ ، الصولي - أخبار الراضي والمتقي ص ١٤٨ .

(٢) انظر الفصل عن التجارة ، قسم ٢ . والمسعودي ج ٧ ص ٢٨٣ ، ومسكويه ج ١ ص ٣٥ .

الاسم	السنة	مقدار المصادرة	الصحيفة
كاتب حامد بن العباس	٥٣١١	٢٦٠ر٠٠٠	هامش ص ١٠٠
حامد بن العباس	٥٣١١	٨٠٠ر٠٠٠	ص ١٠٢
علي بن عيسى	٥٣١١	٣٠٠ر٠٠٠	ص ١٠٩
صودر كل من ولدي ابن الفرات	٥٣١٢	١٠٠ر٠٠٠	
كاتب المحسن	٥٣١٢	٢٠٠ر٠٠٠	ص ١٢٨
ابن الفرات	٥٣١٢	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	ص ١٣١
زوجة المحسن	٥٣١٢	٧٠٠ر٠٠٠	ص ١٤١
الوزير الخاقاني	٥٣١٢	٢٥٠ر٠٠٠	ص ١٤٤
جعفر قاسم السكرخي (الوزير)	٥٣١٢	١٥٠ر٠٠٠ دينار	ص ١٤٤
أبو طالب التوبندجاني	٥٣١٣	١٠٠ر٠٠٠	ص ١٤٧
الوزير الخصبي	٥٣١٥	٤٠ر٠٠٠	ص ١٤٧
البريديون ، (عمال واسط والبصرة)	»	٩ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم	ص ٢٠٨
الوزير ابن مقلة	٥٣١٥	٢ر٠٠٠٧ر٠٠٠ دينار	ص ٢٠٩
الوزير سليمان بن الحسن	٥٣١٩	٢٠٠ر٠٠٠	ص ٢١٢
الوزير الحسين بن القاسم	»	٤٠ر٠٠٠	»
الوزير الكلواذاني	٥٣٢١	٢٠٠ر٠٠٠	ص ٢٤٦
أبو الخطاب ابن الفرات	»	١٠ر٠٠٠	ص ٢٥٣
علي بن يلبق	»	١٠ر٠٠٠	ص ٢٦٦
ابن شیرزاد	»	٢٠ر٠٠٠	ص ٢٧٠
الوزير القراريطي	٥٣٢٣	٥٠٠ر٠٠٠	ص ٣١٩
علي بن عيسى	»	٦٠ر٠٠٠	ص ٣٢٤

السنة	الاسم	مقدار المصادرة	الصحيفة
٥٣٢٣	أبو علي الحسن بن هارون	١٠.٠٠٠	دينار ص ٣٣١
٥٣٢٤	الوزير ابن مقلة	١٠.٠٠٠	درهم ص ٣٣٧
»	عبد الرحمن بن عيسى	٧.٠٠٠	دينار ص ٣٣٨
»	علي بن عيسى	١٠.٠٠٠	» »
٥٣٣٢	يونس	١٠.٠٠٠	» ج ٢ ص ٦١
٥٣٣٣	أبو الفرج السامري	٣٠.٠٠٠	درهم ج ٢ ص ٨٠
٥٣٣٤	القهرمانة علم	٤.٠٠٠	دينار ص ٨٨
٥٣٥٠	علي أبو مخلد	٥٠.٠٠٠	» ص ١٨٥
»	العباس بن الحسين الشيرازي	٣٠.٠٠٠	» ص ١٨٦
»	أبو الفرج كاتب ديوان الخراج	٣٠.٠٠٠	» ص ١٨٦
٥٣٥٩	أبو الفضل الشيرازي	٣٠.٠٠٠	درهم ص ٢٦٣
٥٣٦٠	محمد بن أحمد الجرجاني	١٠.٠٠٠	» ص ٣١٣
٥٣٦٤	ابن السراج	١٠.٠٠٠	» ص ٣٥٨
٥٣٨١	الوزير أبو نصر سابور	٢٠.٠٠٠	» ج ٣ ص ١٩٨
ويحفظ الصابي لنا وثيقة مهمة صادرة من ديوان المغرب في خلافة الرازي ، وفيه المصادرات التي أراد ابن الفرات وولده المحسن في وزارتهما استخراجها سنة ٥٣١١ / ٩٢٣ م ، والتي حصلنا على توافيق أمحائها بدفعها .			

البسطامي	٧٣٠٠	دينار
باذيني الكاتب	١١.٠٠٠	»
محمد بن عبدالله الشافعي	٣٠.٠٠٠	»
محمد بن علي بن مقلة	٨.٠٠٠	»

أبو طاهر محمد بن الحسن	١٠٠٠ر٠٠٠	دينار
الحسن بن أبي عيسى الناقد	١٧ر٠٠٠	»
ابراهيم بن أحمد المادرائي	٢٠ر٠٠٠	»
عبدالواحد بن عيسى	١٣ر٠٠	»
ابن هاني الخطيب	١٠ر٠٠٠	»
ابن ادريس الجهيد	٦ر٠٠٠	»
محمد بن سهل	٤ر٠٠٠	»
عبدالوهاب بن ماشاء الله	٤ر٠٠٠	»
بازيني	٢٠٠ر٠٠٠	درهم
محمد بن عبدالله بن الحارث	١٠ر٠٠٠	دينار
محمد بن أحمد بن حماد	٢٥٠ر٠٠٠	»
ابراهيم بن أحمد المادرائي	١٥ر٠٠٠	»
أبو عمر الجرجاني	١٠٠ر٠٠٠	درهم
»	٣ر٠٠٠	دينار
علي بن محمد الحواري	٧٠٠ر٠٠٠	درهم
عبيدالله بن أحمد يعقوبي	١٠٠ر٠٠٠	درهم
هرون بن أحمد بن هرون الهمداني	٧ر٠٠٠	دينار
حسن بن ابراهيم الخرائطي	١٠٠ر٠٠٠	درهم
حسين بن علي بن ناصر	١٠٠ر٠٠٠	درهم
عبدالله بن زيد بن ابراهيم	٢ر٥٠٠	دينار
»	١٥ر٠٠٠	درهم
علي بن محمد بن السمان	٢ر٥٠٠	درهم

الاسكافي ، كاتب ابن الحواري	٦٠.٠٠٠ دينار
أبو بكر الجرجاني	١٠.٠٠٠ درهم
محمد بن أحمد	» ١٥٠٠.٠٠٠
أبو الحسن بن بسطام	» ٣.٠٠٠.٠٠٠
أحمد بن محمد بن حمد بن العباس	» ٥٠.٠٠٠
بجي بن عبدالله بن اسحاق	٧.٠٠٠ دينار
حامد بن العباس	» ١٣٠٠.٠٠٠
محمد بن حمدون الواسطي	» ١٥٠.٠٠٠
علي بن عيسى	» ٣٢١.٠٠٠
ابراهيم بن بوخنا (جيهده حامد)	» ١٠٠.٠٠٠
الحسن بن أحمد المادرائي	» ١٢٠٠.٠٠٠
» » »	» ١.٠٠٠.٠٠٠
محمد بن علي المادرائي	» ١٠.١١.٠٠٠
سليمان بن مخلد	١٣.٠٠٠ درهم
المجموع — الدنانير	٧٥٧٥٠٦٨٠ ديناراً
— الدراهم	٥٣٠٠.٠٠٠ درهماً
وبتحويل الدراهم إلى دنانير يكون المجموع	٨٠.٤٠.٠٠٠ ديناراً ^(١) .

استنتاجات عامة :

(١) كان التغلب البويهى (سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) حداثاً فاصلاً بين قترين ،
إذ أنه أثر على الاقتصاد الزراعى وعرفل نمو المؤسسات التجارية والصيرفية .

- (٢) لعل مستوى الأسعار في الفترة البوهمية كان أوطأ من الفترة السابقة ، ولكن الغلاء تكرر أكثر في الفترة البوهمية .
- (٣) جاء التغلب البوهمي بالغرباء إلى أحسن الوظائف ، وجعل مستوى الأهلين عامة في عداد الطبقات المتوسطة والفقيرة .
- (٤) انخفض دخل الخليفة والوزير والموظفين المدنيين في الفترة البوهمية ، بينما ارتفع دخل الجيش .
- (٥) لقد قامى الفلاحون ، في العصر البوهمي بصورة خاصة ، من كثرة الضرائب ، ومن جشع الموظفين وعدم ضبطهم ، ومن خراب نظام الري .
- (٦) لقد تضاعفت الخدمات الاجتماعية ، التي تقوم بها الدولة ، في الفترة البوهمية .
- (٧) كانت المصادرة وسيلة مناسبة للتنكيل بالخصوم وللحصول على المال ، ولكن نسبتها في الفترة البوهمية كانت أقل من السابق .
- واختم رسالتي مبيناً أن التغلب البوهمي أدى إلى هبوط في مستوى المعيشة لسكان العراق .

المصادر

(أ) المصادر الأولية :

- ١ - الابشيهي - المستطرف من كل فن مستظرف . جزء آن . القاهرة ١٣٠٨ هـ .
- ٢ - اخوان الصفا - رسائل اخوان الصفا . نشرها الزركلي . ٤ مجلدات . القاهرة ١٩٢٨ م .
- ٣ - الادريسي - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . روما ١٥٩٢ م .
- ٤ - الأزدي - حكاية أبي القاسم البغدادى . نشرة آدم متر . هيدلبرج ١٩٠٢ م .
- ٥ - الاصطخري - المسالك والممالك . المكتبة الجغرافية العربية ، ج ١ (B. G. A. I) نشره دي خويه ليدن ١٨٧٠ . وطبعة مولر Liber Climatum ed. Moeller, Gotha 1939
- ٦ - الاصفهاني ، أبو الفرج : كتاب الأغاني ٢٠ جزء آ . بولاق ١٢٨٥ هـ . وج ٢١ باعتناه برونو ، ليدن ١٨٨٨ .
- ٧ - الاصفهاني ، حمزة : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . باعتناه كوتوالد جزء آن بطرسبورج ١٨٤٤ - ١٨٤٨ .
- ٨ - الانطاكى - تاريخ الانطاكى - باعتناه لويس شيخو . بيروت ١٩٠٦ .
- ٩ - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - باعتناه تورنبرج . ١٤ جزء ، ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٩ .
- ١٠ - ابن الاخوة القرشي - معالم القرية في أحكام الحسبة - باعتناه ر . لينى . مجموعة تذكار جب ، ١٩٣٨ م .
- ١١ - ابن أبي اصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء . جزء آن . القاهرة ١٨٨٤ م .

١٢- ابن بسام - نهاية الرتبة في طلب الحسبة . باعتناء لويس شيخو . مجلة المشرق
السنة العاشرة ١٩٠٧ م .

١٣- ابن البطريق ، سعيد : تاريخ ابن البطريق . باعتناء لويس شيخو .
بيروت ١٩٠٥ م .

١٤- ابن تيمية - الحسبة في الاسلام . القاهرة ١٣٢٨ هـ .

١٥- » » - مجموع الرسائل والمسائل . نشره رشيد رضا . القاهرة ١٣٤١ هـ .

١٦- ابن جبير - رحلة ابن جبير . باعتناء دي خويه . مجموعة تذكاري .
١٩٠٧ م .

١٧- ابن الجوزي ، عبدالرحمن : مناقب بغداد . نشره محمد بهجة الأثري .
بغداد ١٣٤١ هـ .

١٨- ابن الجوزي ، عبدالرحمن : تليس ابليس . القاهرة ١٩٢٨ م .

١٩- ابن حوقل : المسالك والممالك . المكتبة العربية ج ٢ . باعتناء دي خويه ،
ليندن ١٨٧٠ . وطبعة جديدة باعتناء كرامرز ليندن ١٩٣٨ .

٢٠- ابن خرداذبة - المسالك والممالك . المكتبة الجغرافية العربية ج ٤ . باعتناء
دي خويه ليندن ١٨٨٩ .

٢١- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . ٧ مجلدات . بولاق ١٢٨٤ هـ

٢٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان . جزء آن . بولاق ١٢٩٩ هـ .

٢٣- ابن رسته : الأعلام النفيسة . المكتبة الجغرافية العربية ج ٧ . باعتناء
دي خويه . ليندن ١٨٩٢ م .

٢٤- ابن الراهب : تاريخ ابن الراهب . باعتناء لويس شيخو . بيروت ١٩٠٣ م .

٢٥- ابن الرومي : ديوان ابن الرومي . نشره كامل كيلاني . ٣ أجزاء .
القاهرة ١٩٢٤ م .

٢٦- ابن الساعي : الجامع المختصر . الجزء التاسع . نشره مصطفى جواد . بغداد ١٩٣٤ م .

٢٧- ابن الصيرفي : الاشارة إلى من نال الوزارة . باعتناء مخلص . باريس ١٩٢٤ م .

٢٨- ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية . القاهرة ١٩٢٧ م (وطبعة أخرى باعتناء درنبورغ . باريس ١٨٩٤ م) .

٢٩- ابن العبري : مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ م . وترجمة انكليزية عن النسخة السريانية التي تختلف أحياناً عن العربية ، وهي

Chronology : Translated From Syriac, By E. A. W. Budge . London 1932 .

٣١- ابن العماد : شذرات الذهب ، ٨ مجلدات . القاهرة ١٣٥٠ هـ .

٣٢- ابن فضالان : رحلة ابن فضالان . باعتناء م . فرين ، بطرسبورج ١٨٢٣ م ، وطبعة حديثة في ليننغراد ١٩٣٨ م .

٣٣- ابن الفقيه الممداني : مختصر كتاب البلدان . المكتبة الجغرافية العربية ج ٥ . باعتناء دي خويه . لندن ١٨٨٥ م .

٣٤- ابن القوطي : الحوادث الجامعة . نشره مصطفى جواد . بغداد ١٣٥١ هـ .

٣٥- ابن قتيبة : أدب الكاتب . باعتناء دي خويه . لندن ١٩٠٢ م .

٣٦- ابن مماتي : قوانين الدواوين . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٣٧- ابن منظور : لسان العرب ٢ جزءاً . بولاق ١٣٠٨ هـ .

٣٨- ابن النديم : الفهرست . باعتناء فلوجل . جزءاً . ليزج ١٨٧١ م .

٣٩- ابن وحشية : كتاب الفلاحة النبطية (خط) . مكتبة بودليان باكسفورد .

٤٠- أبو عبيد ، القاسم بن سلام : الأموال . القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٤١- أبو يعلى ، الفراء الحنبلي : الأحكام السلطانية . القاهرة ١٩٣٨ م .

- ٤٢ - أبو يوسف : الخراج . القاهرة ١٣٥٢ هـ .
٤٣ - البستاني ، بطرس : دائرة المعارف العربية ١١ مجلداً بيروت - القاهرة ١٨٧٦ - ١٩٠٠ م .

- ٤٤ - البطليوسي : الاقتضاب . بيروت ١٩٠٨ م .
٤٥ - البغدادي ، عبد القادر : الفرق بين الفرق . باعتناء م . بدر القاهرة ١٩١٠ م .

- ٤٦ - البلاذري : فتوح البلدان . باعتناء دي خويه ليدن ١٨٦٦ م .
٤٧ - البلخي ، أبوزيد : تمة صوان الحكمة . باعتناء الشافعي . لاهور ١٩٣٥ م .
٤٨ - البيروني ، أبو الريحان : الآثار الباقية عن القرون الخالية . باعتناء ادورد سخاو . ليزج ١٨٧٨ م .

- ٤٩ - البيروني ، أبو الريحان : الجماهر في معرفة الجواهر . باعتناء ف . كرنكو ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ .

٥٠ - El - Biruni's India, Translated By E. Sachau . 2 Vols. London 1888 .

- ٥١ - البيهقي : المحاسن والمساوي . باعتناء ف . شوالي . كسن ١٩٠٢ م .
٥٢ - التنوخي - الفرج بعد الشدة ، جزء آن . القاهرة ١٩٠٤ م .
٥٣ - التنوخي - نشوار المحاضرة ، أو جامع التواريخ . ج ١ نشره مرجليوث القاهرة ١٩٢١ ، وج ٨ نشره المحمّد العلمي العربي بدمشق ، دمشق ١٩٣٠ . وترجمة انكليزية للجزء الثاني وللجزء الثامن بقلم مرجليوث

في مجلة Islamic Culture

- ٥٤ - التنوخي - عنوان الحكمة والبيان (خط) . في مكتبة بودليان باسفورد

رقم (Marsh 251)

- ٥٥ - الثعالبي ، أبو منصور : أربع رسائل . القسطنطينية . ٣٠١ هـ . ✓
- ٥٦ - » » : ثمار القلوب . القاهرة ١٣٢٦ هـ . ✓
- ٥٧ - » » : فقه اللغة . بيروت ١٨٨٥ م . ✓
- ٥٨ - » » : خاص الخاص . تونس ١٢٩٣ هـ . ✓
- ٥٩ - » » : لطائف المعارف . باعتناء دي يونج . بتافيا ١٨٧٦ م . ✓
- ٦٠ - الجاحظ : البخله . نشره المجمع العلمي العربي بدمشق . دمشق ١٩٣٨ م .
- ٦١ - » : البيان والتبيين ، جزء أن . القاهرة ١٣١١ - ١٣١٣ هـ .
- ٦٢ - » : التبصر بالتجارة . نشره حسن حسني عبدالوهاب ، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٣٣ م (ص ٣٢١ - ٣٥١) .
- ٦٣ - » : الدلائل والاعتبار في الخلق والتدبير . نشره الطباخ . حاب ١٩٢٨ م .
- ٦٤ - » : رسائل الجاحظ ، (١١ رسالة) . القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٦٥ - » : رسائل الجاحظ . باعتناء حسن السندوني . القاهرة ١٩٣٣ م .
- ٦٦ - » : ثلاث رسائل . باعتناء فلان فلوطن ١٩٠٣ م (Tria Opuscula) .
- ٦٧ - » : ثلاث رسائل . باعتناء فنكل . القاهرة ١٣٤٤ هـ .
- ٦٨ - الجهشياري : الوزراء والسكرات . باعتناء مصطفى السقا ، والاياري ، والشلي . القاهرة ١٩٢٨ م . ✓
- ٦٩ - الحيشي : البركة في فضل السعي والحركة . القاهرة ١٣٠٨ هـ .
- ٧٠ - حدود العالم : نشره وترجمه وعلق عليه ف . مينورسكي . (مجموعة تذكار جب) اكسفورد ١٩٣٧ م .
- ٧١ - الحريري : مقامات الحريري . باعتناء دي سامي . باريس ١٨٢٢ م .

- ٧٢ - الحصري - زهر الآداب ، ٤ أجزاء . القاهرة ١٩٢٥ م .
- ٧٣ - حمد الله المستوفي - نزهة القلوب . ترجمة ج . لسترنج (مجموعة تذكارات جب) ١٩١٩ م .
- ٧٤ - الحاج خليفة - كشف الظنون . باعتناء ج . فلوجل ، ٧ مجلدات . ليبزج ١٨٥٨ - ١٨٣٥ م .
- ٧٥ - الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ، الجزء الأول . نشر وترجمة سالمون . باريس ١٩٠٤ م .
- (Introduction Topographique à l'histoire de Baghdad
ed. G. Salmon paris. 1904
- ٧٦ - الحفاجي - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل . القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٧٧ - الخوارزمي - مفاتيح العلوم . القاهرة ١٩٣٠ م ، وطبعة باعتناء فان فلوطن ليدن ١٨٩٥ م .
- ٧٨ - الدميري - حياة الحيوان ، جزء آن . بولاق ١٢٨٤ هـ .
- ٧٩ - الدمشقي ، أبو الفضل : الاشارة إلى محاسن التجارة . القاهرة ١٣١٨ هـ .
- ٨٠ - الدمشقي ، شمس الدين : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر باعتناء م . ا . ف . مهن . بطرسبورج ١٨٦٦ م .
- ٨١ - الديار بكري - تاريخ الخنيس ، جزء آن . القاهرة ١٢٨٣ هـ .
- ٨٢ - الذهبي - تاريخ دول الاسلام . مخطوط في مكتبة بودليان باكسفورد رقم Marsh 66
- ٨٣ - الذهبي - مختصر تاريخ دول الاسلام . حيدر آباد الدكن ١٣٢٧ هـ .

- ٨٤ - ربيعة الرأي ، هلال - أحكام الوقف . حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ .
- ٨٥ - الزبيدي - تاج العروس ، ١٠ مجلدات . القاهرة ١٣٠٦ هـ .
- ٨٦ - السقطي ، أبو عبدالله محمد - كتاب في آداب الحسبة . نشره كولن ولفي بروفنسال . باريس ١٩٣١ م .
- ٨٧ - السراج - مصارع العشاق . القسطنطينية ١٣٠١ هـ .
- ٨٨ - سهراب (أو ابن سراييون) - عجائب الاقاليم السبعة (B. A. H.) . باعتاه هانس مزليك ليبزج ١٩٢٩ م .
- ٨٩ - السمعاني - كتاب الانساب (مجموعة تذكار جب) . ليدن ١٩١٣ م .
- ٩٠ - السيوطي - تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٣٥١ هـ .
- ٩١ - الشهرستاني - الملل والنحل . نشره و. كويرتن ، جزء آن ، ليبزج ١٩٢٣ م .
- ٩٢ - الشيباني - كتاب المحارج والحيل . نشره ي . شاخت . هانوفر ١٩٢٣ م .
- ٩٣ - الصابي ، هلال - تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء . نشره هـ . ف . آندروز بيروت ١٩٠٤ م .
- ٩٤ - الصابي ، أبو اسحق - رسائل الصابي ، الجزء الأول . نشره شكيب ارسلان . لبنان ١٨٩٨ م .
- ٩٥ - الصولي - أدب الكتاب . نشره محمد بهجة الأثري . القاهرة ١٣٤١ هـ .
- ٩٦ - أخبار الرازي والمتقي بالله . باعتاه هـ . دن . القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٩٧ - أشعار أولاد الخلفاء . باعتاه هـ . دن . القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٩٨ - طيفور - تاريخ بغداد ، الجزء السادس ، باعتاه هـ . كلر . ليبزج ١٩٠٤ م .

٩٩ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك . نشره دي خويه وآخرون ، ١٥ مجلدًا .
ليدن ١٩٠١ م .

١٠٠ - الطبري - اختلاف الفقهاء ، نشره ي . شاخت . لندن ١٩٣٥ م .
١٠١ - عريب بن سعيد القرطبي - صلة الطبري . نشره دي خويه . لندن .
١٨٩٧ م .

١٠٢ - الغزالي - احياء علوم الدين ، ٤ أجزاء . القاهرة ١٣٤٦ هـ .
١٠٣ - » - الرد على الباطنية . نشره ا . كولدتسير . لندن ١٩١٦ .
١٠٤ - » - رسائل (١٠) . القاهرة ١٩٣٤ م .
١٠٥ - الفارابي - احصاء العلوم . نشره أمين . القاهرة ١٩٣١ م .
١٠٦ - » - رسالة في فضيلة العلوم والصناعات . حيدرآباد الدكن ١٣٤٠ هـ .
١٠٧ - فان دايك : اكتفاء القنوع بما هو مطبوع . القاهرة ١٨٩٦ م .
١٠٨ - قدامة - الخراج وصناعة الكتابة (المكتبة الجغرافية العربية مجلد ٦) ،
نشره دي خويه . لندن ١٨٨٩ م .

١٠٩ - القفطي - تاريخ الحكماء . نشره ج . ليرت . لينزج ١٩٠٣ م .
١١٠ - القلقشندي - صبح الأعشى ، ١٢ جزءًا . القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢ م .
١١١ - القمي - تاريخ قم . طهران ١٣٥٣ هـ .
١١٢ - الكتي - فوات الوفيات ، جزء آن . بولاق ١٢٨٣ هـ .
١١٣ - الكندي - الولاة والقضاة . نشره ر . كيست (مجموعة تذكاري
جب) ١٩١٢ م .

١١٤ - المروزي - في الصين والترك والهند . نشره وترجمه وعلق عليه
ف . مينورسكي . لندن ١٩٤٢ م .

- ١١٥ - المسعودي - أخبار الزمان (?) القاهرة ١٩٢٩ م .
- ١١٦ - المسعودي - مروج الذهب : باعتناء باريه دى مينارد وباقيه دى كورتي .
تسعة مجلدات . باريس ١٨٦١ م - ١٨٧٧ م .
- ١١٧ - المسعودي - التنبيه والاشراف (المكتبة الجغرافية العربية ج ٨) نشره
دى خويه ليدن ١٨٩١ م .
- ١١٨ - الماوردي - الأحكام السلطانية . القاهرة .
- ١١٩ - مسكويه - تجارب الأمم . باعتناء آمدرور و مرجليوث . ٧ مجلدات .
القاهرة واكسفورد ١٩٢٠ م - ١٩٢١ م .
- ١٢٠ - المقدسي - مطهر بن طاهر : البدء والتاريخ ، ستة مجلدات . باريس
١٨٩٩ م - ١٩١٩ م .
- ١٢١ - المقدسي - أحمد بن عبد الرزاق - اليواقيت . القاهرة ١٣٠٠ هـ .
- ١٢٢ - المقدسي - أحسن التقاسيم الى معرفة الاقاليم (المكتبة الجغرافية
العربية ج ٣) . نشره دى خويه ١٨٧٧ م .
- ١٢٣ - المعري - رسالة الغفران . نشرها كامل كيلاني جزآن . القاهرة ١٩٣٨ .
- ١٢٤ - » - سقط الزند . القاهرة ١٩٠١ م .
- ١٢٥ - المقرئ - الخطط والآثار جزآن . بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ١٢٦ - المقرئ - اغائة الامة بكشف الغمة . نشره مصطفى زيادة والشيال .
القاهرة ١٩٤٠ م .
- ١٢٧ - المقرئ - شذور العقود باعتناء ، ل . أ . ماير . الاسكندرية ١٩٣١ م .

١٢٨ - ناصر خسرو - سفر نامه . نشره وترجمه الى الفرنسية شفر . باريس . ١٨٨١ م .

١٢٩ - النيسابوري - عقلاء المجانين . نشره ف . كيلاي . القاهرة ١٩٢٤ م .
١٣٠ - نظام الملك - سياسة نامه . نشره وترجمه الى الفرنسية شفر . باريس . ١٨٩١ م - ١٨٩٧ م .

١٣١ - النوري - نهاية الارب . ٧ مجلدات القاهرة ١٩٢٣ م - ١٩٢٩ م .
١٣٢ - الهاشمي ، طه : مفصل جغرافية العراق . بغداد ١٩٣٠ م .
١٣٣ - الوراق - كتاب الطيخ . مخطوط في مكتبة بودليان اكسفورد . رقم
Hunt 187

١٣٤ - يحيى بن آدم القرشي - كتاب الخراج . نشره جوينبول ليدن ١٨٩٦ م .
١٣٥ - ياقوت - ارشاد الارب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) . نشره
د . ي . مرجليوث ٧ مجلدات القاهرة ١٩٠٧ م - ١٩٢٥ م .
١٣٦ - ياقوت - معجم البلدان . نشره وستنفلد ٦ مجلدات . لينزج
١٨٦٦ م - ٧٠ م .

المراجع الثانوية -

أ - العربية

١٣٧ - الآلوسی ، محمود شكري : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ٣ أجزاء
بغداد ١٣١٣ .

١٣٨ - أحمد أمين - ضحى الاسلام الجزء الثالث القاهرة ١٩٣٦ م .
١٣٩ - الأعظمي ، علي ظريف : تاريخ البصرة بغداد ١٩٢٧ م .

١٤٠ - اسماعيل غالب - قويم مسكوكات قديمة اسلامية . اسطنبول ١٣١٢ هـ /

١٨٩٤ م - ٥٥ م .

١٤١ - جبري ، شفيق - الجاحظ . دمشق ١٩٣١ م .

١٤٢ - جودت ، م . الاخية ، الفتیان . اسطنبول (١٩٣٦ م) .

١٤٣ - حمادة ، سعيد - النظام الاقتصادي في العراق . بيروت ١٩٣٨ م .

١٤٤ - الرفاعي ، أحمد فريد : عصر المأمون ٣٠ مجلدات . القاهرة ١٩٢٧ م .

١٤٥ - الزياد ، حبيب : تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين ، المشرق

ج ٣٢ ، ١٩٣٤ م .

١٤٦ - زيدان ، جرجي - تاريخ آداب اللغة العربية ، أربعة أجزاء ، القاهرة

١٩١١ م - ١٩١٤ م .

١٤٧ - زيدان ، جرجي - تاريخ المدن الاسلامي ، خمسة أجزاء ، القاهرة

١٩٠٢ - ٥

١٤٨ - صباغ ، م : الحمام الزاجل . نشره وترجمه دى ساسي . باريس ١٨٠٥ م .

١٤٩ - الصائغ : تاريخ الموصل ، جزء آن .

١٥٠ - عنان ، عبد الله : الحاكم بامر الله ، القاهرة ١٩٣٧ م . ✓

١٥١ - عزام ، عبد الوهاب : ذكرى ابي الطيب . بغداد ١٩٣٦ م .

١٥٢ - العزاوي ، عشائر العراق . بغداد ١٩٣٧ م .

١٥٣ - غنيمه ، رزوق - الحيرة . بغداد ١٩٣٦ م .

١٥٤ - غنيمه - صناعة العباسيين ، مجلة غرفة تجارة بغداد ١٩٤١ م .

١٥٥ - كرد علي ، خطط الشام ، ٤ أجزاء دمشق ١٩٢٣ .

١٥٦ - الكرملي ، الأب انستاس ماري : النقود العربية وعلم النميات .

القاهرة ١٩٣٩ م .

١٥٧ - الدور ، جميل نخلة - حضارة الاسلام في دار السلام . القاهرة

١٩٠٥ م

(ب) المراجع الاجنبية :

- (1) Adler, E.N. : Jewish Travellers, London 1930
- (2) Agnides, N. A - Muhammedan Theories of Finance, Newyork 1916
- (3) Barthold: Mussulman Culture. Translated from Russian by Suhrawardi. Calcutta 1934
- (4) Barthold : Turkestan down to the mongol invasion (G. M. S.) 1928
- (5) M. Van Berchem : La Propriété Territoriale, Genève 1886
- (6) Bowen, H. : The life and times of 'Ali b. Isa. Cambridge 1924
- (7) Blancard : Sur L'origine du Monnayage Musulman. R.N 3 ème Serie, 1884
- (8) Brockelmann, c. Geschichte der arabischen litteratur, 3 vols (Supplement) Leyden 1937
- (9) Butler : Islamic pottery, London 1926
- (10) Cordington : A manual of musulman Numismatics, London 1904
- (11) Dorn : Inventaire des Monnaies des Khalifes Orientaux et Plusieurs Autres Dynasties, St. Pétersbourg, 1881
- (12) Dozy, R.P.A. : Dictionnaires des Noms des Vêtements Arabes. Amsterdam 1845 .
- (13) : Suppléments aux Dictionnaires Arabes, 2 vols, Leyden 1881
- (14) East, G. = Geography Behind History. Londou 1938.
- (15) Ferrand, G. = Relations des Voyages et Textes Géographiques relatifs a L'extrême Orient, 2 vols. Paris 1913

- (16) Ferrand, G. = Voyage du Marchand Arabe Suleyman en Inde et en Chine, Paris, 1922
- (17) Field, H. = The Anthropology of Irak, Pr. 1, No. 1, New-york 1940
- (18) = The Arabs of Central Irak, anth. Memoirs, lv, New-york, 1935
- (19) Fischel, W.J. = Jews in the Economic and Political life of Medieval islam, London 1937
- (20) Gibb, H.A.R. = The Arab Conquest in Central Asia, London 1923
- (21) De Goeje, M.J. Mémoire sur Les Carmathes du Bahrain et Les Fatimides, Leide 1896
- (22) Halkin = Muslim Schisms and Sects (A translation of the Second Part of Baghdadi), Tel-aviv, 1935
- (23) Hasan, H. = A History of Persian navigation, London 1928
- (24) Heyd, W. = Histoire du Commerce du Levant, 2 vols, Leipzig 1923
- (25) Hitt, P.K. = History of the Arabs, 2 nd. ed, London 1940
- (26) = The Origins of the islamic state, pt. 1, New-york, 1916 ; pt. II by Murgotten New-york 1924
- (27) Kremer, A = The Orient Under the Caliphs, translated by S. Khuda Bukhsh Calcutta 1920
- (28) Kremer, A. = Uber das Einnahmebudget des Abbasiden-Reiches vom Jahre 306, Wien, 1887
- (29) Lambton, K.S. = Contributions to the study of Seljuk institutions (Mss. Thesis 1939)
- (30) Lane, E.W. = The Arabian Nights, 3 vols, London 1859
- (31) Lane-Poole (S.) = Additions to the Oriental Collection of coins in the B.M. ed. R S. poole, London 1889-1890

- (32) = Arabic Glass Coins, London 1872
- (33) = The Arabian Historians on Muhammedan Numismatics, N.C., 3rd 2er, iv, 1884
- (34) = Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedieval Library at Cairo, London 1897
- (35) = The Coins of the Eastern Khaleefehs in the British Museum (ed. R.S. p) I, London 1875
- (36) = The coins of the Muhammedan Dynasties in the British Museum, Classes III-X (ed. R.S.P.) Londond 1876
- (37) Lavoix, H. = Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale (Khalifes Orientaux), Paris, 1887
- (38) Lévi-Provençal = L'Espagne Musulmane aux Xème Siècle, Paris, 1932
- (39) Levy, R. = A Baghdad Chronicle Cambridge, 1929
- ✓ (40) Lewis, B. = The Origins of ismailism, Cambridge, 1940
- (41) = Islamic Guilds, E. H. R., 1937
- (42) Lindberg, J. C. = Essai sur les Monnaies Bouides, in « mem. de la soc Roy. des Antiquaires du Nord. » 1844 pl. xl, 193-271
- (43) Legett, E. = Notes on the mint Towns and Coins of the Muhammadans, London, 1885
- (44) Mann, J. = The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimids, 2 vols, 1920
- (45) = The Responsa of the Babylonian Geonim, 1919
- (46) Massignon = Enquête sur les Corporations Musulmanes du Maroc, R. M. M. 1924
- (47) = L'influence de L'islam au Moyen age sur la Fondation et L'essor des Banques Juives. B. I. F. D. 1931

- (48) Massignon, = La Passion d'al-Halladj. 2 vols Paris 1922
- (49) Mayer, L. A. = A bibliography of Moslem numismatics, London 1939
- (50) Miles, G. C. = The numismatic History of Rayy, New-york, 1938
- (51) Mez, A. = The Renaissance of Islām. translated by S. khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth, London 1937
- (52) Minorsky, V. = La Domination des Dailamites, Paris 1932.
- (53) Musil, A. = The Middle Euphrates, New-york, 1927
- (54) Nicholson = A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1930
- (55) Nöldeke, Th. = Sketches from Eastern History. Translated by I. S Black, London 1892
- (56) Pier = Pottery of the Near East. New-york 1909
- (57) Queipo, don Velasquez = Essai sur les Systèmes Metriques et Monétaires des Anciens peuples, 3 vols Paris, 1895
- (58) Reinaud, I. T. = Géographie d'Aboulféda, 2 vols Paris 1848-1853
- (59) Ritter, H. = Ein Arabisches Handbuch der Handelswissenschaft, Berlin, 1920
- (60) Rockhill and Hirth = Chau Ju-kua. Chinese Arab trade in the 12 th and 13 th centuries. St Petersburg, 1911
- (61) Roger, J. = Notice on the Dinars of the Abbāsid Dynasty, J. R. A. S., N. S. VIII 1873
- (62) De Sacy, S. = Chrestomathie Arabe, 3 vols. Paris, 1806
- (63) = Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols, Paris 1838

- (64) = al - Maqrizi - Traité des Monnaies Musulmanes, trad. Par A. I. S. de Sacy, Paris, 1797 .
- (65) Sadighi, G. H. = Les Mouvements Religieux Iranians, Paris, 1938
- (66) Seippel = Rerum Normannicum Fontes Arabici Osloae, I, 1896 ; II, 1928
- (67) Soret, F. J. = Eléments de la numismatique Musulmane, Bâle et Genève, 1868
- (68) Le Strange, G. = Baghdad during the Abbasid Caliphate ; Cambridge, 1924
- ✕ (69) = The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1930
- (70) = Description of Mesopotamia and Baghdad (ibn Serapion) , J. R. A. S. 1895
- (71) Sauvaire, H. = Matériaux pour servir à L'histoire de la Numismatique et de la métrologie Musulmane, J. A. VII ème sér. T. XIV, XV, Paris, 1879
- (72) de Tarôn. Etienne Asolik = Histoire Universelle. Translated from Armenian by F. Macler. II ème pt. Livre III Paris 1917.
- (73) Torry, C. C = The Commercial Theological terms in the koran, Leyden, 1892
- (74) Vasmer, R. = Ein im dorfe slaryi dedin in Werse, Russland, gemachter fund Kufischer münzen. Stockholm, 1929
- (75) Wellhausen = The Arab Kingdom and its Fall. Translated by M. G Weir, 1927.
- (76) Willcox, W. = Irrigation of Mesopotamia, London 1917
- (77) Yule, H. = Cathay and the way Thither, 2 vols, London 1866

م . لقد حذفنا من ثبت المصادر، الكتب التي لم تتكرر الإشارة إليها . كما حذفنا أسماء جملة من المراجع في الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي الغربي ، توخيا للاختصار .

- B. I. F. D. = Bulletin de l'institut francais de Damas.
 E. H. R. = Economic History Review
 I. C. = Islamic Culture
 Am. J. of phys. Anth. = American Journal of physical
 Anthropology.
 J. A. = Journal Asiatique
 J. Q. R. = Jewish Quarterly Review
 J. R. A. S. = Journal of the Royal Asiatic Society
 N. C. = Numismatic Chronicle
 R. N. = Revue Numismatique
 R. N. B. = Revue Numismatique Belge
 Z. M. D. G. = Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen
 Gesellschaft

م. غ. ت. ب = مجلة غرفة تجارة بغداد

توضيح لبعض المختصرات

- B. M. = Lane-poole : Coins of the Khaleefehs in the British
 Museum
 E. I = Encyclopedia of Islam
 E. I. supp = Supplement of the E. I.
 H. A. = Hudud al-A'lam
 Le Strange, I. = Ibn Serapion in J. R. A. S. 1895
 Le strange II = Lands of the Eastern Caliphate

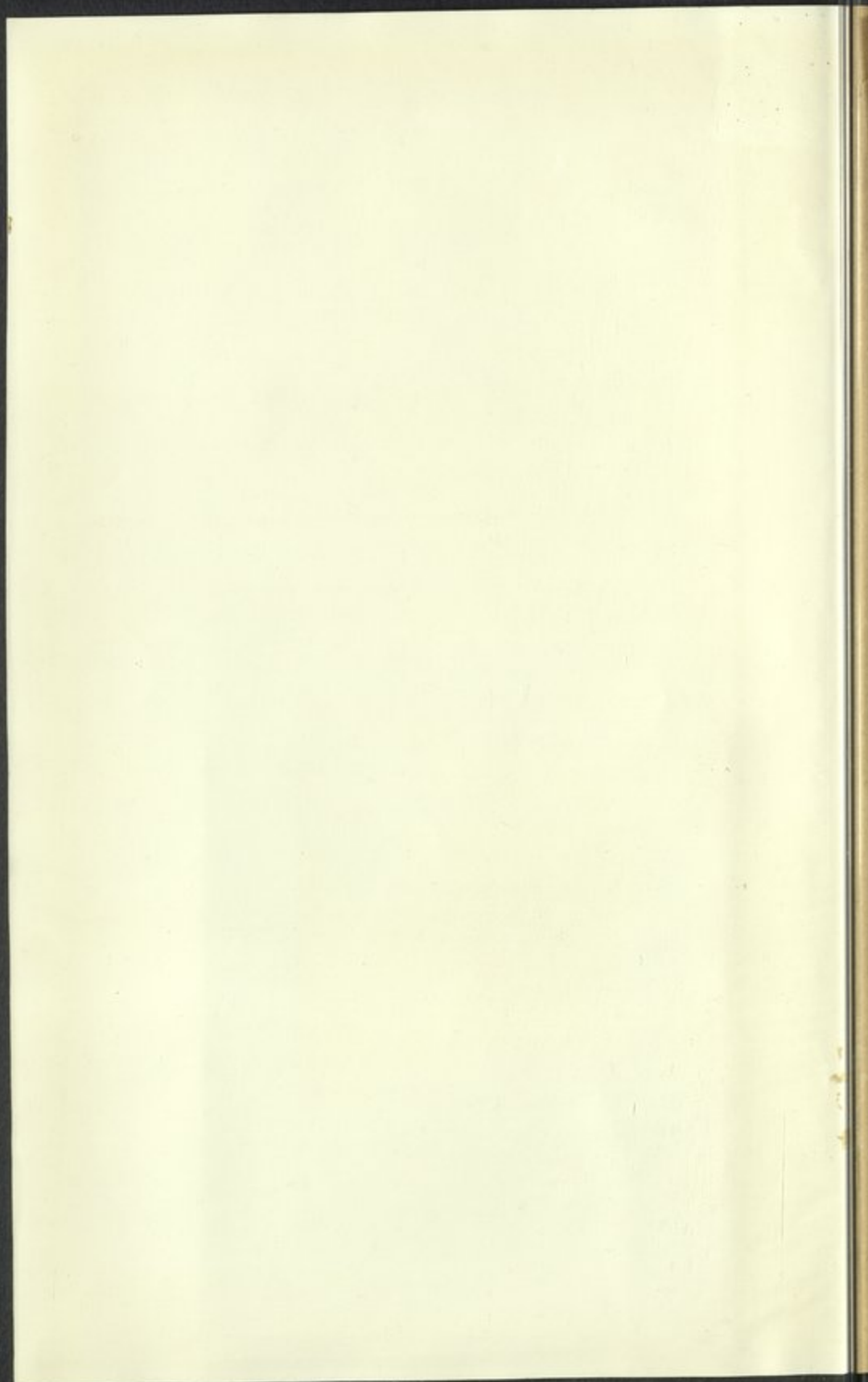
ن. م = نفس المصدر

ابن حوقل « ك » = طبعة كرامرز لابن حوقل

اما المختصرات الاخرى فنسهل معرفتها على القارىء اليب

تحت المحتويات

—	المقدمة
١	تصدير
٢١ - ٣	✓ الفصل الاول : العوامل الجغرافية التي تؤثر في تاريخ العراق
٦٠ - ٢٢	✓ الفصل الثاني : الزراعة
١٠٦ - ٦١	✓ الفصل الثالث : الصناعة
١٥٧ - ١٠٧	✓ الفصل الرابع : التجارة
١٧٩ - ١٥٨	الفصل الخامس : الجبهة والصيرفة
٢٠٨ - ١٨٠	✓ الفصل السادس : الضرائب
٢٣٤ - ٢٠٩	✓ الفصل السابع : النظام النقدي
٢٨٤ - ٢٣٥	✓ الفصل الثامن : مستوى المعيشة
٣٠١ - ٢٨٥	المصادر :



DATE DUE

J. Lib.

1 JUN 1979

JAFET LIB.

2

J. Lib.

1 JUN 1979

JAFET LIB.

19 NOV 1991

Jafet Library

01 FEB 1995

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



